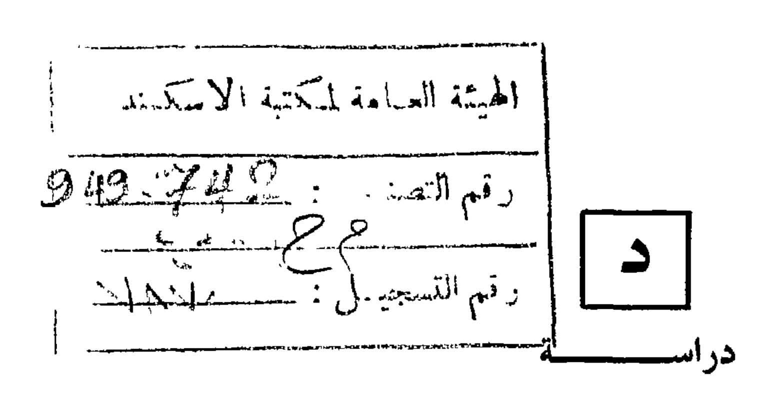
البوسنة والهرسك



د
دراســـة

البوسنة والهرسك

د . جمـال الـدين سيـد محمد



رقم الإيداع : ١٩٩٢/١٠٤٠١
I.S.B.N. 977—5344—51—4

الطبعــــــة الأولى ١٩٩٢

دار سـعـاد الصبــاح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ – الكويت
القاهرة – ص.ب : ١٣ المقطم
تليفون : ٣٤٩١٧٢٧
٣٤٩٧٧٧٩
٧٠٩٥٨٣
فاكس : ٧٠٩٥٦٣
٥٠٦١٠٣٠

الاشراف الفنى : حلمى التونى

تقـــديم

مضت شهور كاملة وجمهورية البوسنة والهرسك تعانى من القصف والدمار والاغتصاب والذبح ، ومرت شهور عديدة والنازيون ينظرون فى استحياء لما يفعله تلاميذهم الذين تفوقوا عليهم فى بربريتهم ووحشيتهم وإجرامهم وأساليبهم فى الإبادة والتطهير العرقى . وانقضت شهور كثيرة وما زال سجل العار فى البوسنة والهرسك مفتوحاً يسجل كل ما يقع على أرضها بهدف طمس كل ما له صلة بالهوية الإسلامية وذلك عن طريق تدمير مساجدها ومكتباتها وآثارها الإسلامية الأخرى بينما العالم المتحضر يغض الطرف عن عاره ويجتر خزيه ويتعمد السكوت على فضيحته والتظاهر بالعجز .

وكأن التاريخ يعيد نفسه – وياليته ما أعاد نفسه – لكى يذكرنا بأن هؤلاء المسلمين يعيشون فى جحيم شبه متواصل منذ ما يقرب من قرن ونصف القرن ، ولم يذوقوا خلال هذه الحقبة سوى المذلة والمهانة ولم يهنأوا بأى طعم للحياة رغم أنهم يعيشون فى قلب أوروبا المتحضرة .

والوقت يمضى ثقيلاً عسيراً وتصدر عن مجلس الأمن والأمم المتحدة قرارات تلو القرارات ، والمباحثات تعقب المباحثات ، والنظام العالمى الجديد الناجح فى امتحان الكويت رسب رسوباً سياسياً وأخلاقياً وديمقراطياً مدوياً فى امتحان البوسنة والهرسك ، والأحلام الديمقراطية تتهاوى ، وحكايات حقوق الإنسان تذهب أدراج الرياح ، ويظهر العجز الأوروبى الذريع ويتجلى الصمت الأمريكى المريع .

وكل هذا يتقاطع ويتداخل ويتصادم والبوسنة لا تزال مكبلة بأغلال الأسر ، قابعة تحت ضغط الحديد ولهيب النار تنتظر حلا عجز أهل الأرض عن تقديمه ولذا فلا يسعها إلا أن تنتظر معجزة تهبط عليها من السماء .

ولم يكن باستطاعتي أن أرى ما يحدث على أرض البوسنة والهرسك دون أن أمسك بقلمي لكي أسجل به بعض المعلومات وأذكّر به ببعض الحقائق ، ولكي أركز - كأى إنسان علىٰ وجه هذا الكوكب - على معارضتي الشديدة إزاء كل ما يحدث فيها من قتل للأبرياء وطرد للمدنيين وتطهير عرقي بكل ما يحمله هذا التعبير من تقزز وبشاعة وعنصرية ونحن على أعتاب القرن الحادى والعشرين . وأشدد به على أن أفراد هذا الشعب لا ذنب لهم سوى أن القدر كتب عليهم أن يولدوا ويعيشوا فى هذه البقعة المتميزة من وسط أوروبا الشرقية ، ولم يكن لهم من جريرة إلا أنهم جعلوا من بلدهم بوتقة للإسلام والتسامح والمحبة بين القوميات المتعددة والديانات السماوية الثلاث .

أضف إلى ذلك أننى زرت مدينة سرايفو وبعض مدن البوسنة والهرسك أكثر من مرة ، وكانت كلها زيارات عمل وبحث ودراسة ولا أحمل منها وعنها إلا أجمل الذكريات وأحلى الانطباعات ولى بها عدد كبير من المعارف والأصدقاء الذين لا أعلم مصيرهم حتى الآن ، ومن هنا كان الألم كبيراً والحزن عميقاً بسبب كل ما يحدث فى هذه المنطقة الحبيبة إلى قلبى ونفسى .

ومن هنا نبعت ولهذا السبب جاءت فكرة إعداد هذا الكتاب ، ولم أقصد به أن أدافع عن قضية شعب البوسنة والهرسك وحقه فى الحياة الحرة الكريمة كأى شعب آخر على وجه هذه البسيطة ، بغض

النظر عن جنسيتهم أو قوميتهم أو ديانتهم فهذه مهمة هناك من يحسنون القيام بها أفضل منى .

وغاية ما أهدف إليه بهذا الكتاب أن أنقذ ملف مسلمى البوسنة والهرسك من الضياع فى خضم الأحداث السياسية المتلاحقة ، وأن أسجل بعض ملامح تلك السمات الإسلامية التى أراد البعض عن عمد محوها ، كما أود أن أسجل لقطات سريعة لبعض المدن التى جرى تسويتها بالأرض فى هذه البقعة من العالم ولبعض الآثار الإسلامية الثرية من مساجد ومكتبات ومدارس إسلامية وأبراج للساعات وحمامات عمومية وغيرها من الأوقاف الخيرية . وأريد به أيضاً أن أبرز النسائم الإسلامية التى تتضوع من أعمال أدباء هذه الجمهورية وأن أدعم الهوية الإسلامية للأغلبية من هذا الشعب .

ويتحتم علىّ أن أنوه على الفور إلى أن هذا الكتاب لم يكن – وليس بإمكانه – أن يعطى لحضارة البوسنة والهرسك وثقافتها وأدبها المتميز وشعبها الفريد ومجتمعها المتسامح حقه من العرض والتفصيل على صفحات هذا الكتاب .

والكتاب الذى يشرف بأن يكون بين أيديكم يضم دراسات وأبحاث تستهدف ببساطة شديدة التعريف بهذه الجمهورية الوليدة عن طريق عرض غاية فى الإيجاز لبعض الجوانب التاريخية والحضارية والدينية واللغوية والثقافية والأدبية .

وقد بدأناه ببطاقة تعارف تحوى المعلومات الأساسية بهذه الجمهورية ثم نبذة عن تاريخها . وليس بخاف على أحد أن الجانب التاريخى هنا غاية فى الأهمية إذ بدونه – فيما أعتقد – يستحيل على أى قارئ أن يستبين جوهر القضية وعناصرها الأساسية المتشعبة ، وأتبعناه بعرض لتطور الأحداث التى أوصلت الأزمة إلى

طريقها المسدود ، وأعقبنا ذلك عرضاً لموقف مصر المشرف من هذه الأزمة على جميع الجبهات .

وفي الدراسات المتعلقة ببعض الجوانب الحضارية والدينية واللغوية يتجلى تأثير الإسلام عليها جميعها بشكل يلفت الأنظار ويبعث على التأمل والتفكير ، كما أنني على يقين بأن كثيراً من المعلومات الواردة بهذه الدراسات ستصحح كثيراً من المفاهيم والآراء السائدة لدى عديد من القراء .

وعلى صفحات كتابي هذا حظي الحديث عن الأدب والثقافة بجانب لا بأس به من اهتمامي ، وهذا لاعتقادي بأن الأدب يمثل سجلاً وافياً لما كانت عليه عادات وتقاليد أية أمة وما خلفته من آثار فنية ، كما أن الأعمال الأدبية تعد سجلاً للأحداث السياسية التي مرت على شعب من الشعوب ، ومن هنا فهي أفضل معبر عن التطورات الاجتماعية السائدة لدى أفراد هذا الشعب .

ويمكنني أن أجزم بأن أدب البوسنة والهرسك معروف جيد المعرفة بالنسبة للقارئ العربي . ودليلي على ذلك أن عدداً كبيراً من القراء عندنا يعرفون الأديب إيفو أندريتش الحاصل على جائزة نوبل للأدب في عام ١٩٦١ ، ولكنهم ربما يجهلون أنه مولود بجمهورية البوسنة والهرسك وأن أغلب أعماله الأدبية تتحدث عن هذه المنطقة وعن أهلها ، بيد أن البعض قد يعتب عليّ بسبب تحدثي عن أندريتش وأعماله الأدبية وهو يلقى في الوقت الحالي انتقادات شديدة نتيجة لبعض مواقفه ورواياته . ولكني دوماً مع الرأي والرأي الآخر ولذا عرضت لكلا الرأيين هادفاً بذلك إلى تحقيق أكبر قدر من الموضوعية في أبحاثي هذه .

ولم يفتنى أن أتعرض أيضاً لأولئك الأدباء الذين تركوا بصمة لا تمحى على الأدب البوسنى منذ نشأته وحتى وقتنا هذا .

وليس لى من رجاء إلا أن يجعل الله هذا الكتاب خالصاً له ومقبولاً عنده فلم أقصد به إلا وجهه الكريم .

والحمد لله من قبل ومن بعد ..

القاهرة فى ١٩٩٢/١١/٢٥ **د. جمال الدين سيد محمد**

بطاقة تعارف

اسم جمهورية البوسنة والهرسك مؤلف من كلمتين ، كلمة البوسنة وهى نسبة إلى نهر البوسنة الذى يبلغ طوله حوالى ٢٧٣ كيلومتراً وله فروع يبلغ طولها ١٠٤٨٠ كيلومتراً . واسم نهر البوسنة مستخرج من الصيغة الايليرية « بوسينوس » أو من أساس الكلمة « بوس » التى تعنى الماء الجارى . أما كلمة الهرسك فقد ظهرت فى القرن الخامس عشر ، وهى محرفة من كلمة « هرتزوج » ومعناها « الدوق » نسبة إلى الدوق ستيبان فوكتشيتش كوسأتشى (فى حوالى عام ١٤٤٨) الذى حكم هذه المنطقة كتابع للامبراطورية النمساوية .

وتبلغ مساحة البوسنة والهرسك ٥١,٣٠٠ كيلو متر مربع ، وهى تتوسط ألااضى الاتحاد اليوغسلافى السابق ، فمن الشمال والغرب تحدها كرواتيا ، ومن الشرق صربيا ، ومن الجنوب الجبل الأسود .

ويعيش بالبوسنة والهرسك حوالى أربعة ملايين ونصف منهم ٤٤٪ من قومية المسلمين و ٣١٪ من الصرب و ١٧٪ من الكروات و ٨٪ من القوميات الأخرى ، ولا تجمع هذه الجمهورية قومية واحدة وإنما تتشكل من عدة مجموعات بشرية متباينة تمثل خليطاً بشرياً عرقياً غاية فى التعقيد .

واللغة السائدة فى هذه الجمهورية اللغة الصربوكرواتية أو ألكرواتوصربية بلهجتها الشتوكافسكية وبنطقها الايكافسكى ، واللغة هنا – كما سنوضح فيما بعد – حافلة بالكلمات العربية والتركية والفارسية التى جلبها الأتراك العثمانيون معهم ورسخوها خلال فترة وجودهم بهذه

المنطقة وهذا يعكس توطد علاقات البوسنة بثقافة الشرق على الصعيدين المادى والروحى منذ قرون عدة .

والإنتاج الزراعى متنوع يبدأ من زراعة محاصيل منطقة البحر الأبيض المتوسط وحتى زراعات سلسلة جبال الألب ، ومن أهم المنتجات الدخان والقمح والفواكه وخاصة العنب والتفاح . والصناعة لها دور مهم فى الدخل القومى فى البوسنة والهرسك ، ومنها الصناعات الألكترونية والتحويلية والتعدين وخاصة الحديد والصلب والمعادن النفيسة .

وكانت السياحة مصدراً مهماً من مصادر الدخل فكان يزور البوسنة والهرسك نحو ثلاثة ملايين زائر سنوياً يقضون فى فنادقها ومنتجعاتها خمسة ملايين ليلة سنوياً . ومن أبرز المزارات المناطق الأثرية ومناطق سياحة التزحلق بسبب شهرة سرايفو منذ أن استضافت دورة الألعاب الأولمبية فى عام ١٩٨٤ .

نبذة تاريخية وتطور الأحداث

تدل الاكتشافات الأثرية فى البوسنة والهرسك على أن الناس قد سكنوا هذه المنطقة منذ أزمان بعيدة تعود إلى فترات ما قبل التاريخ وإلى العصر الحجرى القديم . وتفيد أول المصادر المدونة أنه استوطنت هذه المنطقة قبائل الايلير التى تعود حضارتها إلى العصر الحديدى المبكر والوسيط .

وقد توغل الكلت فى هذه المنطقة فى القرن الرابع الميلادى وحملوا معهم حضارة العصر الحديدى الحديث . ويشهد القرن الثالث قبل الميلاد بداية الغزو الرومانى لشبه جزيرة البلقان . وظلت البوسنة خاضعة للرومان منذ ذلك الحين وحتى القرن الرابع الميلادى .

ومع حلول النصف الثانى من القرن السادس الميلادى بدأ السلاف فى الهجرة تدريجياً إلى منطقة شبه جزيرة البلقان ، واستوطنوا هذه المنطقة واستقروا فيها بشكل نهائى فى أوائل القرن السابع . وهنا لابد وأن ننوه إلى نقطة مهمة سبق أن أبرزناها فى دراسات سابقة لنا . فقد قام البيزنطيون وهم المسيطرون على كل شبه جزيرة البلقان بتهجير جزء من السلاف الخاضعين لهم وتجنيدهم وبذلك تدفق دم جديد فى شرايين الجيش البيزنطى الذى دخل آنذاك فى معارك مريرة مع العرب المسلمين . وتحول السلاف إلى قوات تحارب العرب وترد هجماتهم المتكررة . وجرت على الحدود بين الدولة الإسلامية وبين الامبراطورية البيزنطية حروب استمرت ما يقرب من ثمانية قرون اشترك فيها السلاف فى صف البيزنطيين وفى صف المسلمين العرب أيضاً .

المنطقة وهذا يعكس توطد علاقات البوسنة بثقافة الشرق على الصعيدين المادى والروحى منذ قرون عدة .

والإنتاج الزراعى متنوع يبدأ من زراعة محاصيل منطقة البحر الأبيض المتوسط وحتى زراعات سلسلة جبال الألب ، ومن أهم المنتجات الدخان والقمح والفواكه وخاصة العنب والتفاح . والصناعة لها دور مهم فى الدخل القومى فى البوسنة والهرسك ، ومنها الصناعات الألكترونية والتحويلية والتعدين وخاصة الحديد والصلب والمعادن النفيسة .

وكانت السياحة مصدراً مهماً من مصادر الدخل فكان يزور البوسنة والهرسك نحو ثلاثة ملايين زائر سنوياً يقضون فى فنادقها ومنتجعاتها خمسة ملايين ليلة سنوياً . ومن أبرز المزارات المناطق الأثرية ومناطق سياحة التزحلق بسبب شهرة سرايفو منذ أن استضافت دورة الألعاب الأولمبية فى عام ١٩٨٤ .

نبذة تاريخية وتطور الأحداث

تدل الاكتشافات الأثرية فى البوسنة والهرسك على أن الناس قد سكنوا هذه المنطقة منذ أزمان بعيدة تعود إلى فترات ما قبل التاريخ وإلى العصر الحجرى القديم . وتفيد أول المصادر المدونة أنه استوطنت هذه المنطقة قبائل الايلير التى تعود حضارتها إلى العصر الحديدى المبكر والوسيط .

وقد توغل الكلت فى هذه المنطقة فى القرن الرابع الميلادى وحملوا معهم حضارة العصر الحديدى الحديث . ويشهد القرن الثالث قبل الميلاد بداية الغزو الرومانى لشبه جزيرة البلقان . وظلت البوسنة خاضعة للرومان منذ ذلك الحين وحتى القرن الرابع الميلادى .

ومع حلول النصف الثانى من القرن السادس الميلادى بدأ السلاف فى الهجرة تدريجياً إلى منطقة شبه جزيرة البلقان ، واستوطنوا هذه المنطقة واستقروا فيها بشكل نهائى فى أوائل القرن السابع . وهنا لابد وأن ننوه إلى نقطة مهمة سبق أن أبرزناها فى دراسات سابقة لنا .فقد قام البيزنطيون وهم المسيطرون على كل شبه جزيرة البلقان بتهجير جزء من السلاف الخاضعين لهم وتجنيدهم وبذلك تدفق دم جديد فى شرايين الجيش البيزنطى الذى دخل آنذاك فى معارك مريرة مع العرب المسلمين . وتحول السلاف إلى قوات تحارب العرب وترد هجماتهم المتكررة . وجرت على الحدود بين الدولة الإسلامية وبين الامبراطورية البيزنطية حروب استمرت ما يقرب من ثمانية قرون اشترك فيها السلاف فى صف البيزنطيين وفى صف المسلمين العرب أيضاً .

وفى أواخر القرن الحادى عشر فقط بدأ فى البوسنة إرساء العناصر الأساسية لتنظيم الدولة والسلطة . ومن المعتقد أن الحاكم كولين هو مؤسس الدولة البوسنية وهو الذى أرسى دعائمها فى القرون الوسطى . وتدل اتفاقية كولين المبرمة مع دوبروفنيك فى عام ١١٨٩ على وجود دولة البوسنة بالفعل آنذاك .

وفى ذلك الحين برزت ظاهرة دينية متميزة وهى حركة البوجوميلية التى جرى تنظيمها فى الكنيسة البوسنية وصارت عقيدة سائدة . وتعتبر ظاهرة البوجوميلية شكلاً فريداً من أشكال النضال ضد الكنيسة الكاثوليكية ، ومنذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر هددت هذه الظاهرة المصالح الاقتصادية للشعب وكذلك للحاكمين الاقطاعيين . ومنذ نشوء ظاهرة البوجوميلية فى عام ١١٩٩ تقريباً عامل نبلاء روما منطقة البوسنة على أنها بلد منشق وشنوا عليها حرباً صليبية هددت استقلالها وأعاقت تطورها . ومع تطور منطقة البوسنة تطورت فى أوائل العصور الوسطى بلاد « الهوم » أو « زاهوملى » التى عرفت فيما بعد باسم الهرسك .

وأصبحت البوسنة واحدة من أكبر الدول على أرض السلاف فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر عندما ترأس الدولة الحاكم تفرتكو الأول كوترومانيتش (١٣٥٣ - ١٣٩١) الذى أطلق عليه لقب ملك راشكا والبوسنة ودالماسيا وكرواتيا والسواحل . وبعد موته حلت بالبوسنة فترة ضعف فيها الحكم الملكى واستقل كبار الاقطاعيين الذين تصارعوا فيما بينهم من أجل الاستحواذ على مزيد من الأراضى والنفوذ والسلطة .

وفى عهد الحاكم البوسنى الأخير ستيبان توماشيفيتش استولى الأتراك العثمانيون فى عام ١٤٦٣ على البوسنة التى كانت قد مزقتها الصراعات الداخلية وأوهنتها الحروب الدينية ، وفى عام ١٤٨٢ استولوا على الهرسك .

ومع الحكم العثمانى للبوسنة بدأ انتشار الإسلام انتشاراً مكثفاً وأخذت تأثيرات الحضارة الإسلامية والشرقية فى التوغل والتعمق . وامتدت فترة الحكم العثمانى قرابة خمسة قرون حتى نشوب حرب البلقان فى عام ١٩١٢ . وقد أصبح فى حكم المؤكد أنه قد حدث تعتيم متعمد فيما يتعلق بموضوع الاعتناق الجماعى الاختيارى للإسلام بين سكان البوسنة والهرسك فى ظل الحكم العثمانى . ومن هنا فمازالت غير معروفة تمام المعرفة الأسباب الموضوعية الكامنة وراء هذه الظاهرة . إلا أن الأبحاث والدراسات التى أجريت حتى الآن تفيد بأن هذا يرجع فى المقام الأول إلى الاضطهادات الدينية التى كان يعانى منها أهل البوسنة بسبب اعتناقهم لمذهب البوجوميلية الذى يخالف مذهب كنيسة روما . هذا علاوة على أن نبلاء البوسنة وجدوا أن اعتناق الإسلام يضمن لهم الاحتفاظ بامتيازاتهم ، الأمر الذى دفع أتباعهم إلى اعتناق الدين نفسه .

ومن ناحية أخرى أنشأ الأتراك العثمانيون مدناً جديدة سرعان ما تحولت إلى مراكز للصناعات والحرف على أنقاض الأسواق القديمة أو إلى مراكز دفاعية أو إلى مقار لأجهزة الحكم والإدارة ، وأصبحت كذلك تدريجياً مراكز للفكر والثقافة الإسلامية بعد أن أقيمت بها المساجد والمدارس والتكايا والمكتبات . وهذه المدن الجديدة أو المراكز جذبت إليها أعداداً من المهاجرين الذين لم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام .

وعلاوة على هذه الجوانب الإيجابية فلم تخل فترة الحكم العثمانى وخاصة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من مقاومة بعض أهل البلاد وثورتهم وانتفاضتهم . فقد اتسمت الأحوال فى البوسنة والهرسك فى بداية القرن التاسع عشر بزيادة حدة التناقضات الاجتماعية والسياسية والدينية الناجمة عن الإصلاحات الجديدة التى سعى السلطان العثمانى سليم الثالث إلى إجرائها فى جميع أنحاء الامبراطورية . ولاقت هذه المحاولات للإصلاح قبولاً طيباً من جانب الطبقات الاجتماعية المتميزة ، وفسرها

أفراد الشعب من الإقطاعيين والمسلمين على أنها تنازلات مقدمة إلى غير المسلمين من الرعية .

وقامت حركة تمرد بقيادة حسين قبطان جراد شتشفيتش الذى اختير ممثلاً للبكوات فى عام ١٨٣١ ونجح فى هزيمة جيش السلطان ، إلا أنه سرعان ما ظهر جيش جديد للسلطان وتمت هزيمة حسين بك وقواته فى عام ١٨٣٢ . وحدثت حركة مقاومة أخرى فى عام ١٨٥٠ وتم القضاء عليها بقيادة عمر باشا لاتاس .

وفى النص الثانى من القرن التاسع عشر ازداد سخط الفلاحين على السلطات العثمانية بسبب مشاكل الزراعة واستمرار السخرة ، وقاموا بعدة قلاقل . وفى عام ١٨٧٥ نشبت ثورة عارمة بدأت فى الهرسك ثم امتدت إلى المناطق المتاخمة فى البوسنة وبلغاريا ، وتضامنت صربيا معهما إلا أن القوات العثمانية تمكنت من إخماد الثورة فى بلغاريا ومن هزيمة صربيا .

وفى مؤتمر برلين فى عام ١٨٧٨ صدر قرار بإعطاء البوسنة والهرسك إلى النمسا لإدارتها باسم السلطان العثمانى . وفى عام ١٩٠٨ قررت النمسا ضم الإقليم إلى امبراطوريتها متعددة الجنسيات والقوميات . ومنذ البداية أعرب الجزء الأكبر من شعب البوسنة والهرسك عن رفضه وعدائه الصريح للاحتلال النمساوى المجرى ولم تنقطع عمليات التمرد والاختطاف والسلب .

ويمثل احتلال البوسنة والهرسك نقطة تحول فى تطورها الاقتصادى ، وذلك لأنها تحولت إلى الاقتصاد الرأسمالى الذى لا يمكن تصوره بدون وسائل مواصلات جديدة ولذا فإن سلطات الاحتلال كرست اهتماماً خاصاً بإقامة خطوط للسكك الحديدية وشبكة كاملة للمواصلات تربط بين المناجم والمصانع وتشييد الطرق . وتم البدء فى تطوير تلك

الفروع الصناعية التى تسمح بالرواج المثمر لرؤوس الأموال النمساوية . وأحدثت هذه التحولات الاقتصادية الهائلة تغيرات مهمة فى المجتمع مما أدى إلى تغير هيكله . وكانت سلطات الاحتلال تحمى مصالحها الرأسمالية وتمنع البوسنيين من تطوير صناعتهم المحلية والاشتراك فى استغلال الثروات الطبيعية للبلاد .

وأشعر انتصار صربيا فى حروب البلقان (١٩١٢ - ١٩١٣) الامبراطورية النمساوية بالأخطار القادمة نظرا للتغيرات التاريخية الضخمة التى أحدثتها هذه الحروب فى شبه جزيرة البلقان ونظراً لتزايد الوعى القومى . وأدى هذا إلى زيادة نشاط الحركات الوطنية المطالبة بطرد النمسا من البلقان ، وكثفت الجمعيات السرية فى البوسنة والهرسك من أعمالها الموجهة ضد النمسا .

وقد ظهرت آنذاك حركة « بوسنة الفتاة » وهى حركة ثورية من الشباب تطبق أساليب جديدة فى النضال من أجل التحرر القومى ومن أجل الوحدة مع صربيا ولا تستخدم إلا أسلوب الإغتيالات . واشترك كثير من أتباع هذه الحركة فى الحروب البلقانية . وفى يونيو عام ١٩١٤ تمكن أحد أبناء البوسنة المنتمين إلى هذه الحركة من إغتيال ولى العهد النمساوى خلال زيارته الرسمية لسرايفو عاصمة البوسنة . وكانت هذه هى الشرارة التى أشعلت الحرب العالمية الأولى وانتهت بانهيار الامبراطورية النمساوية المجرية وقام على أنقاضها عدد من الدول القومية .

وفى عام ١٩١٨ دخلت البوسنة والهرسك فى تشكيل مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين . ومن الملاحظ أنه لم يذكر اسم البوسنيين أو المسلمين فى اسم هذه الدولة الجديدة . ولم يكن هذا الأمر مصادفة وإنما كان عن عمد ذلك لأن الشعوب الأساسية المكونة لهذه الدولة لم تشأ أن تعترف بالبوسنيين وإنما تعتبرهم من المسلمين الصرب أو الكروات دون الاعتراف بشخصيتهم المتميزة وهويتهم البوسنية .

وفى عام ١٩٢٩ اتخذت هذه الدولة لها اسم يوغسلافيا ، أى وطن السلاف الجنوبيين . وسرعان ما تكشفت الطموحات الصربية السابقة فى إقامة دولة صربيا الكبرى التى تجمع كل العناصر السلافية الجنوبية . وفرض الصرب فى هذه الدولة الجديدة سيطرتهم المطلقة على بقية القوميات الأمر الذى أدى إلى ظهور حركات مناهضة للصرب بين الكروات والمسلمين وغيرهم من القوميات . وبعد إغتيال ألكسندر ملك يوغسلافيا غرقت البلاد فى صراعات عرقية لاقى فيها مسلمو البوسنة الكثير من العنف والمعاناة . وظلت هذه الصراعات مستمرة حتى غزو الألمان ليوغسلافيا فى أبريل من عام ١٩٤١ .

وباستسلام يوغسلافيا فى هذه الحرب وقع شعب البوسنة والهرسك تحت الإحتلال الألمانى والإيطالى . ثم دخلت البوسنة ، بموافقة المحتل الألمانى فى إطار دولة كرواتيا المستقلة . وسرعان ما بدأت أعمال الإرهاب والمطاردات والسجن الجماعى والقتل ضد المسلمين . وأبدى سكان البوسنة مقاومة ضد هذه الأعمال الإجرامية . وبدأت حرب التحرير الشعبية بقيادة الحزب الشيوعى اليوغسلافى الذى جمع تحت لوائه ، بزعامة يوسيب بروز تيتو ، جماعات وقوميات وشعوباً ذات إنتماءات مختلفة تحمل شعار طرد المحتل وفرض العدل والمساواة العرقية وترفع شعار الأخوة والوحدة . وفى عام ١٩٤٥ تم تشكيل أول حكومة مستقلة للبوسنة والهرسك فى إطار يوغسلافيا الاتحادية .

ورغم المعاناة الأليمة التى تعرض لها مسلمو البوسنة والهرسك خلال الحرب العالمية الثانية وفى أثناء حرب التحرير الشعبية اليوغسلافية ، ورغم تأييدهم للرئيس تيتو إبان حرب التحرير تطلعاً منهم للإعتراف بكيانهم وهويتهم ، إلا أن تيتو لم يف بوعوده وصادر جميع أوقافهم الخيرية وأملاكهم وعمد إلى تفتيت وجودهم فى البوسنة عن طريق توطين قوميات أخرى معهم ، وإلى حرمانهم من حقوقهم بل

وتعرض كثير منهم للاضطهاد والقمع والمطاردة ولحظر نشاطهم ومنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية . كما تعرض مفكروهم وعلماؤهم للسجن والاعتقال بدون مبرر . ولم يعترف تيتو بطائفة المسلمين إلا من أجل الحصول على البترول الإسلامى ومعونات الدول العربية والإسلامية .

وقد تألفت دولة يوغسلافيا الاتحادية من شعوب وقوميات وجماعات عرقية صغيرة تتباين فى ديانتها ولغتها وحضارتها وعاداتها وتقاليدها وتفتقد فى أساسها لأى مقومات للوحدة والتماسك . ولم تتحد إلا من أجل التصدى للاحتلال الألمانى والكفاح من أجل الاستقلال . وكان هذا التباين اليوغسلافى يمثل فى حينه ثروة كبيرة . وكان الحكام الشيوعيون فى عهد تيتو يتباهون بهذا التنوع والتعدد لتراثهم الحضارى والثقافى والأدبى ، خاصة وأن القبضة الحديدية لتيتو بحكم زعامته لهذه الشعوب فى فترة تحررها الوطنى حاولت أن تصهر ، باللين وفى أحيان كثيرة بالعنف ، كل هذه القوميات والديانات والثقافات المختلفة فى بوتقة الحزب الشيوعى وأن تحافظ على توحدها .

ورغم المساواة النسبية بين هذه الشعوب والقوميات فى معظم الحقوق السياسية والاجتماعية إلا أن مستويات المعيشة ظلت دوماً على قدر كبير من التفاوت بين جمهوريات الشمال الكاثوليكى الغنى اقتصادياً والمتحرر فكرياً بحكم قربه من دول غرب أوروبا وبين جمهوريات الشرق الأرثوذكسى والجنوب الإسلامى الأشد فقراً . وكانت هذه الفوارق الاقتصادية والاجتماعية أرضاً خصبة لبروز النعرات الانفصالية والخلافات القومية .

وكانت النتيجة الطبيعية لغياب القبضة الحديدية لزعامة تيتو التاريخية وللتفاوت الاقتصادى بين الشعوب اليوغسلافية أن تحول هذا التعدد القومى والتباين الثرى إلى غير صالح اليوغسلاف فانطلقت

النعرات القومية الكامنة وسادت لأسباب واهية غير منطقية المشاعر العدائية بين الشعوب والقوميات وأتباع الديانات المختلفة والجماعات العرقية المتباينة الأمر الذى عجل بظهور شروخ فى البناء اليوغسلافى .

وتعرض النظام السياسى فى يوغسلافيا لتطور كبير فقد تم الأخذ بنظام التعددية الحزبية . وكانت هذه فرصة ذهبية لمسلمى البوسنة والهرسك ، الذين يمثلون الأغلبية فيها ، لأن يؤكدوا هويتهم . وفى الانتخابات الحرة التى جرت فى عام ١٩٩٠ فاز حزب العمل الديمقراطى (الحزب الذى يمثل المسلمين) بأكبر عدد من مقاعد البرلمان وتم انتخاب على عزت بيجوفيتش لمنصب رئيس الجمهورية فى حين تم تقسيم المواقع السياسية الهامة الأخرى وفقاً للتوزيع السكانى بين المسلمين والصرب والكروات .

ويمكن القول بأن حزب العمل الديمقراطى الإسلامى هو أول تنظيم سياسى إسلامى فى أوروبا كلها فى الحقبة الأخيرة ، ويرأسه على عزت بيجوفيتش الذى كتب عدداً من الكتب عن الإسلام وتعرض فى أثناء العهد الشيوعى للطرد من عمله بسبب مؤلفاته وسجن عدة سنوات . وهو يؤمن بالاختيار الديمقراطى الذى جاء به لصدارة الحكم وصعد بحزبه إلى مواقع الأغلبية . وهو يمارس نفس الدرجة من الديمقراطية فى إدارة الأحداث ، ولم يلجأ إلى إثارة عواطف الناس وحماسهم كما يفعل الآخرون ، وكثف من اتصالاته بالغرب لكى ينفى عن بلده تهمة السعى إلى إقامة جمهورية أصولية فى أوروبا . فقام بزيارة إيطاليا واليونان وألمانيا كما التقى ببابا الفاتيكان وزار الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من البلدان .

وبصعود حزب العمل الديمقراطى إلى الحكم ممثلا للمسلمين انتهت الفترة التاريخية التى كان يرمز خلالها بالحرف **M** لتمييز مسلمى البوسنة والهرسك كشعب وقومية عن غيرهم فى يوغسلافيا ، بينما يرمز إلى

غيرهم من المسلمين عبر الصحف ووسائل الإعلام الأخرى بالحرف m مصغراً طيلة فترة حكم الشيوعيين اليوغسلاف . وأعلنت الحكومة البوسنية ذلك صراحة بأنها لا تفرق بين معتنقى الدين الإسلامى فيها وبين المسلمين المنحدرين من أصول عرقية سلافية أو ألبانية أو تركية أو غيرها .

وكان الهدف من هذا الإعلان هو التأكيد على أن القومية المسلمة أو الشعب المسلم وغيرها من العبارات التى استخدمت فى الماضى لا تتضمن تلك المعانى التى تحملها مثل هذه العبارات فى الأماكن الأخرى من العالم الإسلامى . إذ لا تتضمن أى معنى أيديولوجى أو سياسى بل هو تعبير يختزل ٥٠٠ عام من التعايش بين مسلمى البوسنة بحيث يستحيل إجراء أى تمييز عرقى بين هؤلاء المسلمين .

وبعد انفصال كل من سلوفينيا وكرواتيا ومقدونية عن الاتحاد اليوغسلافى فضلت البوسنة والهرسك أيضاً أن تصبح دولة مستقلة وأعلنت استقلالها فى أواخر عام ١٩٩٠ .ونظراً إلىأنقيادة البوسنة قد أكدت مراراً أنه انتهى إلى الأبد ذلك الوقت الذى كان يتقرر فيه مستقبل البوسنة دون إرادة مسلميها فقد عمدت إلى كل الأساليب الديمقراطية لإسترداد حقوق شعب البوسنة والهرسك التى اغتصبت على مدار الحقبة الماضية ، وأعلنت أن صناديق الاقتراع هى البديل الحضارى لإستخدام السلاح .

وفى استفتاء شعبى حر وعلى مرأى ومسمع من المجتمع الدولى أقبل فى مارس ١٩٩٢ سكان البوسنة والهرسك من المسلمين والكروات على صناديق الاستفتاء التى قاطعها الصرب . وأظهرت النتائج أن غالبية من ذهبوا للادلاء بأصواتهم ، وهم الأكثرية المطلقة ، وافقوا على إعلان استقلال الجمهورية . إلا أن الصرب الموجودين بالبوسنة أعلنوا

استقلالهم عنها وعن عزمهم الانضمام إلى الاتحاد اليوغسلافى الجديد المشكل من جمهوريتى صربيا والجبل الأسود .

وبعد إعلان نتيجة الاستفتاء الخاص بالاستقلال عن الاتحاد الفيدرالى اليوغسلافى طالبت حكومة البوسنة والهرسك الجيش الاتحادى بالانسحاب من مواقعه غير أنه لم ينسحب بحجة أن انسحابه سيؤدى إلى المزيد من اراقة الدماء .

وتصاعد العنف فى سرايفو بمجرد أن أفصحت عن رغبتها وإرادة غالبيتها فى الاستقلال عن الاتحاد الفيدرالى اليوغسلافى . ومع وضوح نية دول العالم للاعتراف باستقلال البوسنة والهرسك احتدت الاشتباكات التى يحركها الصرب وخفتت نداءات وقف أعمال العنف مع ارتفاع أصوات طلقات النيران والأسلحة المختلفة .

وفى السادس من أبريل فى سنة ١٩٩٢ اعترفت الدول الأوربية الاثنتا عشرة وكندا والولايات المتحدة الأمريكية بالبوسنة والهرسك دولة مستقلة . وكما كان متوقعاً فان الاعتراف الأوروبى والدولى باستقلال البوسنة كان بمثابة إشارة البدء للصرب فى البوسنة للبدء فى القتال وإعلان قيام جمهوريتهم الصربية فى البوسنة والشروع فى محاصرة سرايفو .

وفى الثانى والعشرين من مايو عام ١٩٩٢ وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على قبول عضوية جمهورية البوسنة والهرسك فى المنظمة الدولية . ومعنى هذا القرار أنه لا يمكن إلغاء هذه الجمهورية من على خريطة العالم . وقد صرح مسئول بالأمم المتحدة بأن عضوية البوسنة والهرسك ستعزز عالمية المنظمة الدولية ، وأن المجموعة الدولية ملتزمة بحماية استقلال وسيادة البوسنة وسلامة أراضيها وفقاً لقواعد ميثاق الأمم المتحدة ، وأن جميع الأطراف مطالبة بالتعاون الكامل مع الأمين العام

للأمم المتحدة ومع كل الجهود الدولية لإنهاء الأعمال العدوانية والجلاء عن جميع الأراضى المحتلة .

وقد رحب العالم بالبوسنة والهرسك ضمن الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة وجرى استقبال وزير خارجيتها بعاصفة من التصفيق تعبر عن الموقف الدولى المساند للاستقلال والرافض لعدوان الصرب ولضم الأراضى بالقوة المسلحة وهو ما أكدت عليه المجموعة الأوربية فى اجتماعات لشبونة وبرشلونة وفى الاجتماعات المشتركة مع دول مؤتمر الأمن والتعاون الأوربى فى هلسنكى .

وأخذت سرايفو بمبانيها وضواحيها ومساجدها تحترق وسط دوى الانفجارات والقصف المدفعى العشوائى وموجات الصواريخ التى تطلقها القوات الصربية التى تحاصر المدينة من التلال المحيطة بها بقصد إحكام قبضتها على المدينة . وندد العالم كله بهذا الهجوم البربرى وأصدر مجلس الأمن فى الثلاثين من مايو ١٩٩٢ القرار رقم ٧٥٧ بفرض حظر تجارى وجوى ودبلوماسى وبترولى على صربيا والجبل الأسود بسبب العدوان على البوسنة والهرسك وكرواتيا . كما قررت واشنطن تجميد الأرصدة اليوغسلافية فى الولايات المتحدة وتبلغ جملة الودائع المصادرة ٢١٤ مليون دولار منها ١٧٤ مليوناً ببنوك تملكها يوغسلافيا . وكان الهدف من وراء هذه القرارات والإجراءات إجبار صربيا والجبل الأسود على وقف إعتداءاتهما المحمومة على شعب أعزل أغلبيته من المسلمين .

وأكد الرئيس الأمريكى بوش أن التدخل العسكرى من جانب صربيا والجبل الأسود فى جمهورية البوسنة يشكل تهديداً خطيراً وغير عادى للأمن القومى الخارجى للولايات المتحدة ولاقتصادها .

وبالرغم من قرار مجلس الأمن ومن الإدانة والعزلة الدوليتين فقد كان هناك إصرار عجيب من جانب الميليشيات الصربية على البقاء داخل

أراضى جمهورية البوسنة والهرسك ومواصلة عمليات القصف بالأسلحة الثقيلة والطائرات وعلى إنتهاك كل اتفاق لوقف إطلاق النار بعد ساعات من توقيعه . ولم يكن لهذا إلا معنى واحد يفضح الأهداف الحقيقية لهذه التصرفات الإجرامية التى بدأت منذ شهور واستمرت لفترة طويلة أمام الرأى العام العالمى بأسره . إنها خطة واضحة تستهدف الاستيلاء بالقوة المسلحة على أراضى البوسنة والهرسك وضمها بشكل من الأشكال إلى جمهورية صربيا التى ادعت لنفسها الحق فى وراثة يوغسلافيا . وفى الآونة نفسها تعمل على التخلص من سكان الجمهورية المعتدى عليها ولذلك تمنع وصول أية مواد إغاثة من أغذية ومواد طبية وذلك بالحيلولة دون إعادة فتح مطار سرايفو الذى تصل المعونات الدولية عن طريقه وهكذا يزداد عدد الضحايا بالموت جوعاً أو بسبب نقص الدواء والرعاية الطبية .

وتحدثت كل صحف العالم عن مدينة سرايفو التى تحولت إلى مدينة للموت حيث كل شيء فيها أصبح هدفاً لرصاص ونيران القوات الصربية ولا يسلم من هجماتها كل من يجرؤ على المرور فى أماكن الحظر أو غيرها .

وفى نهاية شهر يونيو قام الرئيس الفرنسى ميتران بزيارته المثيرة لسرايفو لكى يفك بنفسه الحصار المضروب على المدينة منذ ثلاثة أشهر بعد أن عجزت أوروبا وأمريكا عن توصيل المعونات العاجلة إلى المحاصرين من أهل المدينة . ومن ناحية أخرى بدأ فرض حصار بحرى ضد صربيا من جانب دول اتحاد غرب أوروبا وحلف شمال الأطلنطى بهدف إحكام تنفيذ عقوبات الأمم المتحدة .

وأسهمت وسائل الإعلام العالمية فى وصف ما يحدث فى البوسنة والهرسك ، ورأت أنه يشكل أكثر من جريمة دولية تستحق معاقبة

مرتكبيها بأشد العقوبات الدولية ، وفى مقدمتها جريمة إبادة جنس وطرد سكان دولة من أراضيهم والاستيلاء على ممتلكاتهم بالقوة ، والتدمير المنظم لكل المبانى والمرافق ، ومنع وصول المساعدات الإنسانية إلى الضحايا الأبرياء .

وكان من المؤسف أن تتدهور الوساطة الدولية فى المبنى والمعنى إلى حد ظهور اقتراح بتقسيم الجمهورية على أسس عرقية ودينية ، رغم مخالفة ذلك للأعراف الدولية والممارسات العالمية .

وكشفت التقارير عن وجود معسكرات اعتقال وتعذيب لشعب البوسنة والهرسك ولا سيما الأطفال والشيوخ ، وذلك على يد جماعات من الصرب . وقد حاولت اللجنة الدولية للصليب الأحمر تقصى الأوضاع فى معسكرين لكن الميليشيات الصربية رفضت السماح لمسئولى المنظمة بزيارة المعسكرين وهو الأمر الذى عزز التقارير التى تقول أنهما معسكران للموت . كما تلقت لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان تقريراً خطيراً يؤكد مسئولية القوات الصربية عن أبشع انتهاكات لحقوق الإنسان فى القتال الدائر فى البوسنة والهرسك .

وعجزت القوات الدولية عن وقف العدوان الوحشى المتواصل على مسلمى البوسنة والهرسك وتوقف عدة مرات وصول إمدادات الأغذية والأدوية إلى سكان المدن المحاصرة وذلك بالرغم من كل التحذيرات التى وجهتها الهيئات الدولية الإنسانية من عواقب هذا التوقف . ومع ذلك رفض رئيس الأركان الأمريكى فى حديث نشرته صحيفة « نيويورك تايمز » الأمريكية النداء الذى وجهته رئيسة الوزراء البريطانية السابقة وزعماء أوربيون آخرون للتدخل العسكرى الأمريكى على نطاق ضيق لإنقاذ أهالى هذه الجمهورية .

وقرر مجلس الأمن (فى ٩٢/١٠/٩) فرض حظر على تحليق

الطائرات العسكرية فى المجال الجوى للبوسنة والهرسك . وطلب مجلس الأمن من قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة أن ترصد الامتثال لحظر الرحلات الجوية العسكرية بما فى ذلك وضع مراقبين فى المطارات الواقعة فى أراضى الصرب .

كما اتخذ مجلس الأمن قراراً بتشكيل لجنة للتحقيق فى جرائم الحرب التى ترتكب فى الجمهوريات اليوغسلافية السابقة وخاصة جمهوريتى البوسنة والهرسك وكرواتيا . وصدر القرار كخطوة تمهيدية لإقامة محكمة دولية لمحاكمة مجرمى الحرب من الصرب .

إن شعب البوسنة والهرسك ليس فقط ضحية للعدوان الصربى بل ضحية أيضاً للموقف العالمى المتخاذل الذى لم يشأ أن يأخذ بعين الاعتبار أمر ولادة دولة حديثة على خريطة العالم تحتاج إلى حمايته ولم يرغب – كما فعل من قبل فى مواقف أخرى – فى القيام بعملية تدخل عسكرى لحسم الحرب .

وأى خيار غير وحدة أراضى البوسنة والهرسك واستقلالها مرفوض من قبل المسلمين ، والقتال هو خيارهم مهما كانت عواقبه . ولذا فإن الصورة سوداوية ، ولكن السواد سيتبدد إن آجلاً وإن عاجلاً مهما طال .

موقف مصـر

بعد أن اتضحت المواقف وتكشفت النوايا وقفت مصر فوراً بجانب الحق والعدل وأيدت شعب البوسنة والهرسك فى الإعراب عن استقلاله . وصرح المتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية (فى ٩٢/٤/٢٠) بأن مصر تعبر عن أسفها العميق لما يواجه شعب البوسنة والهرسك من تدمير لموارده ، وتضم صوتها إلى المناديـن بالوقـف الفـورى لكافـة أعمـال العنف ، وإلى التدخل السريع والحاسم من جانب المجتمع الدولى للتوصل إلى حل سلمى للنزاع فى هذه المنطقة واحترام سيادة وحرمة أراضى الجمهورية . وهذه الدعوة إلى التدخل السريع والحاسم من جانب المجتمع الدولى تنبع من أحساس عميق بهذا الهم العالمى الجديد وبضرورة التصدى الدولى له خاصة وأن العالم يواجه فى هذه المنطقة حرباًعرقية دميمة لا يليق السكوت عليها فى نطاق النظام العالمى الجديد .

وفى السادس عشر من أبريل اعترفت مصر بجمهورية البوسنـة والهرسك . ودعا فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر جميع الدول الإسلامية وهيئات الإغاثة فى العالم الإسلامى إلى بذل كل الجهود لحماية سكان هذه الجمهورية وحمايتهم من عدوان الصرب عليهم . كما دعا فضيلته منظمة المؤتمر الإسلامى إلى العمل على إنهاء هذه المحنة . وأعرب عن تقدير الأزهر لمبادرة الخارجية المصرية بالاعتراف باستقلال هذه الجمهورية . وأعرب كذلك عن أمله فى أن تبذل مساعيها الحميدة مع الدول العربية والإسلامية الشقيقة ومع الدول الصديقة نحو الاعتراف بها ، وتقديم العون لها أيضاً فى محنتها .

وبالفعل لعبت مصر دوراً رائداً فى تحريك جهود دول الجامعة العربية ودول منظمة المؤتمر الإسلامى داخل الأمم المتحدة من خلال الاتصالات مع أعضاء مجلس الأمن مما أدى إلى إصدار قرار مجلس الأمن الأخير الذى طالب بوقف القتال فوراً ووقف جميع أشكال التدخل من خارج البوسنة والهرسك واحترام سلامتها الإقليمية . وفى إطار التحرك المصرى بعث وزير خارجية مصر بخطاب إلى سكرتير عام الأمم المتحدة طالب فيه بتدخل المجتمع الدولى بمزيد من الثقل والفاعلية لوضع حد للاعتداءات التى يتعرض لها المدنيون المسالمون فى البوسنة والهرسك ومن أجل التوصل إلى وقف لإطلاق النار يكون مقدمة لعودة الأمن والاستقرار إلى المنطقة .

وقطعت مصر (فى ٩٢/٦/٤) علاقاتها الدبلوماسية مع حكومة بلغراد الصربية ، والتزمت كذلك بالعقوبات التى أصدرها مجلس الأمن ضمن قراره رقم ٧٥٧ ويقضى بفرض حظر شامل على جمهوريتى صربيا والجبل الأسود .

وفى المؤتمر الطارئ لوزراء خارجية الدول الإسلامية الذى انعقد فى يونيو ١٩٩٢ فى اسطنبول تحدث وزير الخارجية المصرى عن استعداد مصر للمساهمة فى أى قوات للأمم المتحدة لحفظ السلام فى البوسنة والهرسك ، ودعا لإنشاء صندوق للمعونة الإنسانية لشعب البوسنة والهرسك ، كما حث على توسيع أنشطة الصندوق بحيث تشمل المساعدات المالية والفنية لإعادة بناء ما تم تخريبه من تراث حضارى . وأضاف وزير الخارجية أن استمرار العدوان الصربى على شعب البوسنة والهرسك وارتكاب المجازر ضد سكانها الأبرياء يحتم علينا أن نقف بحزم أمام هذا العدوان السافر الذى يتجاهل القيم والمبادئ الإنسانية ويتحدى الشرعية الدولية ، كما يتحدى إرادة المجتمع الدولى الممثلة فى قرارات مجلس الأمن .

وطالب وزراء الخارجية فى البيان الختامى للمؤتمر الإسلامى مجلس الأمن بدراسة إمكانية اتخاذ المزيد من الإجراءات اللازمة وفقاً للبند السابع من ميثاق الأمم المتحدة ومن بينها التدخل العسكرى بهدف ضمان تنفيذ قراراته بوقف العدوان الصربى على البوسنة فى حالة ما إذا لم تسفر العقوبات الاقتصادية التى فرضها المجلس عن نتائج . وحملوا الصرب مسئولية الأعمال الوحشية التى ترتكبها القوات الصربية ضد مسلمى البوسنة . وناشد الوزراء مجلس الأمن الدولى ببذل جهود أكثر فعالية لحفظ السلام فى البوسنة .

وقد أشاد حارث سيلادجيتش وزير خارجية البوسنة والهرسك بالدور الإيجابى والفعال الذى قامت به مصر حكومة وشعباً فى دعم شعب البوسنة ومساندته فى محنته على الساحتين الإسلامية والدولية . كما أعلن صالح تشولاكوفيتش رئيس المشيخة الإسلامية بالبوسنة خلال زيارته للقاهرة أنه قد أتى لتقديم شكر وتقدير شعب البوسنة إلى الرئيس المصرى وإلى حكومة مصر وشعبها لمواقفها العظيمة وجهودها من أجل إنقاذ شعب البوسنة من حرب الإبادة التى يتعرض لها على أيدى الصرب .

وفى شهر يوليو ١٩٩٢ أرسلت مصر وحدات عسكرية ضمن قوات حفظ السلام للمساهمة فى تأمين وصول مواد الإغاثة الدولية إلى سرايفو وذلك بناء على طلب السكرتير العام للأمم المتحدة وبعد موافقة القيادة السياسية على ذلك إيماناً منها بقدسية هذه المهمة النبيلة . ومهمة القوة المصرية تعزيز لمواقف مصر الأخلاقية التى تحظى باحترام العالم .

واستمرت الاتصالات المصرية مع المسئولين فى صربيا عبر القائم بالأعمال المصرى فى بلغراد لإقناعهم بسحب القوات الصربية من البوسنة والهرسك والتخلى عن الأعمال الوحشية ضد الشعب المسلم . وفى الوقت نفسه أجرت مصر مشاورات مع الأمين العام للأمم المتحدة

والدول الخمس دائمة العضوية فى مجلس الأمن ومع بعض الدول الإسلامية من أجل تصعيد العقوبات الدولية ضد صربيا بسبب استمرار أعمالها العدوانية .

وفى الشهر نفسه اجتمع وزير الخارجية المصرى مع مندوب البوسنة فى الأمم المتحدة بناء على طلب الأخير وطمأنه بأن مصر تؤيد قضية البوسنة تأييداً شاملاً وأنه أعرب عن استيائه لمندوب يوغسلافيا بسبب استمرار العدوان على مسلمى البوسنة والهرسك وطالبه بوقف هذا العدوان على الفور .

وأعلن وزير الأوقاف المصرى أن موقف الحكومة المصرية من أزمة البوسنة والهرسك كان معبراً عن مواقف مصر المبدئية المساندة للشرعية الدولية وكانت مصر أول دولة عربية سحبت سفيرها من يوغوسلافيا احتجاجاً على الاعتداءات الوحشية للصرب على مسلمى البوسنة كما قامت بإرسال مئات الأطنان من الأدوية ومواد الإغاثة إلى هناك وأن القوات المصرية كانت فى طليعة قوات حفظ السلام التى وصلت إلى هناك .

وفى بداية الدورة الطارئة للجمعية العامة طالبت مصر بضرورة الوقف الفورى للقتال الدائر فى البوسنة والهرسك وضمان احترام قدسية الحدود والسلامة الإقليمية والاستقلال السياسى لجمهورية البوسنة والهرسك . كما طالبت مصر بوقف عملية « التطهير العرقى » التى تمارسها حكومة صربيا المعتدية ضد شعب البوسنة ومسلميه . وهذا « التطهير العرقى » يشكل وصمة عار على جبين عالمنا المعاصر ويستوجب ، ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين ، مسارعة المجتمع الدولى بمواجهتها بكافة التدابير التى كفلتها المواثيق والعهود والأعراف الدولية وذلك من حيث :

أولاً : الوقف الفورى لكافة الممارسات التى تجرى ضد السكان المدنيين فى البوسنة والهرسك مثل الطرد القسرى والتشريد والاعتقال والتعذيب وإجبارهم على تغيير هويتهم .

ثانياً : محاكمة المسئولين عن ارتكاب انتهاكات حقوق الإنسان تحت دعوى التنقية العرقية .

ثالثاً : ضمان تنفيذ حق العودة الفورى للاجئين والمطرودين الذين أجبروا على ترك أراضيهم وديارهم بسبب الممارسات القمعية ، وضرورة توطينهم فى مناطقهم الأصلية التى تم طردهم منها .

رابعاً : إلزام السلطات المسئولة عن هذه الممارسات التعسفية تحت شعار تلك الدعوى العنصرية بتعويض المتضررين من اللاجئين والمشردين عن ممتلكاتهم .

خامساً : تقديم المسئولين عن الجرائم التى ارتكبت بدعوى التنقية العرقية إلى المحكمة الدولية المناسبة باعتبارها من الجرائم التى ترتكب ضد الإنسانية .

وفى نقابة المهندسين بالقاهرة أعلن المشاركون فى ندوة « البوسنة والهرسك .. أندلس القرن العشرين » رفضهم الكامل للمخططات التى تحاك فى الظلام وتستهدف تقسيم أراضى جمهورية البوسنة والهرسك . وتم اختيار يومى ١٧ ، ١٨ سبتمبر ١٩٩٢ للتضامن مع مسلمى البوسنة . وتشكلت لجنة قومية لمناصرة شعب البوسنة ، وتقرر استضافة خمسمائة طفل من أبناء البوسنة الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم .

وخلال اشتراكه فى المجلس الوزارى لعدم الانحياز بجاكرتا أكد وزير الخارجية المصرى عقب استقباله لوزير خارجية يوغسلافيا تأييد مصر لمقررات مؤتمر لندن الخاصة بوقف إطلاق النار وإنهاء الاعتداء

وتجميع الأسلحة الثقيلة تحت إشراف الأمم المتحدة والبدء فى عملية تطبيع تأخذ فى الاعتبار استقلال البوسنة ، وطالب بضرورة تنفيذ مقررات مؤتمر لندن واحترام قرار مجلس الأمن فى هذا الشأن .

وحول الأوضاع فى البوسنة والهرسك أعربت القمة العاشرة لحركة عدم الانحياز عن قلقها البالغ إزاء الحالة المأساوية فى الجمهورية ، وأدانت الفظائع التى ترتكب هناك وطالبت بالوقف الفورى للأعمال العدوانية والانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان والإفراج الفورى عن جميع السجناء وإزالة معسكرات الاعتقال والسجون .

وأدانت القمة سياسة التطهير العرقى التى يمارسها الصرب فى البوسنة والهرسك ورحبت بقرارات مجلس الأمن وقرار لجنة الأمم المتحدة المعنية بحقوق الإنسان فى يوغسلافيا ، وطالبت باحترام سيادة البوسنة والهرسك واستقلالها وسلامتها الإقليمية والانسحاب السريع لجميع القوات الأجنبية من أراضى هذا البلد على أن توزع قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام على طول الحدود وحثت جميع الأطراف على التعاون مع هذه القوات .

وفى المؤتمر البرلمانى الدولى بالسويد قدم الوفد المصرى طلباً لإدراج موضوع البوسنة والهرسك فى جدول أعمال المؤتمر كبند إضافى عاجل . وفى ختام اجتماعاته وافق المؤتمر البرلمانى الدولى على القرار الذى تقدم به الوفد البرلمانى المصرى بعد أن تمت مناقشة مشروع القرار فى لجان المؤتمر المختلفة ، وأقره بالإجماع جميع ممثلى شعوب العالم .

ويدعو القرار جميع الأطراف المعنية إلى وقف المعارك فوراً فى البوسنة والهرسك وسحب جيوشها وميليشياتها المسلحة . وأدان القرار بشدة وحزم كافة انتهاكات حقوق الإنسان التى ترتكب فى البوسنة والهرسك ، كما طالب جميع الأطراف بالكف فوراً عن جميع الانتهاكات

وكفالة الاحترام الكامل لحقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع دون تفرقة بسبب العنصر أو الجنس أو اللغة أو الدين .

وناشد القرار كافة الأطراف احترام القانون الإنساني الدولي والإفراج فوراً عن جميع الأشخاص الذين تم اعتقالهم على نحو تعسفي ، وأن تكفل لجميع اللاجئين والأشخاص المشردين العودة الآمنة إلى ديارهم . وشدد القرار على ضرورة أن تكفل للمنظمات الإنسانية الدولية المختصة إمكانية الدخول الفورى والحر والدائم إلى كافة المعسكرات والسجون وأماكن الاعتقال الأخرى .

وأيد القرار إعلان المبادئ بشأن البوسنة والهرسك الصادر في لندن عن المؤتمر الدولى الخاص بيوغسلافيا السابقة . ودعا القرار مجلس الأمن إلى التحرك العاجل بشان اتخاذ تدابير أخرى ملائمة منصوص عليها فى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة من أجل وضع نهاية للاعتداءات وانتهاكات حقوق الإنسان ولإعادة وحدة وسلامة أراضى جمهورية البوسنة والهرسك .

وفى ختام اجتماعات الجامعة العربية للدورة العادية الـ ٩٨ (فى ٩/١٣) أكد مجلس الجامعة تضامنه الكامل مع جمهورية البوسنة والهرسك فى نضالها العادل من أجل صون سيادتها واستقلالها السياسى ووحدة ترابها وسلامتها الإقليمية . ودعا المجلس القوات الصربية إلى الوقف الفورى لكافة الإجراءات التى تهدف إلى تغيير التركيبة السكانية لجمهورية البوسنة والهرسك بالقوة ، وتهيئة كافة الظروف التى تسمح بعودة اللاجئين إلى ديارهم وإطلاق سراح جميع الأسرى والمحتجزين . ودعا مجلس الجامعة فى قراره الخاص بالبوسنة والهرسك إلى اتخاذ كافة الإجراءات الضرورية من أجل الحفاظ على سيادة جمهورية البوسنة والهرسك وسلامتها الإقليمية .

وقد أكد رئيس الوزراء المصرى خلال استقباله للسيد سليمان أوجلانين المسئول الإسلامى البارز والوفد المرافق له الذى كان فى زيارة للقاهرة – أكد موقف مصر المبدئى من إدانتها للعدوان وعدم الأخذ بسياسة القوة والعنف فى حل المشكلات الدولية . وقال إن مصر تواصل من خلال جهودها داخل المنظمات الدولية والعربية والإسلامية مساندة حقوق شعب البوسنة .

وأعرب السيد سليمان أوجلانين عن شكر بلاده لمصر رئيساً وحكومة وشعباً لجهودها لوقف المذابح التى يتعرض لها المسلمون هناك يومياً على أيدى القوات الصربية . وناشد مصر مواصلة جهودها لوقف هذه المذابح وإقرار الحقوق المشروعة لشعب البوسنة والهرسك .

وبينما كانت تتصاعد حدة العدوان الصربى على البوسنة والهرسك توصل المجتمع الدولى فى الدورة الجديدة للجمعية العامة للأمم المتحدة إلى اتفاق لعقاب الاتحاد اليوغسلافى الجديد الذى يضم جمهوريتى صربيا والجبل الأسود . وهو عقاب لا مثيل له من قبل ويقضى بحرمانها من الاقتراع على قرارات الأمم المتحدة .

وكانت مصر قد تبنت بالمشاركة مع الدول الأوروبية والولايات المتحدة ومجموعة دول المؤتمر الإسلامى مشروع القرار الذى ينص على رفض احتفاظ جمهورية يوغسلافيا الحالية ، المؤلفة من صربيا والجبل الأسود ، بصورة تلقائية بعضوية جمهورية يوغسلافيا الاتحادية الاشتراكية السابقة فى الأمم المتحدة . وقررت الجمعية العامة أن يوغسلافيا الجديدة عليها أن تتقدم بطلب عضوية فى المنظمة الدولية من جديد .

ورحبت مصر بقرار الحرمان بسبب التحريض الصربى على الحرب الأهلية فى جمهورية البوسنة والهرسك . ومصر تتخذ بذلك موقفاً

يتفق مع مواقف باقى دول العالم فيما يتعلق باستحالة أن ترث دولة واحدة حقوق كل الجمهوريات والدول المنبثقة من يوغسلافيا القديمة .

وخلال زيارته للقاهرة أعلن وزير الخارجية الفرنسى رولان دوما بعد استقبال الرئيس حسنى مبارك له أنه بحث مع مبارك التحرك المصرى الفرنسى المشترك فى الأمم المتحدة تجاه ما يتم الآن في يوغسلافيا من انتهاك لحقوق الإنسان والعقوبات التى يجب أن تتخذها الأمم المتحدة ضد ذلك . وقال أن هناك مبادرة مصرية فرنسية يجرى الإعداد لها حالياً فى هذا الخصوص وتهدف لوضع حد للمأساة فى البوسنة والهرسك .

وأضاف عمرو موسى (فى ٩٢/١٠/٤) أننا نعارض ما يحدث من عمليات التطهير العرقى فى البوسنة والهرسك وقال إن هذه الإجراءات مقززة ومكروهة وأنها تعيد للأذهان الممارسات النازية وإجراءات التفرقة العنصرية التى لايمكن أن نقبلها . وأضاف أننا سنقف بحزم ضد ممارسات الصرب تجاه شعب البوسنة والهرسك وندرس مايمكن أن نفعله تجاه ذلك ، ونرجو أن يتمكن رئيس الوزراء اليوغسلافى الجديد من السير فى الاتجاه الصحيح والتخلى عن تأييد الممارسات التى تقف ضد سيادة واستقلال ووحدة أراضى البوسنة والهرسك وتنتهك حقوق الإنسان هناك .

وقدمت فى (٩٢/١٠/٧) خمس دول إسلامية ، فى مقدمتها مصر ، طلباً عاجلاً باسم منظمة المؤتمر الإسلامى إلى مجلس الأمن بعقد جلسة طارئة لتجديد النظر فى قضية البوسنة والهرسك بقصد اتخاذ ثلاثة إجراءات محددة،وهى: النشر الفورى لقوات حفظ السلام وإقامة محكمة دولية لمحاكمة مجرمى الحرب المسئولين عن سياسة التطهير العرقى ، وفرض حظر جوى على الطائرات الحربية فوق البوسنة .

ودعت اللجنة المصرية لمناصرة مسلمى البوسنة والهرسك الملوك والرؤساء العرب إلى قطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية

مع صربيا ، كما أوصت اللجنة خلال اجتماعها المنعقد فى ١٩٩٢/١٠/٧ بنقابة المهندسين بحضور أكثر من خمسين شخصية حزبية وسياسية ودينية بتنظيم حملة إعلامية مكثفة لكشف المؤامرات ضد هذا الشعب المظلوم ولتبصير كافة شعوب العالم بأبعاد الأزمة ومخاطرها .

وقررت اللجنة طبع كتيب يتضمن مجموعة الفتاوى الدينية التى صدرت من علماء الإسلام والتى تؤكد واجب المسلمين فى العالم فى مساعدة شعب البوسنة والهرسك المنكوب ، بالإضافة إلى طرح أسهم لكفالة أيتام البوسنة قيمة كل سهم ٣٠ جنيهاً على أن تحول قيمة الأسهم إلى أماكن وجود هؤلاء الأطفال للإنفاق عليهم منها .

وقد قام مبعوثون من الأزهر الشريف ونقابة الأطباء بزيارة البوسنة والهرسك لتفقد أحوال المسلمين هناك والتعرف على احتياجاتهم من الأدوية والمعونات الطبية والأطعمة والكساء . وجرى تسليم المبالغ والمعونات والمساعدات التى تم جمعها من مصر إلى المسئولين بالبوسنة . كما أقيمت ندوات شعرية وثقافية للتعريف بجميع جوانب المشكلة ولمناصرة شعب البوسنة والهرسك .

سرايفو .. سراى البوسنة
ومدينة المائة مئذنة

من المؤكد أن كثيراً من المسلمين تابعوا بقلق وحزن شديد ما جرى من مذابح وتدمير عشوائى لا مثيل له فى جمهورية البوسنة والهرسك التى يكثر بها المسلمون ، ويشق عنان سمائها العديد من المآذن السامقة الرائعة وترصع أحياءها المساجد البسيطة والفاخرة بقبابها المستديرة ، وأصابهم الأسى وهم يشاهدون ما جرى لعاصمتها سرايفو « سراى البوسنة » التى يقال عنها أنها عاصمة الإسلام وحصنه فى قلب أوروبا والتى تتضوع معظم ضواحيها وأنحائها بعبير الشرق والإسلام .

ولم تعد الآن مدينة سرايفو « سراى البوسنة » كما كانت من قبل . وتم بمنتهى البربرية الاعتداء على عذريتها وفقدت بريقها وضياءها وتحولت إلى مدينة أشباح وإلى حطام ساكن وإلى بقايا وأشلاء مبعثرة نتيجة للقصف المدفعى المكثف المتواصل ولموجات لا تنتهى من الصواريخ . وبقدر كبير من الغدر والخيانة تم اغتيال وتدنيس أروع المساجد وتحطيم أجمل المناطق الأثرية للمسلمين ، ذلك التراث الإسلامى التى استطاع من قبل أن يصمد فى وجه النازية والفاشية والشيوعية . ولكن ها هو الدمار يخيم على المدينة ويلطخ صورة « سراى البوسنة » ، وها هم سكانها العزل يواجهون أعنف صور الهمجية والوحشية ويجابهون أعتى حرب إبادة عرفها التاريخ وعرضت وسائل الإعلام المرئية مشاهدها الفظيعة القاسية .

وليس هناك من هدف من وراء حصار سرايفو وتجويع أهلها وتدمير

آثارها الإسلامية سوى التخلص نهائيا من الوجود الإسلامى ومن المسلمين فى وسط أوروبا ، هؤلاء المسلمون الذين لا ذنب لهم سوى أن القدر كتب عليهم أن يعيشوا فى هذه البقعة من أوروبا وأن يجعلوا من سرايفو بوتقة للسلام والتسامح بين القوميات والديانات السماوية الثلاث ، ونهراً يتدفق من التراحم والتكافل يشمل الأغلبية المسلمة مع شركائهم فى الوطن من صرب أرثوذكس وكروات كاثوليك ويهود .

وإذا عدنا مع التاريخ إلى الوراء فسنعرف أنه فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، وبالتحديد اعتباراً من عام ١٤٣٥ ، تمكن الأتراك العثمانيون من السيطرة الكاملة على المناطق اليوغسلافية من شبه جزيرة البلقان . وأحدثوا تغييرات هائلة فى جميع جوانب الحياة ، وتعمقت هذه التغييرات بشكل خاص فى المدن وأقيمت ونمت مدن كثيرة ذات طابع شرقى إسلامى يناسب متطلبات الدولة الإسلامية فى مواقع الميادين القديمة أو كمناطق سكنية جديدة . وتميزت أمثال هذه المدن بكثرة السكان ، وهم فى أغلبيتهم من المسلمين مع وجود عدد من المسيحيين واليهود ، واتسمت بمبانيها الإسلامية الرائعة وأسواقها الكبيرة التى تزدهر فيها ألوان التجارة ومختلف الحرف .

وهنا على شاطىء نهر « ميلياتسكا » وضع حاكم المنطقة الغربية عيسى بك اسحاقوفيتش هرانوشيتش أساس مدينة سرايفو الحالية . وقد يدهش القارئ حينما يعلم أن اسم مدينة سرايفو أصله عربى . وهناك حكايات عديدة يجرى تناقلها بهذا الشأن ، إلا أن القصة الأقرب إلى المنطق والواقع أن عيسى بك أنشأ فى البداية قصراً له أسماه « سراى » ، ثم أطلق على المنطقة كلها اسم « سرايفو بولى » ، أى المنطقة الخاصة بالسراى . وبعد ذلك تم حذف الكلمة الأخرى وظلت كلمة سرايفو اسماً للمدينة التى تعد من أقدم مدن البلقان .

ومن المؤكد أن عيسى بك قد شيد مدينة سرايفو فى بداية النصف

الثانى من القرن الخامس عشر ، بل وقبيل عام ١٤٦٢ وهو التاريخ الذى ظهرت فيه الوصية الوقفية لعيسى بك ، التى تعد حتى الآن الوثيقة الأساسية المتعلقة بإقامة مدينة سرايفو وتطورها فيها بعد . وسرعان ما أصبحت سرايفو المركز الإدارى والعسكرى والتجارى والثقافى لسنجق البوسنة وفيما بعد لولاية البوسنة .

وأقام عيسى بك بجانب قصره أول مكان لإقامة الصلاة أطلق عليه اسم مسجد السلطان . ثم أنشأ حماماً عمومياً وميداناً لسباق الخيل . كما شيد جسراً على نهر ميلياتسكا . وعلى الجانب الأيمن للنهر ، فى الجهة المقابلة للمسجد وبالقرب من السوق القديم ، أقام أول استراحة للقوافل وأنشأ حولها عدداً كبيراً من المحلات لأصحاب الحرف والتجار ، وشيد فى المنطقة التى تعلوها استراحة للمسافرين وتكية للصوفية ، كما أدخل أول شبكة للمياه بالمنطقة .

وفى أواخر القرن الخامس عشر انتشرت حركة البناء واتسعت أنحاء المدينة . وأحدثت المشروعات العمرانية ترابطاً بين الأحياء السكنية المحيطة . وسرعان ما تطورت المدينة ونمت بحيث أصبحت سرايفو من أهم المدن بمنطقة البلقان . وبلغت سرايفو فى القرن السادس عشر ذروة تقدمها من ناحية التطور المعمارى ، وأفضل دليل على ذلك هو عدد الأحياء الذى كانت تضمه المدينة آنذاك .

وخلال وجود الأتراك العثمانيين كان الفن المعمارى هو أكثر فروع الفنون تطوراً ونماءً . وكان من عادة الأتراك العثمانيين أن يقيموا المساجد أولاً وقبل كل شيء . وتظهر المحلات التجارية حول المسجد الأول الذى غالباً ما يحمل اسم السلطان ، ويصبح هذا المسجد نواة للمدينة ومركزاً لها وبعد ذلك يتم تشييد المساجد فى كل المناطق الإسلامية المحيطة . وهكذا تم فى سرايفو ، خلال القرن السادس عشر ، تشييد أكبر عدد من المساجد والجوامع .

ولابد هنا من التنويه إلى أنه فى الفترة الأولى من ظهور الإسلام كانت كل من كلمتى المسجد والجامع تعنى كل مكان تقام فيه شعائر الصلاة للمسلمين ، ولم يكن جمهور العامة يفرق بينهما على الإطلاق . ولكن فيما بعد - وعلى الأخص فى الأماكن الأوروبية التى دخل فيها الإسلام وانتشر عن طريق الأتراك العثمانيين - جرى التمييز بين الكلمتين تمييزاً واضحاً . فأصبحت كلمة المسجد تعنى جامعاً صغيراً فىَ الحى أو المنطقة تتم فيه إقامة الصلوات الخمس وتجوز به إقامة صلاة الجمعة والعيدين ، وهو فى أغلب الأحوال بدون مئذنة . أما الجامع فمعناه أشمل وأوسع وتقام فيه الصلوات الخمس والصلاة فى أيام الجمع وفى الأعياد ، ويتم فيه إلقاء المحاضرات وتحفيظ القرآن وسماع الأحاديث النبوية الشريفة وتعليم العربية وما شابه ذلك من أمور ، وغالباً ما تكون للجامع مئذنة .

وفى سرايفو ، وكذلك فى كل المناطق التابعة للأتراك العثمانيين ، كان يشيد الجوامع كبار المسئولين من الأتراك العثمانيين وأعيان المدينة وأثرياؤها وتجارها وأصحاب الحرف بها والآخرون . وكانت أغلبيتهم من البوسنة ، وبعض منهم كانوا يمتون بصلة قرابة إلى بيت السلطان . ولم تكن ضخامة الجامع ترتبط فقط إلى حد كبير بمشيده ولكن أيضاً بصاحب تصميمه المعمارى وعمال بنائه .

وتنطوى على أهمية خاصة بالنسبة لتطور المركز الاقتصادى للمدينة فترة حكم الغازى خسرو بك (من ١٥٢١ إلى ١٥٤١م) الذى كان غاية فى الثراء وصاحب نفوذ كبير . ومن المرجح فى أغلب الأحوال أنه بفضل انتصاراته الحربية وغنائمه العسكرية تمكن من تشييد مسجد يعد من أكبر المساجد التى تم تشييدها فى هذه المنطقة ، كما أقام كتَّاباً ومدرسة إسلامية « كورشومليا » ، ومكاناً لأداء الفرائض وتعليم الفلسفة الصوفية باسم « الخانقاه » ، وحماماً عمومياً به قسمان : قسم للرجال وآخر للنساء .

كما أنشأ الغازى خسرو بك أيضاً مكتبة ، سنفصل الحديث عنها فيما بعد ، تعد أغنى خزينة للمخطوطات الشرقية الثمينة بهذه المنطقة . وأوقف لها مبلغاً كبيراً لشراء كتب جديدة يتم استخدامها فى مدرسته ولكى يستفيد منها من يقرأها وينسخ منها من يشتغلون بالعلوم .

وشيد الغازى خسرو بك مسجداً ضخماً يعرف باسمه ، أو باسم « مسجد البك » ، فى وسط السوق فى عام ١٥٣١م . وهو يعد من أكبر المساجد الموجودة في سرايفو وفي البوسنة كلها . كما يعتبر من أروع الأعمال المعمارية آنذاك لدرجة أن خبراء الفن المعمارى الإسلامى يقولون انه لو تم تشييد هذا المسجد بتصميماته الفريدة وزخرفته الثرية ومئذنته الضخمة فى مدينة اسطنبول لكان أيضاً إنجازاً معمارياً فى عصره . وتقع أمام المسجد نافورة تأتى إليها المياه داخل مواسير من منبع « تسرنيلو » الذى يبعد عن سرايفو بسبعة كيلومترات ، وذلك فى الوقت الذى لم تكن توجد فيه مدينة واحدة فى أوروبا مزودة بمثل هذه المواسير لجلب المياه . وعلى مسافة قريبة تم إنشاء محل كبير لبيع السلع وفندق . وفى غرب المسجد يوجد المطعم والمطبخ العمومى لإعداد الخبز والطعام وتوزيعهما كل يوم على طلبة المدرسة وعلى موظفي الأوقاف ، وعلى فقراء المدينة . وبسبب كل هذه الإنجازات والمنشآت الخيرية أطنبت القصائد الشعبية فى مدح الغازى خسرو بك ووضع اسمه على كل لسان .

وخلال القرن السادس عشر أقيمت مساجد أخرى وأماكن للعبادة ومشروعات عامة مثل مسجد تشكريليتش مصلح الدين (قبل عام ١٥٢٦) والكنيسة الأرثوذكسية القديمة (يجرى ذكرها لأول مرة فى عام ١٥٣٩) والحانوت الكبير بروسه (فى عام ١٥٥١) . وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر أقيم مسجد على باشا (فى عام ١٥٦١) ومسجد فرهاد (فى عام ١٥٦٢) وكثير من المساجد الاخرى وكذلك العديد من الجسور على نهر ميليا تسكا . وفى القرن السابع عشر أقيم برج الساعة المشهور بسرايفو وتكية الحاج سينان (فى عام ١٦٣٠) .

وتحمل المساجد المنتشرة فى ضواحى سرايفو السمات الجوهرية للمساجد المشيدة وفقاً للأسلوب المعمارى العثمانى الذى طور الفن المعمارى الخاص بهذا النوع من المبانى بشكل يختلف عن ذلك الشكل الذى تتسم به الآثار الإسلامية فى مصر وفارس . إلا أن المساجد فى سرايفو كانت بوجه عام أقل حجماً من تلك المساجد الرائعة الموجودة فى اسطنبول وفى أماكن أخرى من آسيا الصغرى . وهذا أمر طبيعى ومفهوم إذا أخذنا فى الاعتبار أن معظم مواد البناء كانت متوافرة بشكل أو بآخر فى عاصمة الامبراطورية العثمانية .

ومن السمات الجوهرية للمساجد فى سرايفو وجود ساحة داخلية رئيسية يتم فرشها بالسجاجيد وتؤدى فيها الصلوات . ويتوسط الجدار الأمامى تجويف مستدير وهو المحراب الذى يقف فيه الإمام لكى يؤم المصلين . ويوجد فى الزاوية الأمامية اليمنى المنبر الذى يرتفع فى شكل عمود له ساق واحدة ، ويتم الصعود إليه عبر سلم خشبى له حاجز من الجانبين . وبأعلى ، عند نهاية درجات السلم ، يوجد الكرسى الذى يجلس عليه الخطيب . وهناك مظلة تعلو الكرسى . وفى أغلب الأحوال تقف المئذنة بجانب البناء من ناحيته اليمنى على الدوام . ولا تقام من الناحية اليسرى إلا إذا دعت إلى ذلك ضرورة من ضرورات انسجام المنظر أو ما شابه ذلك .

وفى آخر الساحة الداخلية يوجد بطول عرض الساحة أو نصف عرضها فقط مكان خاص للسيدات يسمى « المحفل » . وتعلوه شرفة علوية تستند على أعمدة حجرية أو خشبية وفيها يقف المؤذن وقت الصلاة . ويحيط على الدوام بالمسجد فناء صغير أو كبير . وفى بعض المساجد يوجد من الخلف جناح خاص للنساء محاط بجدار عال . وتتوسط الفناء نافورة ، وفى أحد الأركان توجد صنابير مياه للاغتسال والوضوء . وفى بعض المساجد توجد صنابير للمياه الساخنة نظراً لشدة البرودة فى أيام الشتاء .

وفى مواجهة المركز السياسى والعسكرى المتواجد على الشاطئ الأيسر لنهر ميليا تسكا كان الجانب الأيمن منذ أقدم العصور مركزاً للحياة الاقتصادية للمدينة . وهنا أقيمت السوق الرئيسية التى سميت « باشتشارشيا » حيث حقق الشرق والغرب تبادلاً دولياً للسلع والبضائع . وكان بالإمكان هنا بثمن رخيص للغاية شراء كل أنواع البضائع الواردة من الهند والجزيرة العربية وفارس وبولندا وبلاد التشيك . وكان التجار ينقلون من المدن المحيطة إلى هذه المدينة كميات لا حدود لها من مختلف أنواع السلع والأقمشة الغالية والمنسوجات الحريرية الممتازة ويبيعونها هنا . وهذا هو ما سجله فى عام ١٦٦٤ أوليا شلبى أكبر رحالة تركى .

ومع تطور هذه السوق نشأت مجموعة كاملة من مراكز الحرفيين المتخصصة التى وفقا لها كانت تحصل بعض الشوارع على أسمائها . فهناك الحدادون وصناع النحاس والأحذية والمجوهرات والأسلحة والسروج والأجراس والقطن والنحاتون والصباغون وغيرهم . وكانت الحرف متنوعة ومتشعبة بحيث أنه عند تجهيز فارس من الفرسان كان يشترك ما يقرب من خمسة عشر حرفياً من الحرفيين المتخصصين .

وبفضل نمو التجارة العالمية فى هذه السوق فقد جرى إنشاء العديد من الاستراحات للقوافل والمسافرين ثم مخازن مأمونة من السرقة والحريق ومجموعة من الحوانيت الكبيرة . ولأجل الغرض نفسه تمت إقامة صنابير المياه والنافورات والحمامات العمومية ومطاعم مجانية وفنادق .

ومن المؤسف أن هذه المدينة المزدهرة تعرضت للتدمير والحرق خلال الغارة التى شنها الأمير النمساوى أوجين سافويسكى فى عام ١٦٩٧ ، وحتى نهاية الحكم العثمانى لهذه المنطقة لم يتم التخلص تماماً من آثار الدمار والحريق . وتقدم لنا السجلات التركية للإحصاء والشهر العقارى معلومات تفصيلية عن عدد المساجد فى سرايفو . وبناء

على هذه المعلومات وعلى كتابات الرحالة والمؤرخين يمكن القول بأنه كان يوجد فى سرايفو قبيل وقوع الغارة المذكورة ما يزيد على مائة مسجد وكثير منها كان لها قباب ومغطاة بالرصاص . وكان يوجد أيضاً ما يربو على سبعين مدرسة ابتدائية إسلامية وعشرات من المدارس الإعدادية والمدارس الإسلامية العليا وعدة مكتبات وتكيات من أجل اكتساب التعليم العالى . وكانت تعمل آنذاك آلاف الدكاكين والحوانيت والمخازن من أجل تبادل السلع والبضائع بين القارات المختلفة . وكان يوجد خمسون مكاناً للمبيت بإمكانها أن تستوعب ما يربو على ألفى نزيل وكذلك ثلاثة محلات مخصصة لبيع المنسوجات الثمينة .

وبسبب الخراب الذى لحق بالمدينة فقد فكر أهلها فى وسيلة لحمايتها . ونظراً لأن مدينة سرايفو كانت كبيرة فقد تم قصر الحماية على منطقة صغيرة تقع على التل وتسمى « فراتنيك » . وفى القرن الثامن عشر (وبالتحديد فى عام ١٧٢٧) بدأ تشييد أسوار حول المدينة وقلاع وبوابات . ولم يعد من الممكن الدخول إلى المكان المحصن إلا من خلال سبع بوابات موجود منها حتى اليوم ثلاث : شيروكاتس وبلوتشا وبوابة فيشيجراد .

وها هو التاريخ يعيد نفسه ، فما أشبه اليوم بالبارحة . فها هى سرايفو « سراى البوسنة » ومدينة المائة مئذنة وبوتقة التعايش والتسامح تتعرض للخراب والدمار كما تعرضت بالأمس ، وتحاصرها أعاصير الهيمنة وشياطين التطرف الطائفى . وتعجز الكلمات عن وصف ما تتعرض له سرايفو وسكانها الآمنون من أعنف صور الهمجية والوحشية ومن أعتى حملات الإبادة الفريدة لمدينة تميزت عبر قرون طويلة بنسيج رفيع لا مثيل له من التعايش السلمى بين القوميات والأديان . إنه زلزال من الإجرام المتراكم من الحقد الأسود ومن التعصب الطائفى الأعمى الذى يريد أن يجتث من الأعماق جذور أمة المسلمين من هذه المنطقة حتى

لا تنبت لها ثانية على هذه الأرض أية نبتة تفوح بعطر الإسلام وتشهد بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

ودمرت أيادى الباطل والبهتان مساجد سرايفو ومبانيها الإسلامية العريقة . وحولت سرايفو إلى مدينة أشباح لا تبصر فيها إلا الدمار وحطام المساجد وبقايا المنازل المنهارة . وحوصرت سرايفو من جميع الجهات بهدف تجويع أهلها وتصفيتهم معنوياً وجسدياً ونزع الحب والتسامح من صدورهم ، وبهدف إفراغ المدينة من سكانها المسلمين طوعاً أو كرهاً ، وبغرض طمس الطابع الإسلامى الأصيل الذى تتسم به هذه المدينة .

إن كلمات المجازر والمذابح والإبادة تظل عاجزة عن وصف ما تعرض له سكان سرايفو من حمامات دماء ومن طوفان جامح يريد إبادة المسلمين بأية طريقة مشروعة أو غير مشروعة وبكل السبل والإمكانات المتاحة فى ظل عصر أكذوبة الديمقراطية وإشاعة النظام العالمى الجديد .

ولكن بفضل الله وعونه ستبقى سرايفو بمذاقها الخاص وطابعها الحضارى المختلف وتجانسها الإنسانى ودياناتها المتعددة وقومياتها المتباينة . وستظل – إن شاء الله – سرايفو النقطة المضيئة فى وسط هذا المكان الموحش الحافل بالظلام والقتامة ، وستظل نقطة الأمل وسط هذا البحر من اليأس والحقد .

وبإذن الله ستنقشع عن سرايفو هذه السحب السوداء وتنجلى الغمة عن هذه المدينة الحبيبة إلى قلوب المسلمين وعن مساجدها التى تهفو إليها أفئدة المؤمنين . وستبقى سرايفو بعون الله مدينة للإخاء والوئام ، وستبقى رمزاً للحب والسلام ، وستخيب آمال اللئام ، وتبقى دوماً موطناً لكل الآنام . سلمت يا سرايفو وسلم أهلك وسلمت مساجدك .

مسجد السلطان
فى مدينـــة سرايفـــو

كان عيسى بك إسحاقوفيتش هرانوشيتش هو الذى أنشأ مكاناً لإقامته باسم سراى البوسنة التى أصبحت بعد التوسعات مدينة سرايفو . ومما يذكر أنه كان يوجد فى هذا المكان أقدم مسجد بسرايفو . وفيما يتعلق بالشكل الأول للمسجد فلا نعلم عنه إلا قليلاً عن طريق الوثائـــق والمستندات التى أوضحت حالته السيئة بسبب النيران التى إندلعت فى سرايفو فى عام ١٤٨٠ بمعرفة الجيش النمساوى المجرى .

وفى نفس مكان المسجد القديم وبجانب قصره أقام عيسى بك مسجداً وفقاً لأوامر السلطان محمد الفاتح . وهكذا تم فى الفترة من عام ١٥٦٦ وحتى عام ١٥٦٧ إنشاء المسجد الحالى المعروف باسم مسجد السلطان الذى يعد من أروع مبانى الفن المعمارى الإسلامى فى سرايفو . وجرى تشييد المسجد بأموال السلطان وإفتتاحه رسمياً فى عام ١٥٦٧ .

وفى أغلب الأماكن السكنية بالمدن فى البوسنة كان يتم أولاً تشييد مساجد السلطان بناء على أوامره وبأموال الدولة ، ولكنها لم تكن تتبع أوقاف السلطان . ويعتبر الموظفون العاملون فى مساجد السلاطين من موظفى الدولة ويحصلون على رواتبهم من أموال الدولة . ومن ناحية أخرى كان موظفو مسجد السلطان (الإمام والخطيب والمؤذن) يملكون إقطاعيات بينما كانت النفقات الخاصة بإضاءة المسجد وفرشه وصيانته ونظافته وإصلاحه يتم دفعها من موارد الدولة من الخراج .

ومسجد السلطان مشيد في القرن السادس عشر أى في ذروة النهضة الإسلامية لفن المعمار ، ومن حيث أهميته وضخامته يحتل المرتبة الثانية بين المشروعات المعمارية وبين هذا النوع من المباني في البوسنة والهرسك .

ومجموعة المباني الحالية لمسجد السلطان نشأت خلال حقبة ليست بالوجيزة إبتداء من القرن الخامس عشر وحتى القرن العشرين . وأقدم جزء فيها تمثله المقابر بشواهدها التي ترجع إلى النصف الثاني من القرن الخامس عشر . ويوجد عند جدار المحراب شاهدان تربط الأساطير بينهما وبين ضريح عيسى بك إسحاقوفيتش . وفي المقابر المنتشرة حول المسجد توجد شواهد يرجع تاريخها إلى الفترة من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر ، وتوجد كذلك الأسوار الحجرية المشتركة مع قبر الشيخ إبراهيم بيستريخيا (المشيد في عام ١٦٦٤) .

ولاشك أن مسجد السلطان يعد من بين أهم آثار الحقبة العثمانية في البوسنة والهرسك . ومن الناحية المعمارية يمكن ملاحظة أن المسجد مشيد وفقاً لروح الأسلوب القسطنطيني التقليدى في القرن السادس عشر ، أما المكتبة أو مجلس العلماء الذى يرجع إلى عام ١٩١٠ فهو يتبع أسلوب الباروك الشرقي المتأخر .

ويتبع مسجد السلطان ذلك النموذج من المساجد الذى له ساحة واحدة وقبة مقوسة ، ويصل ارتفاع مئذنته إلى سبعة وأربعين متراً ، وهي تعتبر في الوقت الحالي من أعلى وأجمل المآذن في منطقة البوسنة والهرسك بل وفي منطقة البلقان كلها ، وهي أيضاً المئذنة الوحيدة في سرايفو التي لها شرفة مرصعة بالسواقط الحجرية . ويعد مسجد السلطان بالاضافة إلى مسجد قراقوز بك في موستار من أجمل مساجد هذه المنطقة . والساحة الخارجية للصلاة الموجودة أمام المسجد أبعادها ١١,٣٣ × ٥,٧٠ متراً . وردهة المسجد ذات جمال فريد وتتألف من أروقة مقنطرة لها سبع قباب صغيرة يحملها عشرون عموداً حجرياً .

وموتيفات الصور المرسومة على جدران هذا المبنى تبين أنه كان يتم توجيه عناية كبيرة إلى الصور المرسومة على الجدران فى سرايفو . وعناصر هذا الفن تشير إلى أنها نشأت فى القرن السادس عشر لأنها مشابهة إلى حد كبير لتلك العناصر الموجودة بالآثار الإسلامية الأخرى التى تمت المحافظة عليها محافظة كاملة أو جزئية فى منطقة البوسنة مثل مسجد البك فى سرايفو (١٥٣١ - ١٥٣٢) ومسجد آلادجا فى فوتشا (١٥٥١) ومسجد فرهاد فى سرايفو (١٥٦١ - ١٥٦٢) ومسجد دوكتار فى ليفنا (١٥٨٧ - ١٥٨٨) ، ومثل كثير من المساجد التى كانت موجودة بالامبراطورية العثمانية .

وفيما يتعلق بالرواق الموجود بجانب هذا المسجد فهناك افتراض بأنه كان موجوداً فى البداية ، بينما يعتقد آخرون أنه تمت إضافته فى عام ١٧٩١ أو عام ١٧٩٧ أو ١٨٠٠ . وبقايا هذا الرواق ظاهرة فى الوقت الحالى على الجدران الخارجية للمبانى الملحقة . ووفقاً لمشروع هيئة حماية واستغلال الآثار التاريخية فى سرايفو فقد تم عرض نتائج الاكتشافات الأثرية ، وهى قناطر طويلة نصف دائرية وتشمل تيجان الأعمدة بحيث تشكل أروقة مقنطرة . وهى مبنية من الأحجار والقرميد مثلها مثل الجدران والأسقف المشيدة فوقها . وحتى عام ١٨٤٨ كانت الأروقة مفتوحة ، وبعد ذلك الحين تم تشييد سقف لها من أجل توسيع الأماكن الجانبية الملحقة للصلاة .

وبعد الحريق الكبير فى عام ١٦٩٧ حينما قام الجيش النمساوى بتخريب وحرق سرايفو تعرض المسجد لأضرار كبيرة وتحطمت المبانى الموجودة فى الأماكن المحيطة به .

وفى عام ١٧٧٩ تم تجديد المسجد على نفقة الوالى البوسنى عبد الله دفتريفيتش . وبعد ذلك جرت إقامة بعض المبانى إضافة إلى ما تم

تشييده من مبان فى عامى ١٧٥٩ – ١٧٦٠ . وبمعرفة عثمان شهدى بيلوبولياتس تم فى الفناء تشييد أول مكتبة عامة في سرايفو ، بالقرب منها أقيم فى عام ١٧٩١ صنبور عمومى للمياه . وأجريت إضافات هامة لمجموعة مبانى المسجد وأجريت أكبر الاصلاحات فى القرن التاسع عشر فى عهد فاضل باشا شريفوفيتش المدير المسئول عن مسجد السلطان . وبناء على أمر من السلطان عبد المجيد فى عام ١٨٤٨ أجريت توسعات بالمسجد ، وتم تشييد الرواق فى المقدمة وتم تزويده بأرائك وفى الداخل تم وضع أثاث خشبى جديد .

وعلى البوابة التى جرى تجديدها تم وضع نقش مكتوب يتعلق بالتجديد ومرصع باسم السلطان عبد المجيد . وفى عام ١٨٥٣ – ١٨٥٤ تم على نفقة فاضل باشا شريفوفيتش إنشاء أول ساعة للمواقيت بسرايفو ، وأكمل تشييدها الوالى البوسنى مصطفى عاصم باشا حينما تم فى عام ١٨٧٢ إجراء توسعات فى الدور الأرضى ، وكذلك بالدور الأول من أجل احتياجات الإمام والخطيب ومؤذن المسجد . وخلال عامى ١٨٥٧ – ١٨٥٨ أقام شريفوفيتش مدرسة إسلامية . ومن أجل تشييد مبنى لمجلس العلماء تم هدم مبانى برج الساعة والمدرسة والمكتبة والصنبور العمومى وكل المبانى المحيطة . وفى الآونة نفسها تم من الجهات الجانبية للفناء تشييد أروقة تربط المسجد بمبنيين من طابق واحد للقصر المذكور الذى وُجِدَت فيه فى نفس الحين مكتبة الغازى خسرو بك .

وهذا المسجد الذى يعد لؤلؤة على نهر ملياتسكا أصيب بأضرار من جراء القنابل التى سقطت عليه خلال الحرب الأخيرة ، كما أن أنياب الزمن تركت آثارها على هذا المبنى الذى بدأ ينهار إنهياراً سريعاً . ورغم أن هذا المسجد باعتباره من الآثار التاريخية الجديرة بالاهتمام كان يقع تحت حماية ورعاية الدولة إبان الحكم الشيوعى إلا أن جهات الاختصاص لم تفعل شيئاً يذكر من أجل حماية وصيانة هذا المسجد .

وفى عام ١٩٧٨ أنشأ بعض المواطنين صندوقاً من أجل جمع التبرعات لإنقاذ وإصلاح وترميم هذا المسجد وبمبادرة شخصية منهم قاموا بحملة من أجل هذا الغرض . وكانت البداية أكثر من ناجحة بحيث أنه جرى بواسطة الأموال التى تم جمعها شراء المواد اللازمة للترميمات بالاضافة إلى ما يلزم من أخشاب ورقائق النحاس ، وكذلك إعداد المستندات الفنية اللازمة والحصول على تصريح من أجل إجراء أعمال الترميم والإصلاح وحماية المبنى .

وبالفعل تم فى عام ١٩٨٠ إجراء عمليات ترميم هامة من الناحية المعمارية وفى الصور والرسوم التشكيلية . وفى الوقت نفسه تم برقائق النحاس تغطية جميع مساحات السقف التى كانت من قبل مكسوة برقائق من الحديد العادى أصابها البلى تماماً نتيجة للتآكل والصدأ . وتم إصلاح الثغرات الموجودة بجميع أنحاء المسجد وتجديد كل واجهات المبنى . أما فى الداخل فقد تم تركيب أرضية جديدة وتجديد توصيلات التدفئة المركزية والتوصيلات الكهربائية والإضاءة ، مع تركيب إضاءة جديدة وتوصيلات للإذاعة الداخلية . وفى إطار الإصلاحات تم تغيير إطارات النوافذ الخشبية .

وقد استحوذت على أكبر قدر من الاهتمام والوقت الأعمال الخاصة بفحص ودراسة الصور المرسومة على الجدران وإصلاحها وتجديدها . وقام خبرآء الآثار من داخل الجمهورية وخارجها بأعمال الصيانة الوقائية فى الأماكن المعرضة للخطر وأعدوا بحثاً وخطة من أجل صيانة وتجديد هذه الصور ، وتضمنتا معلومات عن الحالة الراهنة وتقييماً لها وتقديم الإقتراحات المتعلقة بأعمال الترميم .

ووفقاً لتقديرات نيهاد باختياريفيتش خبير هيئة حماية الآثار فقد تم اكتشاف أن مسجد السلطان يحوى أكبر ثروة من الصور المرسومة على

الجدران التى ترجع إلى العصر العثمانى . وهذه الصور لها أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الفن الإسلامى فى العهد العثمانى . واكتشاف الزخرفة بالصور هنا أثبت أنه كانت تتم بشكل كبير العناية بالزخرفة بالصور ذات الموتيفات الشرقية فى الفترة من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر .

بيد أنه لم يكن يعرف لفترة طويلة تقريباً شيء عن الزخرفة بالصور فى هذا المسجد وفى باقى المساجد بالبوسنة والهرسك إلا حينما جرت أعمال الصيانة بمسجد السلطان وتأكد الخبير المختص من وجود مساحات قديمة كبيرة من طبقات الصور .

وجرت أعمال تجديد مسجد السلطان بثبات وإصرار ومثابرة خلال حقبة مريرة . ومنذ عام ١٩٨٧ وتتابع أعمال التجديد والترميم لجنة فنية خاصة ذات طابع استشارى . وبالاشتراك مع ممثلى الممولين ومنفذى الأعمال كانت تصدر القرارات التى تهدف إلى حل المشاكل غير المتوقعة الناشئة . كما يتابع أعمال التجديد والترميم مجلس المسجد برئاسة المدير محمد بيرقتاريفيتش الذى كان صاحب مبادرة إجراء التجديدات والمحرك الروحى للمشروع كله .

والجزء الأكبر من الأموال اللازمة لتجديد المسجد جمعه أعضاء مجلس الجماعة الإسلامية فى سرايفو ، والجزء الباقى تم جمعه بواسطة أجهزة الجمعيات الاجتماعية بالمدينة والجمهورية . وتم رسمياً افتتاح مسجد السلطان بعد تجديده فى سبتمبر ١٩٨٩ وكان جماله يرصع ويزين كنز القيم الفنية والتاريخية لمدينة سرايفو .

مكتبة الغازى خسرو بك

من المؤكد أن المكتبات الإسلامية من أهم المؤسسات الثقافية بسبب دورها المهم والخطير فى نشر ألوان المعرفة والثقافة بين المسلمين بل لقد تعدى تأثيرها المسلمين أنفسهم وانتقل إلى غير المسلمين . ومن جهة أخرى كانت المكتبات الإسلامية مرآة تنعكس فيها حياة المسلمين وتظهر فيها الحياة بوضوحها وصفائها وتفاعلها . ومن ثم وجب القيام بدراسة موضوعية للمكتبات الإسلامية ولدورها فى حياة أصحابها ، وعلى الأخص فى المناطق غير الإسلامية فى الوقت الحالى .

وتاريخ المكتبات الإسلامية فى البوسنة والهرسك تاريخ حافل ومشرق ، ويرجع إلى العهد الذى كانت فيه هذه المنطقة تابعة للامبراطورية العثمانية . وقد سبق التنويه إلى أن قدوم الأتراك العثمانيين إلى هذه المناطق فى القرن الخامس عشر الميلادى أحدث تغيرات هائلة فى المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية وفى باقى مجالات الحياة . ويتحتم هنا أن نشير إلى أن اعتناق أهل هذه البلاد للإسلام لم يكن بالإكراه وإنما تحول أهلها بمحض إرادتهم إلى إعتناق الإسلام وأخلصوا له .

ومما لا ريب فيه أن هذه الفترة من الحكم العثمانى لهذه المنطقة تتميز بإقامة للمستوطنات الجديدة وبإطراد عدد سكان المدن ونموها نتيجة للنمو الاقتصادى ، ومن المؤكد أن كل هذا قد تم تحت التأثير الواضح والقوى للمدنية والثقافة الإسلاميتين . وقد حدا هذا بالسكان المسلمين من أهل هذه البلاد إلى الاهتمام بالحياة الثقافية الإسلامية حتى يصقلوا بنتاجها عقولهم

ويهذبوا به نفوسهم ، وكان هذا باعثاً على نشر القراءة والكتابة والإقبال المتزايد على التعليم وطلب العلم والعمل على جمع الكتب وتأليفها باللغات العربية والتركية والفارسية .

وأصبحت المراكز التثقيفية في المجتمع الإسلامي الجديد هي « الكتاتيب » والمدارس الإسلامية والمساجد والتكايا . وبالإضافة إلى ذلك تم إنشاء مختلف المكتبات الإسلامية في هذه المنطقة . ومن الملاحظ أنه كان يطلق على هذه المكتبات اسم « المكتبات الشرقية » نظراً لأنها في معظمها تحتوي على كتب مكتوبة باللغات الشرقية التي ذكرناها . وفي المساجد التي تجاوز عددها آنذاك الألف في منطقة البوسنة والهرسك ، كان يتم الحفاظ على مخطوطات القرآن وعلى مختلف الكتب الخاصة بشعائر الصلاة وتعليمها .

وفي التكايا كان من الممكن أن توجد بجانب الكتب الدينية أشعار الصوفية باللغات الشرقية الثلاث ، وفيما بعد بلغتي الشعب : البوسنية أو الصربوكرواتية وكانت المكتبات الموجودة بالمدارس الإسلامية هي أكثر هذه المكتبات أهمية وأفضلها من حيث تزودها بالكتب ، فكانت تحتوي على أشهر المؤلفات في جميع المجالات الدينية والعلمية الخاصة بالدراسة . وكان العديد من هذه المكتبات يتطور وينمو عبر الزمن إلى أن يصبح مؤسسات عامة مستقلة .

وقد خلقت المصالح الثقافية الواسعة الظروف الملائمة واللازمة لتنوع النشاط الثقافي ، هذا بالاضافة إلى الكتب التي كانت تعد من الأشياء المقدسة في العالم الإسلامي . وتكونت طبقة متميزة من أهل البلاد الذين اعتنقوا الإسلام وبذا توافرت لديهم إمكانات كبيرة لممارسة نسخ الكتب وكتابة التاريخ وقرض الشعر وللانشغال بمختلف الوجوه الأخرى للنشاط الأدبي والثقافي . وكانت الأحوال آنذاك تشجع على شراء الكتب والحفاظ عليها والاتجار بها ، الأمر الذي أدى بالتالي إلى إقامة وانتشار

الكثير من المكتبات الخاصة التى كان يتم فيما بعد وفى أغلب الأحوال ، وقفها للمكتبات العامة بناء على وصية أصحابها .

ويمكننا التأكيد بأن ظهور المكتبات الإسلامية الأولى فى المناطق التابعة ليوغسلافيا سابقاً يرجع إلى منتصف القرن الخامس عشر ، وبناء على الوثائق التى تم العثور عليها حتى الآن يمكننا كذلك القول بأن أقدم المكتبات فى هذه المناطق هى تلك التى أنشأها إسحق بك قبيل عام ١٤٤٥م . فى إطار المدرسة الدينية بمدينة سكوبلى فى مقدونية ، إلا أنه من المفروض أنه كانت توجد قبلها فى حوالى عام ١٤٣٠م . مكتبة بجوار المدرسة الإسلامية فى بيتولا وكان يحاضر فيها الفقيه عيسى .

وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر تم إنشاء عدد كبير من المكتبات الإسلامية العامة والخاصة فى جميع المدن الكبرى بالبوسنة وصربيا وكوسوفو . ولم يتم حتى وقتنا الحالى التحقق من عدد هذه المكتبات بسبب إختفاء الآثار الأولى الدالة على ذلك . وفى منطقة البوسنة والهرسك بالذات تم منذ القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر إنشاء ما يربو على المائة مدرسة إسلامية تضم كل منها مكتبة صغيرة أو كبيرة . وفى سرايفو ، المدينة الرئيسية بمنطقة البوسنة ، كان يوجد فى تلك الحقبة خمس مكتبات عامة بالاضافة إلى مائتين من المكتبات الخاصة المختلفة .

والمكتبات التى نتحدث عنها كان يتم تزويدها بالكتب التى يتم جلبها ، أولاً وقبل كل شيء ، من دول العالم الإسلامى . ولقد كان للمسلمين من هذه المناطق عبر القرون صلات دينية وتجارية وثقافية مع الدول الإسلامية . وفى أغلب الأحوال كان كثير من المسلمين من هذه المناطق يرحلون طلباً للعلم إلى أشهر المراكز الإسلامية للعلم والمعرفة مثل القسطنطينية والقاهرة وبغداد ودمشق ومكة والمدينة وغيرها من المدن حيث كانوا يرتقون أعلى المناصب الإدارية والقضائية والدينية والدبلوماسية .

وعند عودتهم إلى وطنهم يحضرون معهم الكتب اللازمة لاحتياجاتهم الخاصة أو لتقديمها هدية للأصدقاء أو لإهدائها للمكتبات العامة . وكان هناك مسلمون آخرون يذهبون إلى هذه الدول الإسلامية بغرض الحج أو التجارة أو العمل وكانوا يحصلون أيضاً على عدد كبير من الكتب يجلبونها معهم .

ويزيد من أهمية المكتبات الإسلامية فى كل منطقة البلقان أنه كان يتم تزويدها كذلك بالمؤلفات التى جرت كتابتها داخل تلك المنطقة ، أى ألفها مسلمون من هذه المنطقة .

ومنذ قديم كان يتم فى هذه المنطقة نسخ الكتب ومع قدوم الأتراك العثمانيين إلى هذه المناطق تطورت هذه الحرفة واتخذت أساليب أخرى . وهكذا برزت حرفة نسخ الكتب لا فحسب فى المدن بل وفى القرى النائية ، وتطلب هذا الإنتاج الضخم من نسخ الكتب اشتغال الناس بحرفة تجليد الكتب ، ومن الطريف أنه كان يوجد بمدينة سرايفو شارعان مخصصان للمشتغلين بهذه الحرفة .

ولقد تعرض الكثير من المكتبات القديمة للتلف وأصيب بأضرار بالغة بسبب الحروب ونتيجة للكوارث الطبيعية والحرائق . ومن أجل كل هذا لا يمكن لأحد أن يكوّن تصوراً واضحاً عن المكتبات الإسلامية وعن محتوياتها من الكتب وعن كل أنشطتها ، إلا أن ذلك لا يقلل من أهميتها لأنها تمثل جزءاً لا يتجزأ من التاريخ الثقافى لشعوب هذه المنطقة .

وكان يوجد فى الجمهوريات اليوغسلافية السابقة العديد من المكتبات والمعاهد وإدارات السجلات والوثائق التى تحافظ على مثل هذه المخطوطات والكتب وتبحث فيها . ففى سرايفو توجد مكتبة الغازى خسرو بك ومعهد الاستشراق والمكتبة القومية ومكتبة الجامعة بجمهورية البوسنة والهرسك ومصلحة السجلات والوثائق التاريخية ، وفى سكوبلى

توجد مصلحة السجلات والوثائق الحكومية لجمهورية مقدونية ، وفى مدينة زغرب يوجد القسم الشرقى من معهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم والفنون وكذلك مصلحة السجلات والوثائق الحكومية ، وفى بلغراد توجد مكتبة جامعة بلغراد والقسم الخاص بالوثائق لدى أكاديمية العلوم والفنون فى صربيا ، وفى مدينة موستار توجد مصلحة السجلات والوثائق الخاصة بالمدينة ثم مكتبة دير الأخوين « فرانو » الكاثوليكيين ، وفى مدينة بريذرن مكتبة الأوقاف .

ومكتبة الغازى خسرو بك فى سرايفو من أقدم المكتبات المشهورة المصانة فى جمهورية البوسنة ، وتم تأسيسها فى عام ٩٤٤هـ - ١٥٣٧م . ومن المرجح أنه لابد أن تكون موجودة قبل هذا التاريخ مكتبة قديمة للمراجع تم تأسيسها مع إقامة أول المساجد والمدارس الإسلامية والتكايا ، ولكن لا توجد أية معلومات أكيدة عن هذه المكتبة .

ومكتبة الغازى خسرو بك هى أغنى خزينة للمخطوطات الشرقية الثمينة بهذه المنطقة ، وقد أسسها الغازى خسرو بك الحاكم التركى فى منطقة البوسنة . وهو مولود فى عام ٨٨٤هـ - ١٤٨٠م . فى مدينة سيروز فى روميليا باليونان حيث كان والده والياً هناك حينذاك . وكان والده يدعى فرهاد بك ابن عبد الغفور ، وأمه هى سلجوقة بنت السلطان بايزيد الثانى . وبناء على فرمان سلطانى عثمانى بتاريخ الخامس عشر من سبتمبر عام ١٥٢١م . تم تعيين الغازى خسرو بك والياً على البوسنة التى حكمها طوال حياته مع فترتى انقطاع قصيرتين حتى وفاته فى الثامن عشر من يونيو عام ١٥٤١م . (٩٤٨هـ .) ، وتم دفنه فى ضريح خاص بجانب مسجده فى مدينة سرايفو .

وكان الغازى خسرو بك من كبار رجال الحكم والسياسة ومن أبرز رجال الثقافة . وقد ارتبط ارتباطاً وثيقاً باسمه وبأنشطته كل ما تمثله

وتعنيه مدينة سرايفو من الناحية التجارية والاقتصادية وكل ذلك الذى يمثل ويعنى شيئاً إيجابياً فى المؤسسات الاجتماعية والثقافية والخيرية . فقد أوقف سلسلة من الأوقاف الهامة ذات الطابع الثقافى والتعليمى والاقتصادى والإنسانى والصحى الخيرى ، وكانت تستخدم كقاعدة لسرعة تطوير سرايفو وازدهارها حينذاك . وتطورت سرايفو من الناحيتين الروحية والمادية وأقامت علاقات تجارية واقتصادية وثقافية مع المراكز المحيطة بها وكذلك مع المراكز المماثلة البعيدة بالشرق ، وبقدر ما كان الغازى خسرو بك متديناً وشاعراً . بقدر ما كان أيضاً حاكماً فريداً ومصلحاً اقتصادياً .

وقد شيد مسجداً ضخماً يعرف باسمه ، وعلى شماله أقام مدرسة وخانقاه (مكان لأداء الفرائض والتعليم) . ويوجد من ناحية الشرق « كُتّاب » فى حرم الجامع ، وفى الغرب المطعم والمطبخ العمومى (ويسمى بالعمارة) لإعداد الخبز والطعام اللذين يوزعان كل يوم على طلبة مدرسته وموظفى أوقافه وعلى فقراء مدينة سرايفو ، ثم توجد أيضاً « المسافرخانة » والنافورة والحمام العمومى وغير ذلك من المنشآت الخيرية . وفيما بعد أنشأ المسئولون عن إدارة أوقافه أوقافاً جديدة مثل برج الساعة وفندقاً لراحة المسافرين ومكتبة ومستشفى .

وعن طريق إيرادات أملاكه الموقوفة كفل الغازى خسرو بك الوجود المستمر لأوقافه ونظم إدارتها بالوصايا الوقفية . وفى وصيته الخاصة بالمدرسة وهب ٧٠٠ ألف درهم فضة ، وحدد أن يتم بناء المدرسة بمبلغ ٤٠٠ ألف درهم وأن يتم إنفاق الباقى من البناء على شراء كتب جديدة يتم استخدامها فى المدرسة المذكورة لكى يستفيد منها من يقرأهاوينسخ منها من يشتغلون بالعلوم .

وليست هناك أية معلومات مؤكدة عن موقع هذه المكتبة وعن كتبها

وعن كيفية تنظيمها فى القرون الأولى لوجودها . ومن المرجح أنها كانت موجودة فى مكان خاص بها بجانب المدرسة الإسلامية للغازى خسرو بك أو داخل المدرسة نفسها . وفى أثناء الغارة التى شنها الأمير النمساوى أوجين سافويسكى فى عام ١٦٩٧م على سرايفو أصيبت المكتبة بأضرار بالغة وضاعت كتبها . ثم تم نقلها وسرعان ما تم تجديدها ووضعها داخل المدرسة وظلت بها حتى عام ١٨٦٣م . وفى العام نفسه قامت إدارة أوقاف الغازى خسرو بك ، بتشجيع من الشريف عثمان باشا حاكم البوسنة ، بإنشاء مكتبة خاصة بجانب مسجده ، وعلى الفور تم نقل المخطوطات التى كانت تمتلكها المكتبة .

وبمضى الزمن زاد عدد الكتب وازداد معها الاهتمام بالمكتبة . وفى عام ١٩٣٥م . وبناء على قرار من « مجلس العلماء » فى ذلك الحين تم الحصول على جزء من دار الإفتاء بسرايفو من أجل احتياجات المكتبة وتم نقلها إلى هذا المكان الجديد ، وفيما بعد (فى عام ١٩٥٩) احتلت كل الجناح الأيسر للمبنى أمام المدخل الموصل إلى مسجد السلطان (على الشاطئ الآخر لنهر ميلياتسكا) . وتم توسيع المكتبة فى المبنيين الواقعين أمام مسجد السلطان واستمرت فيه حتى وقتنا الحالى .

ولا يمكننا أن نعرف معرفة أكيدة ما هو عدد ونوعية تلك الكتب المخطوطة التى تم شراؤها عند تأسيس مكتبة الغازى خسرو بك لأنه لم تتم صياغة أية وثيقة بهذا الشأن . فقد كان من المعتاد أن يحدد واهب الوقف كل ما يَهبْ ، ولكن فى هذه الحالة لم يتم تحقيق ذلك لأن الأمر يتعلق بأموال نقدية . وعلاوة على ذلك فإن الأحداث التاريخية العاصفة ، وعلى الأخص الحرائق المتكررة التى أتت على سرايفو القديمة تماماً ، أصابت ببالغ الضرر الكثير من الآثار التاريخية والثقافية ومنها هذه المكتبة . وهكذا ضاعت أغلبية المخطوطات ولكن تم الحفاظ على جزء منها .

ومن العسير تحديد المكونات الأولى للمكتبة ، ولكن وفقاً لما تم ذكره

فى وصايا الوقف ووفقاً لعدد المواد التى كان يتم تدريسها بالمدرسة يمكن الافتراض بأن المكتبة كانت تحوى كتباً عديدة ذات قيمة كبيرة وتمثل بالتأكيد أفضل الكتب المدرسية والمراجع بإعداد وفيرة . وحيث أن الخط كان مادة إجبارية بالمدرسة فمن المحتم أن المخطوطات المحفوظة بهذه المكتبة كانت متنوعة الخطوط وعلى درجة عالية من جودة الخط ، الأمر الذى تؤكده النماذج المحفوظة من المخطوطات .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن مكتبة الغازى خسرو بك حققت بوجودها عبر القرون الهدف الذى قصده مؤسسها وهو قراءة الكتب والتعلم منها ، وكانت الكتب على الدوام فى متناول الجماهير العامة والخاصة .

وعن طريق نسخ المخطوطات تم تجميع كتب من المؤلفات فى مجال الشريعة والتراث الإسلامى والنحو وبلاغة اللغة العربية والفضائل الإسلامية والمنطق والتصوف .

ونضيف بأنه ابتداء من عام ١٨٦٧م بدأت عملية نقل وضم العديد من المكتبات العامة والخاصة والموقوفة ومجموعات من الكتب والمخطوطات إلى مكتبة الغازى خسرو بك . ومن هذه المكتبات على سبيل المثال لا الحصر : مكتبات قنتاميرى وعثمان شهدى وسجلات قضاء سرايفو ومكتبات مدارس عثمان قبطان وحسن نظير وممشاه بك وعثمان أفندى وإبراهيم أفندى ، ومكتبات قراقوز بك ودرويش بك ومصطفى أيوبوفيتش وتلميذه إبراهيم أوبياتش .

وللأستاذ محمد الخانجى الذى عمل لفترة طويلة أميناً لمكتبة الغازى خسرو بك فضل كبير فى زيادة عدد الكتب بالمكتبة ، وبفضله أيضاً تم جمع مجموعات ثمينة من المخطوطات من المكتبات والمدارس الإسلامية والمكتبات الخاصة . وبعض هذه المخطوطات له أهمية كبيرة نظراً لأنه

يرجع إلى القرن السادس عشر . بل أنه تم فى عام ١٩٤٤م . ضم المكتبة الكبيرة الخاصة بالأستاذ محمد الخانجى إلى مكتبة الغازى . وتقودنا كل هذه المعلومات إلى التقرير بأن مكتبة الغازى خسرو بك تمثل صورة شاملة لجميع المكتبات العامة والخاصة الهامة فى منطقة البوسنة والهرسك .

وتم تجميع كتب مكتبة الغازى ، من حيث مضمونها ثم ترتيبها وفقاً لحجمها ، على رفوف ، وكانت تتم مراعاة المنظر الجمالى العام . وعلى جانب كل كتاب يتم وضع بطاقة صغيرة تكتب عليها الأرقام بخط اليد . ومع زيادة عدد الكتب بدأ إجراء عملية تسجيل مبسطة للكتب فى سجل عنوانه : دفتر الأسماء ، وحجمه ٣٣ × ٢٠ سم . وفى أول صفحتين متقابلتين توجد سبعة أعمدة وهى تمثل رقم المجلد ورقم الكتاب وعدد السطور واسم الشخص الذى وهب الكتاب . وعلى غلاف السجل تم باللغة العربية تسجيل التقسيمات العامة وفقاً للمجموعات التالية : تفسير – حديث – أصول الحديث – فقه – عقائد – لغات – نحو – صرف – منطق – معانٍ – أدب – فرائض (أى الشريعة) – حكم (خاصة بالفلك) – قصائد – تصوف – طب – مواعظ (قصصية) – قراءات (قرآنية) – عروض – فارسى – تاريخ – دواوين شعرية – إحياء (أى علوم طبيعية ورياضية) – متفرقات .

والعيب الرئيسى لهذه البيانات أنها أغفلت المعلومات الخاصة بالمؤلف ، بيد أن هناك حالات تم فيها تسجيل اسم المؤلف على أنه تكملة للعنوان ، وفى أحيان أخرى كان يتم استخدام اسم المؤلف كعنوان للكتاب . وهذه الطريقة فى تسجيل الكتب تمثل نموذجاً للأسلوب الشرقى فى تسجيل الكتب آنذاك ، والبيانات كلها مكتوبة بعناية وتمثل فى حد ذاتها شيئاً نادراً .

وفى عام ١٩٣٧م . تم البدء فى إجراء إصلاحات بالمكتبة وتم

الاحتفاظ بالأسلوب السابق فى فهرسة الكتب وتسجيلها . ولأول مرة فى تاريخ هذه المكتبة تم الشروع فى عمل فهرس للمكتبة على وريقات مقاس ربع فرخ . وهكذا تم إعداد سجل للكتب المكتوبة باللغات الشرقية (العربية والتركية والفارسية) وسجل آخر للكتب المكتوبة باللغات الأوروبية . والسجل يضم ثلاثة أعمدة لرقم وعنوان الكتاب ولاسم مؤلفه ثم كونه مخطوطاً أم مطبوعاً . وباقى البيانات موجودة فى وريقات الفهرس .

وبعد الاستقلال بعدة سنوات (فى عام ١٩٤٩م .) بدأت المكتبة تعمل بأسلوب جديد فتم فصل المخطوطات عن الكتب المطبوعة وتم تقسيم الكتب إلى قسمين : قسم شرقى يضم الكتب المكتوبة باللغات العربية والتركية والفارسية ، وقسم أوروبى . وتمت فهرسة الكتب إلى خمسة أقسام : القسم الأول ويضم المخطوطات المكتوبة باللغات الشرقية ، والقسم الثانى ويشمل الكتب والمجلات المطبوعة باللغات الشرقية ، والقسم الثالث ويحتوى على الكتب والمجلات المطبوعة باللغة الصربوكرواتية وباقى اللغات الأوروبية . والقسم الرابع وهو قسم متنوع يتضمن ست مجموعات : الصحف والمجلات ، والمراجع والخرائط الجغرافية والإعلانات والمنشورات والصور . وبالقسم الخامس ثلاث مجموعات : الوثائق والسجلات والدفاتر . وداخل كل قسم يتم ترتيب الكتب على الرفوف وفقاً لحجمها أو حسب ترتيب الحروف الأبجدية ، ويتم حفظ المخطوطات والوثائق التاريخية الثمينة فى خزائن .

وفى عام ١٩٥٠م . تم تشكيل لجنة لفحص وجرد المكتبة ، وتقرر أن يتم تنظيم المكتبة وفقاً للمبادىء الحديثة وللأساليب العصرية وأن يتم تزويدها بالكتب اللازمة ذات القيمة . وهكذا تم استكمال فهرس المخطوطات وفهرس الكتب المطبوعة باللغات الشرقية ، وتم ترتيبه وفقاً للترتيب الأبجدى لعناوين المؤلفات ، وكذلك تكملة فهرس المطبوعات

باللغة الصربوكرواتية وباقى اللغات الأوروبية وتم تنظيمه وفقاً لأبجدية ألقاب المؤلفين . ويوجد أيضاً بالمكتبة فهرس للدوريات منظم وفقاً لعناوينها .

ومن أعظم الإنجازات التى قامت بها المكتبة هو إصدار فهرس للمخطوطات الشرقية ، وفيه قام مؤلفه « قاسم دوبراتشا » بعرض وصف مفصل لحوالى ١٩٥٧ مخطوطاً ، وصدر منه حتى الآن مجلدان . ويحمل هذا الفهرس طابع الببليوجرافيا الكاملة ، وقد أثار ظهور هذا الفهرس اهتماماً عظيماً فى الدوائر العلمية والثقافية فى البوسنة والهرسك وخارجها . وبفضل هذا الفهرس سهل على القراء والباحثين الوصول إلى كتب هذه المكتبة وتزايدت بالفعل إمكانات تعاون المكتبة مع المؤسسات المماثلة .

ويوجد بالمكتبة ما يربو على ٦٥٠٠ مجموعة من المخطوطات تشتمل على حوالى خمسة عشر ألف مؤلف و ١١١٩٢ كتاباً مطبوعاً باللغات الشرقية ، وحوالى ١٩٢٢٣ كتاباً باللغات الأوروبية . وتدخل ضمن محتويات المكتبة المجلدات الكاملة للصحف والمجلات القديمة ومجموعات الوثائق التركية والسجلات والدفاتر والوصايا الوقفية ، وكذلك مجموعة مهمة من الخرائط الجغرافية القديمة والإعلانات والصور . وتمتلك المكتبة عدداً من المعاجم والقواميس المختلفة والمراجع ودوائر المعارف .

وتوجد بين المخطوطات العربية مؤلفات فى جميع مجالات العلوم الإسلامية وعلى الأخص فى مجال الشريعة . وتوجد أيضاً مخطوطات فى مجال فقه اللغة العربية والعقائد والطب والفلك والتنجيم والرياضيات والعلوم الأخرى .

والمخطوطات والسجلات التركية غنية بالمواد التاريخية والأدبية

ولذا فإن لها أهمية خاصة عند دراسة تاريخ الشعوب اليوغسلافية وآدابها . أما المخطوطات الفارسية فتشتمل على مؤلفات من الشعر الفارسى الكلاسيكى ، وكذلك على بعض المخطوطات النادرة للفن الزخرفى .

وتتوفر فى هذه المكتبة مؤلفات كثيرة لأولئك الأدباء من منطقة البوسنة والهرسك الذين ألفوا باللغات الشرقية بحيث أنها تعد مادة فريدة لدراسة هذه الظاهرة الفريدة . وقد ألف هؤلاء الأدباء والعلماء المسلمون كتباً فى مختلف الموضوعات والمجالات ومنها علوم القرآن والتفسير ومختلف علوم الدين والحديث والفقه والعقائد والشريعة والتصوف والتاريخ وأدب الرحلات والشعر ، وعلوم الحيوانات والرياضة والمنطق والوعظ والإدارة الحكيمة وتنظيم الدولة وخلاف ذلك من موضوعات . ومن المؤسف أن هذه المؤلفات ظلت فى طى النسيان ، وربما الكتمان لسبب أو لآخر .

وتوجد كذلك مؤلفات كثيرة من الأدب الأعجمى (الهاميادو) ، وهى مؤلفات كتبها مسلمو البوسنة والهرسك بلغتهم الأم وهى اللغة الصربوكرواتية ومكتوبة بالحروف العربية ، وتشمل هذه المؤلفات أجناساً أدبية فريدة ومتميزة سيجرى الحديث عنها فى البحث الخاص بالأدب الأعجمى . وتستخدم هذه المؤلفات عند دراسة الأدب القديم فى جمهورية البوسنة والهرسك . ومثل هذه الألوان من الابداع الأدبى لا تختلف اختلافاً جوهرياً ، من حيث مضمونها وشكلها ، عن الألوان الأدبية المماثلة والتى كانت موجودة لدى باقى الشعوب التابعة ليوغسلافيا سابقاً .

وسجلات هذه المكتبة لها أهمية خاصة من أجل دراسة التاريخ الاقتصادى والاجتماعى والثقافى لمنطقة البوسنة والهرسك . ويوجد

بالمكتبة حوالى ٤٨ مجلداً من سجلات قضاء سرايفو يرجع تاريخها إلى الفترة من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر ، وحوالى ٤٢١ وصية من وصايا الأوقاف وحوالى ٣٨٠٠ وثيقة من نفس الفترة المذكورة .

وبها أيضاً مجموعات لمختلف المستندات الرسمية للمحاكم الشرعية ، وفيها سجل القضاة أو كتبة المحاكم تسجيلاً كاملاً كل القرارات والأحكام واتفاقات البيع والشراء والوصايا ومستندات الإرث والأوقاف وغيرها من المستندات .

ومن بين المخطوطات الثمينة فى هذه المكتبة ما يسمى « بالمجموعات » وهى عبارة عن ملاحظات خاصة متنوعة الموضوعات ألفها وجمعها المسلمون اليوغسلاف من أجل احتياجاتهم واستخداماتهم ، وفيها سجلوا كل ما سمعوه أو حفظوه من المخطوطات أو الكتب القديمة . وفى بعض الأحيان كان مؤلف المجموعة يسجل بعض الأبيات من الشعر من تأليفه ، أو يسجل مناقشة أو أقوالاً تتعلق بحدث معين . وهكذا فإن كل مجموعة تعد مختارات ونماذج فريدة فى شكلها ومضمونها .

وهناك نوع آخر من المخطوطات الأدبية التركية يسمى « بالإنشاء » ، وهى مجموعات من الرسائل البلاغية المنتقاه وتهدف إلى خدمة الكتبة الجدد لاستخدامها عند كتابة وصياغة التقارير والمكاتبات الرسمية والقرارات وما إلى ذلك . ولهذه المخطوطات أهمية الآثار الأدبية نفسها ، وهى من ناحية أخرى تمثل شهادة على العصر الذى نشأت فيه وعلى أسلوب الحياة ، ومن هنا فإنها تفيض بالمعلومات التاريخية الأصيلة .

ومعظم هذه المخطوطات الموجودة بالمكتبة ذات قيمة كبيرة من

ناحية مضمونها وجمال كتابتها وزخارفها وكذلك من ناحية قدمها وندرتها . ويتم كذلك بهذه المكتبة الاحتفاظ بمجلدات كاملة نادرة من المجلات والصحف التى كانت تصدر فى البوسنة والهرسك آنذاك .

والمكتبة فى سياستها الشرائية الحالية لا تقتصر فحسب على المؤلفات المكتوبة باللغات الشرقية بل تحاول التزود بمعظم المؤلفات المحلية والعالمية فى مجال الاستشراق وعلى الأخص المراجع اللازمة للبحث فى كتبها وتحقيقها .

وكثير من مخطوطات هذه المكتبة تمثل نماذج فريدة فى الزخرفة وفى جودة الخط العربى . وعلى سبيل المثال كان يتم رسم النقط على الكلمات فى شكل زهور وأوراق شجر وغصون وورود من مختلف الأشكال . وتتم كتابة النص نفسه بالحبرين الأسود والأحمر ، وفى بعض الأحيان بالحبر الأزرق . ويتم وضع إطار حول النص فى شكل شرائط ذهبية أو فضية أو وضع شرائط رفيعة باللون الأحمر أو الأزرق أو الأخضر . وتزيد من ثراء الألوان النماذج الصغيرة المصوَّرة والملونة بجميع ألوان الطيف . وعلى هذا النحو تتم زخرفة الهوامش ، وفى بعض الأحيان تتم زخرفة صفحات كاملة . وليس من النادر فى هذا المضمار استخدام الذهب والفضة لطلاء الأرضية الورقية مما كان يزيد من وضوح الإطار ويضفى حيوية على الشكل الإجمالى .

ومن الواضح أنهم كانوا آنذاك يهتمون بأغلفة المخطوطات وطرق تجليدها . وكان يتم استخدام الكرتون المغلف بالجلد والملون بالأسود أو البنى أو الأصفر أو الأخضر أو الأحمر ، وبعد ذلك تتم زخرفة الجلد بمختلف الزخارف والنقوش الهندسية ورسوم النباتات . ويتم استخدام غطاء ذهبى أو غبار الذهب من أجل تغطية المساحة كلها أو من أجل إبراز الرسم .

وهناك مصاحف تعد آية فى الجمال والروعة والذوق الرفيع وقد لا نجد لها مثيلاً فى دول إسلامية أخرى . ومن أشهر المصاحف الموجودة بالمكتبة هو المصحف المنسوخ فى عام ١٨٤٩م . فى بلدة « كريم » ، وهذه النسخة من المصحف تعد النسخة الرئيسية التى يتم وفقاً لها تصحيح ومراجعة باقى المصاحف المخطوطة ، وهذا المصحف المخطوط مقاس ٣٢ × ٢٠,٥ سم ومجلد بجلدة خضراء قاتمة ومزين بزخارف ذهبية بارزة . ومع الغلاف توجد أوراق خضراء لحماية المصحف وجراب جلدى مشابه للغلاف .

والآيات القرآنية مكتوبة بخط النسخ الكبير على ورق أصفر رقيق جميل ، ويتم فصل السطور عن بعضها بخطين أسودين وبخط ذهبى . وعلى حافة الصفحة يوجد خطان سوداوان رفيعان وتوجد خطوط ذهبية عريضة . ويتم فصل الآيات القرآنية بنقاط ذهبية كبيرة وبزهور ونجوم ، كما تتم كتابة الإرشادات والتوجيهات باللون الأحمر ، والغرض من الزهور المتعددة الألوان ليس زخرفياً فحسب وإنما تتم فى وسطها كتابة بعض العناوين . وكل هذا يشكل تناسقاً فريداً للخطوط والألوان . ومن غير المألوف فى المعالجة الفنية لهذا المخطوط هو استخدام الفنان لمجموعة من الألوان ذات كثافات وتفاوتات مختلفة ومنها الأزرق اللازوردى والأزرق والكوبالتى والأحمر والقرمزى والأصفر البرتقالى والأخضر والبرتقالى والبنفسجى ثم الأبيض والأسود ، ثم استخدام الذهب بوفرة .

وبناء على كل ما تقدم فيمكننا التأكيد بأهمية هذه المكتبة وخطورة الدور الذى تحتله فى مجال دراسات الاستشراق ، وتنبع أهميتها أساساً من كونها معيناً لا ينضب وثروة لا حدود لها لدراسة تاريخ الشعوب اليوغسلافية وشعوب الدول الأخرى التى كانت تحت السيطرة العثمانية ، وكذلك لدراسة الأدب المكتوب باللغات العربية والتركية والفارسية والفنون الشرقية والفنون المعمارية فى هذه المناطق .

ولعلى أكون قد استطعت بهذه المعلومات المبسطة أن أمهد لإلقاء ولو بصيص من الضوء على أهمية هذه المكتبة وعلى الدور العظيم الذى لعبته فى حياة المسلمين بهذه المناطق ، ولعلنى أكون قد أثرت همم الزملاء من الباحثين والمهتمين بهذا المجال لكى يطرقوا سبل البحث المختلفة ويمهدوا سبل التعاون من أجل التعرف على المزيد من مكونات هذه المكتبة الإسلامية .

مدرسة الغازى خسرو بك
أقدم مدرسة إسلامية

هناك عبارة منقوشة على مدخل مدرسة الغازى خسرو بك بسرايفو ترحب بالزائرين والقادمين وتذكّر أولئك الذين مروا عبر هذا المدخل منذ ما يزيد على أربعة قرون ونصف القرن ، بقولها : « شُيد هذا المبنى من أجل أولئك الذين يطلبون العلم ... » .

وفى عام ١٩٨٩ احتفلت هذه المدرسة مع غيرها من المشروعات الخيرية التى بناها الغازى خسرو بك بمرور أربعمائة وخمسين سنة على إنشائها بطريقة فريدة ، لم تحتفل بها أية مدرسة فى العالم . فمع الاحتفال اليوبيلى الذى أقيم داخل المدرسة التى لبست أحلى ثيابها من أجل هذه المناسبة الجليلة فقد تم إعداد معرض يقدم للمشاهدين والمترددين صورة لتاريخ المدرسة وعدم انقطاع أنشطتها خلال كل هذه الحقبة الطويلة . ولن يكون عسيراً على المشاهد أن يعيد قراءة القرون وصفحات تاريخها المديد من خلال مختلف المعروضات من كتابات وأدوات مستخدمة باقية من السنوات الأولى لإنشائها ومن معداتها وكتبها المدرسية وغير ذلك من معروضات أثرية طريفة . وحظى المعرض باهتمام كبير من جانب الزوار الذين توافدوا عليه ، وكذلك باهتمام وسائل الإعلام اليوغسلافية آنذاك .

ويرجع ، دون شك ، تاريخ المدارس الإسلامية وبداية إنشائها بالبوسنة والهرسك إلى العهد الذى كانت فيه هذه المناطق تابعة

للامبراطورية العثمانية . فقد تقبل الأتراك العثمانيون ، باعتبارهم شعباً إسلامياً ، العديد من المكاسب والإنجازات الخاصة بالشعوب الإسلامية الأخرى . ومن بين هذه المكاسب إقامة المساجد والمدارس الإسلامية والكتاتيب . وأخذ الحكام والأمراء يتسابقون إلى إقامتها وإنشائها ، واقتدى بهم فى هذا المضمار كبار رجال الدولة والأثرياء وغيرهم . ومن أجل استمرار هذه المؤسسات ذات الطابع الدينى التعليمى كانوا يوقفون لها تركات كبيرة تسمى بالأوقاف . وأصبحت هذه الأماكن مراكز عامة للثقافة والتعليم فى المجتمع الإسلامى الجديد ، ومشاتل للثقافة والتعليم فى المجتمع الإسلامى الجديد ، ومشاتل للثقافة الإسلامية فى الجزء الغربى من الامبراطورية العثمانية . وكانت هى المدارس الوحيدة فى منطقة البوسنة والهرسك بشكل خاص لأنه لم تكن توجد حينذاك مدارس نظامية علمانية . وتعد المدارس الإسلامية مدارس عليا ذات مستويات متباينة ، وهذا المستوى يرتبط بتصور مؤسسها وبالبرنامج الذى رسمه وحدده ، وبمستوى المدرسين الذين يقومون بالتدريس فيها .

وعن طريق الثقافة الإسلامية أخذ المسلمون الجدد بهذه المناطق يتقبلون أفكار الإدارة العثمانية ، وأصبحوا سنداً قوياً للحكم العثمانى فى هذا الجزء من أوروبا . وفى مرحلة تقدم ونهوض الدولة العثمانية كان مسلمو البوسنة والهرسك يمثلون الطليعة والمقدمة فى غزوات العثمانيين .

وخلال تجواله فى منطقة البوسنة والهرسك فى النصف الثانى من القرن السابع عشر سجل الرحالة التركى المعروف أوليا شلبى عدة معلومات هامة وثمينة عن الكتاتيب والمدارس الإسلامية . وفى وصفه لمدينة سرايفو فى عام ١٦٦٠ ذكر أن بها الكثير من الأساتذة ومفسرى القرآن ، وأقر بأن مدرسة الغازى خسرو بك هى أجمل المدارس وأضخمها آنذاك .

وتشتهر مدرسة الغازى خسرو بك لدى جماهير الشعب العريضة أكثر من أى عمل خيرى آخر من أعماله . ونسبة لاسمه سُميت المدرسة « بالخسروية » بينما أطلق عليها أفراد الشعب اسم « كورشوميلية » نسبة إلى كلمة « كورشوم » التى تعنى الرصاص الذى كان يغطى مبنى المدرسة . ومن ناحية أخرى أقيمت هذه المدرسة احتفاءً بوالدة الغازى خسرو بك ، السلطانة السلجوقية ، ونسبة لها تسمى المدرسة أيضاً بالسلجوقية .

وقد تم الانتهاء من تشييد هذه المدرسة فى عام ٩٤٤ هجرية الموافق ١٥٣٧ - ١٥٣٨ ميلادية ، وذلك بعد الانتهاء من بناء « الخانقاه » والمسجد الذى يقع بالقرب منها . والمدرسة ، من الناحية المعمارية ، مشيدة على نظام المدارس العثمانية التقليدية التى عادة ما تكون مستقلة وتتخذ موقعاً لها بجوار أحد المساجد ولها فناء داخلى محاط من جميع الجهات بحجرات للتلاميذ والأساتذة وحجرة لإلقاء الدروس . وتعد مدرسة الغازى خسرو بك أبرز نموذج لمدرسة بهذا النظام . وهى كذلك أقدم مدرسة تم الحفاظ عليها ، وتعد من الناحية المعمارية أهم مدرسة بين جميع المدارس الإسلامية التى تم تشييدها فى البوسنة والهرسك .

ولم يتم حتى الآن الكشف عن شخصية مشيد هذه المدرسة ، إلا أن نظام المبنى نفسه وطريقة تصميمه تشير إلى أن مشيدها كان مهندساً معمارياً ممتازاً ، خبيراً بمهنته عليماً بحرفته ، فقد سيطر على ناصية المبادئ الجمالية والهندسية لفن المعمار العثمانى . ومن الأرجح أن مهندسها المعمارى كان تركياً بسبب تطبيقه لنظام المدارس العثمانية التقليدية . ومن المحتمل أنه قام بتشييدها تحت تأثير المدارس الإسلامية بالقسطنطينية وعلى الأخص مدرسة عاتق على باشا .

والمدرسة مشيدة فى مواجهة مسجد الغازى خسرو بك فى فناء

يفصلها عن الشارع . وهى مبنية من قطع الأحجار ، ولكنها أصغر فى أبعادها (١٨,٥ × ٢٣,٥ متر) . ويوجد أمام مبنى المدرسة فناء صغير ، وعندما يدخل المرء فناء المدرسة المنفتح نحو زرقة السماء يتملكه إحساس بأنه منفصل عن العالم الخارجى ومتوجه صوب عالم خيالى غير واقعى .

ومن الفناء الخارجى يظهر المنظر الجميل الرائع لواجهة المدرسة التى تتوسطها بوابة ضخمة يتخذ أعلاها شكلاً هرمياً مدرجاً والبوابة مصنوعة بشكل زخرفى وكأنما أريد بها التركيز على أهمية المبنى . وتظهر البوابة من خلال تجويف عميق ينتهى بزخرفة فى شكل سواقط . وتحاط فتحة المدخل بإطار حجرى بسيط وتنتهى بقنطرة دائرية . وفوق الفتحة نقشت الكتابة الزخرفية التى أوردناها . وعلاوة على ذلك فالبوابة محاطة بإطار حجرى يرتفع فوق واجهة المبنى . وهذه البوابة فريدة فى شكلها ولا يوجد مثيل لها إلا فى هذا المسجد .

وتظهر كذلك من الفناء الخارجى مجموعة القباب بأحجامها المختلفة التى تصطف حولها المداخن العالية ذات القمم المدببة ، وهى تمنح هذا المبنى العتيق جمالاً خاصاً وحيوية فريدة ونوعاً من السحر الخيالى المتميز . والقبة الكبيرة لحجرة الدرس تربط كل هذا فى تناسق وانسجام .

ويوجد فى عمق المدخل ممر يؤدى إلى فناء المدرسة الذى يشكل محور المبنى ، وهو محاط برواق مقنطر وسبعة أعمدة . والسماء الزرقاء التى تظهر من خلال القناطر تستحث المرء على التأمل والتفكير إلى ما لا نهاية حيث أن كل هذا الجو المحيط والجمال المتناسق يثير لدى الزائر حالة نفسية خاصة وانطباعاً بجدية المكان .

وتتوسط الفناء نافورة صغيرة تبهج الناظرين ، وهنا يظهر بوضوح تناسق داخلية المكان ويستشعر المرء ألفة غير عادية . وتقع فى المنطقة

المحيطة ، فى شكل دائرى ، اثنتا عشرة حجرة صغيرة مسقفة بالقباب . والحجرات مربعة الشكل ٢,٩ × ٢,٩ متر ، ولها مدخل من الرواق . وتتم إنارة الحجرات عن طريق النوافذ المتجهة صوب الفناء . وكل حجرة لها مدفأة وترتفع مدخنتها عالياً فوق المبنى . ولا توجد أية تفصيلات زائدة بداخل الحجرات وبذلك تثير الإعجاب ببساطتها وتترك انطباعاً بالرحابة بالرغم من عدم اتساعها . وفى مواجهة مدخل المدرسة توجد حجرة الدرس ، ووفقاً لأبعادها الداخلية فهى ليست كبيرة (٦,٥ × ٦,٨ متر) وهى أيضاً مسقفة بقبة كبيرة .

وأجريت إصلاحات بالمدرسة عدة مرات . وكانت أعظم مصيبة بالنسبة لهذا المبنى هى تلك الترميمات التى قام بها فى عام ١٩١٠ أشخاص على غير دراية كاملة بمثل هذه الأمور . فقد تم رفع مستوى أرضية المدرسة وكذلك فتحات النوافذ والأبواب . وعندئذ تم تركيب نوافذ غير مناسبة بالمرة ، أساءت إلى شكل المبنى كله . وظهرت بوضوح آثار الفتحات السابقة التى من الراجح أنها كانت مستطيلة الشكل ، وتم إكمالها بنصف قوس كما هى العادة فى المدارس العثمانية التى جرى تشييدها فى نفس الحقبة .

ولقد انتهت منذ عدة سنوات أعمال الترميم والتجديد التى قامت بها هيئة الحفاظ على آثار مدينة سرايفو . وتم نزع البياض من على الواجهة وتجديد وترميم القباب وإعادة طلائها . وخلال أعمال الترميم تم العثور على المستوى القديم للأرضية التى صنعت من قوالب من القرميد ذات ثمان زوايا . وتم خفض مستوى الأرضية وتجديد النوافذ . وكل هذه الإصلاحات أعادت إلى المبنى شكله الأصلى .

وتعد ذات أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ هذه المدرسة ومكانتها تلك «الوقفية» التى تركها الغازى خسرو بك وصدق عليها لدى المحكمة الشرعية فى السادس والعشرين من رجب عام ٩٤٣ هجرية (الموافق

الثامن من يناير عام ١٥٣٧ ميلادية) . وفيها أوقف لهذا الغرض مجموعة من الأملاك العقارية فى سرايفو وسبعمائة ألف درهم من الفضة من صافى أملاكه ، على أن يتم تأجير العقارات بالطريقة الشرعية ووفقاً للعادات الصحيحة . ويخصص من هذا المبلغ أربعة آلاف درهم من أجل « تشييد مدرسة شريفة رفيعة البنيان جليلة القدر بين الخواص والأعيان ... » على الأرض الواقعة صوب باب المسجد .

وتشتمل الوقفية على تعليمات دقيقة بشأن كل الأمور بدءاً ببرنامج التعليم وبأخلاق المعلمين وانتهاء بالتزامات الطلاب ومستواهم . وتحدد أيضاً المواد التى تنبغى دراستها من علوم التفسير والحديث والأحكام والأصول والمعانى والبيان والكلام ،وتنوه إلى إمكانية إضافة علوم أخرى « وما سايرها حسب ما يقتضيه العرف والمقام » . وهذا يشهد بالرؤية الشاملة الحالمة غير المتحجرة لمؤسس هذه المدرسة . وبذلك أصبحت هذه المؤسسة التعليمية منذ بدايتها منفتحة أمام العلوم الجديدة والمضامين الدنيوية الحديثة .

ومن الجلى أن خسرو بك كان يهدف إلى جعل هذه المدرسة ذات مستوى عال ، وإلى جعلها كوناً صغيراً ومؤسسة علمية تساير روح العصر وتجيب على كل مطالب العلم الإسلامى وهذا هو ما حققته بالفعل عبر الأزمان .

وقد تخرجت فى هذه المدرسة خلال ما يزيد على الأربعة قرون ونصف القرن أجيال عديدة من المتعلمين والقائمين بالفتوى والقضاة والعلماء الأكفاء والمدرسين والأئمة والشعراء وغيرهم . وبعض منهم تجاوزت شهرته حدود البوسنة والهرسك نتيجة لإنجازاته العلمية والثقافية ، وكان منهم شيخ الإسلام وأول رئيس للمسلمين فى يوغسلافيا سابقاً .

واكتسبت هذه المدرسة سمعة طيبة رفيعة بسبب أنشطتها طوال عمرها المديد ، ولأدائها لمهمتها الجليلة أصبحت مشهورة وذائعة الصيت فى جميع أنحاء البوسنة والهرسك . وجرى التدريس بها وفقاً للنظام المنصوص عليه فى الوقفية لعدة سنوات بعد الاحتلال النمساوى المجرى لهذه المنطقة . وحتم النظام الجديد والظروف الناشئة عن هذا الاحتلال حدوث تغيرات فى أسلوب تأهيل رجال الدين .

وكانت هذه المدرسة موجودة فى حالة طيبة إلى ما قبل العدوان الصربى على سرايفو . وكانت هى المدرسة الإسلامية الوحيدة فى تلك المنطقة واستمرت تواصل عملها ونشاطها منذ ما يربو على أربعمائة وأربعة وخمسين عاماً .

مسجد آلادجا فى مدينة فوتشا

منذ منتصف القرن الخامس عشر ، وبالتحديد منذ أربعمائة وواحد وأربعين عاماً ، تنعكس على المياه الصافية لنهر تشيهوتينا صورة لواحد من أجمل آثار الفن الإسلامى فى البوسنة ، وهو مسجد آلادجا بمدينة فوتشا الواقعة فى شرق البوسنة .

وحينما يجرى الحديث عن آثار الفن الإسلامى الموجودة على أرض البوسنة والهرسك فإنها تفرض نفسها بشكل تلقائى الآثار المعمارية الضخمة التى بلغت فى هذا المجال من النشاط البشرى أقصى حد للجمال والروعة . وتشهد بهذا النشاط الهائل مجموعة من المساجد الباقية حتى الآن والأبنية الهامة الأخرى التى جرى تشييدها خلال فترة الحكم العثمانى لهذه المنطقة .

ومن أشهر تصميمات المساجد فى البوسنة المسجد الذى له قبة واحدة وبه ساحة واحدة وله رواق مغطى بثلاث قباب . وقد نما هذا الشكل فى الأناضول وظهر فى البوسنة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

ويتميز فى هذا المضمار مسجد آلادجا فى فوتشا بين العديد من أماكن العبادة المشيدة من الأحجار ووفقاً للتصميم المذكور فى تلك الحقبة . ومن هنا فهو يعد عملاً رائعاً من أعمال العمارة الإسلامية العثمانية التى عاشت عصرها الذهبى خلال القرن السادس عشر فى البوسنة والهرسك . كما أنه يعتبر فخراً للأجيال التالية فى هذه المنطقة ، وقدم للخبراء والمختصين الفرصة لتقييم عمق تغلغل التأثيرات الإسلامية .

وقد شيده حباً فى الله فى عام ٩٧٥ هجرية (١٥٥١ ميلادية) فاعل الخير حسن الناظر بن يوسف فى المكان الذى تتلاقى فيه فى عنف مياه نهر درينا مع مياه نهر تشيهوتينا . ولا يتوفر الكثير من المعلومات المكتوبة عن مؤسس هذا المسجد الرائع . وغير معروف على وجه الدقة إلا أن اسمه حسن بن يوسف وأنه كان فى منتصف القرن الخامس عشر يقوم بوظيفة « ناظر » يشرف على إيرادات الامبراطورية العثمانية فى منطقة سنجق الهرسك الذى كان مركزه يقع فى مدينة فوتشا . ويشهد هذا المسجد الجميل الواقع على الشاطئ الأيمن لنهر تشيهوتينا بأن « النظار » فى ذلك الحين كانوا يتكسبون جيداً . وقد حول حسن اسم وظيفته الرسمية إلى لقب له فقد ظل معروفاً ومدوناً باسم حسن الناظر .

وخلال ما يقرب من الخمسمائة عام حقق مسجد آلادجا فى فوتشا الغرض المشيد من أجله . وظل المسجد فى القرون الخالية شاهداً على استمرار واختفاء امبراطوريات وممالك وانهيار نظم ونشوب حروب . فهو شاهد على تلاشى الامبراطوريتين العثمانية والنمساوية المجرية ، وعلى انهيار المملكة اليوغسلافية القديمة وعلى تشييد يوغسلافيا الاشتراكية ثم انهيار النظام الشيوعى بها ونشوب الحرب الأهلية وغير ذلك من الأحداث .

وخلال كل هذه القرون كان مسجد آلادجا وظل نموذجاً من النماذج الفريدة للحضارة الإسلامية ولتراث المسلمين فى البوسنة والهرسك ، ويؤكد الخبراء أن أعمال الفن التشكيلى الموجودة بالمسجد تماثل وتضارع تلك الأعمال الفنية التشكيلية الموجودة ببعض المساجد الأخرى وربما تفوقها قيمة وروعة .

وقد أبدى الرحالة المعروف أوليا شلبى فى كتاباته ملاحظة بأن المهندس المعمارى الرئيسى رمضان أغا ، باعتباره ممثلا عن المهندس

سينان المهندس الأول للامبراطورية العثمانية ، صمم وشيد هذا المسجد الرائع بحيث لا يمكن أن يكون له مثيل . فالمنبر والمحراب والنوافذ مشيدة على نحو يضفى على الجو العام للمسجد – وفقاً لكلام شلبى – نوعاً من السحر . هذا بالإضافة إلى الحوض الحجرى وصنابير المياه ، وإلى الضريح الحجرى بقبته والضريح المرمرى الخاص بمؤسس المسجد حسن الناظر ، علاوة على وجود مجموعة كبيرة من الشواهد القديمة للقبور .

وهناك قيمتان رئيسيتان تمنحان مكانة خاصة لمسجد آلادجا بين غيره من المساجد والآثار الإسلامية ؛ وهما التصميم المعمارى للمسجد والرسوم الموجودة على جدرانه . ويلزم التنويه إلى أن الزخرفة مخالفة للسنة .

واشتهر المسجد برسوماته الموجودة على الجدران أكثر من شهرته بسبب تصميمه الهندسى المعمارى . وبناء على هذه الرسومات حصل المسجد على اسمه المشهور مسجد آلادجا (أى المسجد المزركش) . وتلاحظ وجود أسلوبين فى الرسم وذلك عند التأمل فى المساحات المرسومة على الجدران والتى تبلغ عشرات الأمتار المربعة ، والأسلوب الأول أخذه الأتراك العثمانيون عن السلاجقة ، والأسلوب الثانى هو الأسلوب الصينى فى الرسم الذى من المرجح أنه وصل إلى العثمانيين عن طريق فارس .

وتتخذ الرسوم الموجودة على الجدران شكل زخارف نباتية وهندسية ثرية ذات قيمة فنية عالية . ومن الحتم التنويه فى هذا المضمار إلى أن مسجد آلادجا قد أصبح نموذجاً لرسومات مشابهة فى مساجد أخرى . وهذه الحقيقة تؤكد القيمة الفنية لهذه الرسومات . وهذه الرسومات لها بوجه عام طابع زخرفى وتستخدم فى المقام الأول لتزيين وزخرفة

المسجد . وعن طريق استخدام الزخارف النباتية ذات الأصل العربى تم بمرور الزمن فى منطقة البوسنة والهرسك إثراء فنى الرسم والمعمار بالعديد من الأشكال الجديدة . وهذه الزخارف الموجودة على جدران مسجد آلادجا هى التى تزيد من قيمته بين غيره من آثار العمارة الإسلامية فى البوسنة .

وتم تنفيذ هذه الزخارف الكثيفة على الجدران وفقاً لتقنية « أليسكو » من حيث دقة الرسومات وثراء الألوان وكذلك تنوع الموتيفات . وكل هذا يؤكد المقولة التى تفيد بأن هذه الزخارف ترجع إلى الفترة التالية مباشرة لتشييد المسجد (أى حوالى عام ١٥٥٠م .) ، وأنها من رسم فنان يرجع أصله فى الأرجح إلى منطقة فارس .

ومسجد آلادجا فى فوتشا (وكذلك مسجد الغازى خسرو بك وعلى باشا فى سرايفو وقراقوز بك فى موستار وفرحات باشا فى بانيالوكا ويوسف باشا فى ماجلاى والحاج على فى بوتشيتيلى وسينان بك فى تشاينيتش) هو نموذج للأسلوب المعمارى العثمانى التقليدى المنبثق عن مدرسة الفنانين النباتيين العثمانيين المشهورين أمثال المهندسين : خير الدين وسينان .

وقد نوهنا إلى عدم وجود الكثير من المعلومات المسجلة عن مؤسس المسجد . وحيث أنه لا توجد معلومات فإنه تتوفر على الفور الأساطير . وإحدى هذه الأساطير تقول أن مؤسس المسجد حسن الناظر أصله من إحدى القرى الوقفية بالقرب من فوتشا . وقد ذهب فى شبابه للعمل بالخارج فى القسطنطينية وهناك أحرز تقدماً كبيراً . وبعد أن كسب مبلغاً كبيراً من المال عاد إلى بلدته فوتشا ، وما أن رأته أمه حتى لفظت أنفاسها من هول المفاجأة . وكان هذا هو الدافع فى أن يبدأ حسن الناظر فى تشييد مسجد . ومن أجل ذلك قام باستدعاء أحسن العمال وأشهر الرسامين وأكبر مهندس .

وقد سجل الكسندر ديروكو فى كتابه « درينا » أسطورة تقول كيف أنه فى أثناء تشييد المسجد وقع حجر أسود أمام المدخل . وقد اعتقدت النسوة فى بركة هذا الحجر وأخذن يتوسلن أمامه طالبات من الله العون والمساعدة . ويقول الكاتب أن الله قد حقق لهن طلبهن ، ذلك أنه فى عهد حسن الناظر سادت الرفاهية وزاد الخير .

إلا أن القيمة الفريدة لهذا الأثر الحضارى لم تكن دافعاً كافياً لأن يتم الحفاظ على مسجد آلادجا وحمايته من الانهيار . وخلال الحقبة الأخيرة استمرت ببطء شديد أعمال الصيانة والتجديد من أجل ترميم المسجد وإعادة الضياء للرسومات الموجودة على الجدران ولكن دون جدوى . وبسبب ما تعرض له المسجد من تدنيس وهجوم اضطرت السلطات فى عام ١٩٩٠ إلى إحاطته كله بالأسلاك الشائكة . واستقبل المسجد ذكرى تشييده منذ ٤٤١ عاماً وهو محاط بهذه الأسلاك .

وبهذه المناسبة تم فى فوتشا تحت رعاية مشيخة الجماعة الإسلامية فى البوسنة والهرسك الاحتفال بهذه الذكرى . وانعقد مؤتمر علمى تحت عنوان « الثقافة الإسلامية فى منطقة فوتشا » ، وقد حضر هذا المؤتمر لفيف من الباحثين والمتخصصين وذلك بالإضافة إلى رئيس الطائفة الإسلامية حاج يعقوب سليموسكى وصالح أفندى تشولاكوفيتش رئيس مشيخة الطائفة الإسلامية بالبوسنة والهرسك .

وتحدث الدكتور أحمد ألتيشيتش عن انتشار الإسلام فى منطقة فوتشا ، ونوه إلى أن انتشار الإسلام تكثف بعد وقوع البوسنة تحت السيطرة العثمانية . وتفيد نظريته أنه لم يتم فرض الدين الإسلامى بالقوة بل تم قبوله طواعية وعن اختيار من جانب السكان الذين كانت أغلبيتهم تدين بالبوجوميلية .

أما الدكتورة خديجة تشار الباحثة بمعهد الاستشراق فى سرايفو فقد

درست ماضى مدينة فوتشا فى وقت أكبر ازدهار لها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وبدأت الثقافة الإسلامية تنمو فى هذه المدينة بعد أن أصبحت مركزاً اقتصادياً وإدارياً هاماً لسنجق الهرسك وأخذت مؤسساتها التعليمية تمنح أكبر الدرجات العلمية آنذاك ، ونشأ حينذاك أيضاً أضخم المبانى .

وأشار الدكتور إنس بيليديا إلى أن هذه المدينة أصبحت مزاراً هاماً ، فقد زارها العديد من الرحالة الأجانب الذين مروا بالمدينة أو زاروها فى مهمات دبلوماسية فى أغلب الأحيان ، ويشتهر من بينهم الرحالة الإيطاليون والفرنسيون والانجليز والأتراك ويعد ما سجلوه من ملاحظات ومعلومات مصادر ذات قيمة كبيرة لإلقاء نظرة على تاريخ البوسنة والهرسك ومدينة فوتشا عبر القرون الماضية .

وفى إطار الاحتفالات بمرور ٤٤١ عاماً على إنشاء مسجد آلادجا تم افتتاح معرضين عن الثقافة الإسلامية . المعرض الأول أعده متحف مدينة فوتشا ، والمعرض الثانى أعده الفنان جمال كرفافاتس . وفى اليوم التالى جرت إزاحة الستار عن تكية النقشبندى التى يزيد عمرها عن خمسمائة عام والتى يجرى ترميمه' وإصلاحها بالتبرعات الخيرية من المسلمين .

الكتـاتيب

ربما تتعجب عزيزى القارىء وتتساءل فى دهشة وإستغراب عن ماهية هذه الكتاتيب وحكايتها . وقد لاتزول دهشتك زوالاً كاملاً حينما أؤكد لك أنها بالفعل كتاتيب حقيقية مثل تلك الكتاتيب التى كانت موجودة إلى عهد قريب للغاية فى الدول الإسلامية والعربية والتى تلقى فيها تعليمه كثير منا وتعلم أول الحروف العربية وأولى آيات القرآن الكريم وغيرها من مبادىء الدين الإسلامى .

ولكن من المؤكد ، أيها القارىء المبجل ، أن دهشتك ستتلاشى بالفعل بعدما تنهى قراءة هذه الدراسة وتعرف كيف ومتى نشأت هذه الكتاتيب والهدف منها وتتعرف على المواد التى كانت تدرس بها وتطلع على التقاليد التى كانت تحكمها وتسير عليها وما شابه ذلك من معلومات كانت إلى عهد قريب مجهولة وواقعة تحت ظلال الكتمان . ولكن بعد أن اقتحمت الديمقراطية أبواب هذه المنطقة وعادت إلى المسلمين فى البوسنة والهرسك هويتهم الإسلامية تكشف الكثير من الحقائق التى كانت ترزح عن عمد واضح تحت ستائر الكتمان والنسيان .

ومن المعلوم أنه بمجرد سيطرة الأتراك العثمانيين فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى على منطقة البوسنة والهرسك ونشرهم الإسلام بين سكانها الذين تقبلوه طواعية وبمحض رغبتهم وكامل إرادتهم – نقلوا إليها بعض عناصر الإنجازات الإسلامية المأخوذة عن المسلمين العرب ، ومنها الكتاتيب والمدارس الإسلامية والمساجد .

وهكذا تواجدت الكتاتيب الأولى فى البوسنة والهرسك فى بدايات القرن الخامس عشر ، وأخذت فى الإنتشار وتزايد عددها بحيث ظهرت فى جميع المدن والقرى تقريباً فى منطقة البوسنة والهرسك . وأصبحت تمثل مراكز عامة للثقافة والتعليم فى المجتمع الإسلامى الجديد ، ومشاتل لغرس ونشر الثقافة الإسلامية فى هذه المناطق الجديدة الواقعة فى الجزء الغربى من الإمبراطورية العثمانية .

وكان يتم تشييد هذه الكتاتيب بجوار المساجد فى أغلب الأحوال . ونظراً لضياع الكثير من الوثائق والمستندات الخاصة بهذه الكتاتيب العديدة فإنه يصعب علينا فى هذا المجال التحدث عن كل كتّاب على حدة ولا يمكننا هنا إلا إبراز السمات والخطوط العامة لها .

وأغلبية الكتاتيب فى البوسنة والهرسك مقامة بفضل المبادرات الشخصية ، وبعض منها مشيد على أنه مؤسسة خيرية بمعرفة أصحاب الأوقاف بحيث يتم الإنفاق عليها من ريعها . وفى أغلب الأحوال كانت الكتاتيب فى حالة مالية جيدة وتلقى إقبالاً طيباً ، ولها أهدافها المحددة المتمثلة فى إكتساب التعليم الدينى الأساسى .

ووفقاً لسماتها العامة فقد كانت هذه الكتاتيب مشيدة تبعاً لنماذج الهندسة المعمارية العثمانية إلا أنها بالرغم من ذلك كانت متأثرة إلى حد كبير بالتقاليد المعمارية المحلية . وكان يقوم بتشييدها عمال البناء المحليون ويستخدمون فى ذلك – فى أغلب الأحوال – الخشب وقوالب الطوب اللبن والحجارة ، بينما كانت الألواح الحجرية تستخدم لإعداد السقف وتتراوح أحجام حجرات الدراسة من ٣×٤ إلى ٧,٥×١٢ متر ، وارتفاعها ما بين ٢,١ إلى ٢,٦ متر .

وتتسم الكتاتيب فى البوسنة والهرسك عامة ببساطتها وتواضعها الشديد وصغر مساحتها وخلوها من الزخارف والنقوش الإسلامية

الجميلة . ويتميز من بينها بشكل خاص كتّاب الغازى خسرو بك بمدينة سرايفو ، والكتّاب الموجود عند مسجد ألطون عالم فى مدينة نوفى بازار .

ولنفس الأسباب المذكورة آنفاً يصعب تحديد عدد الكتاتيب فى البوسنة والهرسك . وتذكر المصادر الرسمية أنه فى عام ١٨٧٠ كان يوجد بمنطقة البوسنة والهرسك ٨٥٠ كتّاباً ينتظم فى الدراسة بها ٣٩٤٧٢ تلميذاً وتلميذة (بالتحديد ٢٨٦٠٨ تلميذاً و ١٠٨٦٤ تلميذة) ، وهو رقم ليس صغيراً بأى حال من الأحوال . وفى عام ١٨٧٦ بلغ عدد الكتاتيب ٩١٧ كتّاباً يتلقى التعليم بها ٤٠٧٧٩ تلميذاً وتلميذة . وأياً كانت التحفظات على هذه الأرقام فالأمر المؤكد تماماً أن الكتاتيب كانت هى أكثر المدارس عدداً فى منطقة البوسنة والهرسك .

وكان الشيخ أو المعلم هو الشخصية الرئيسية فى الكتّاب وهو القائم بكل النشاط التعليمى به ، وهو المحور الذى يتحرك حوله عالم الأولاد . ويتباين وضع الشيوخ فى أغلبية الكتاتيب . وكان معظمهم يحصل على راتب ضئيل غير ثابت فى أغلب الأحيان . ويستثنى من ذلك أولئك الشيوخ الذين يتمكنون من الحصول على توصية من صاحب الوقف . ويحصل الشيخ على راتبه فى شكل عينى مثل القمح والدقيق والتين وغير ذلك .

وفى الحقيقة لم يكن هذا يعد راتباً وإنما هدية . وذلك لأنه يسود إعتقاد لدى المسلمين فى البوسنة والهرسك بأنه لا ينبغى أن تدفع نقود للشيخ وكأنه عامل أجير بل ينبغى منحه هدية لأنه يزود التلاميذ بالعلم النافع وطلب العلم النافع وطلب العلم فريضة على كل مسلم . وفيما بعد كان يتم منح الهدية نقداً ، ولكن نادراً ما كان يحدث ذلك فى القرى .

وهكذا فإن الوضع المالى للشيخ كان مرتبطاً بأولياء أمور التلاميذ الذين كانوا يقدمون له الصغير والكبير من المنح والهدايا . وكان التلاميذ

أيضاً يقدمون الهدايا للشيخ وعلى الأخص الأغنياء منهم ولذلك كانوا يلقون رعاية خاصة من جانب الشيخ . ولاشك أن هذا كان له تأثير في تفوقهم في التعليم .

وفي القرى التي تخلو من الكتاتيب كان يتم سد هذا الفراغ في التعليم الديني للسكان المسلمين عن طريق الشيوخ الوافدين أو الزائرين . وكانوا يأتون على الأخص خلال شهر رمضان المبارك ويعلمون سكان هذه القرى مبادئ الدين الإسلامي وقواعد العبادات ، وكان معظم هؤلاء الشيوخ الوافدين من طلاب المدارس الإسلامية يقضون أجازة رمضان فيما ينفعهم وينفع دينهم .

وكان هناك أيضاً شيوخ وافدون يذهبون إلى القرى في الشتاء ويجمعون حولهم الكبار والصغار والنساء ويعلمونهم في أحد المنازل بالقرية . ويحضر كذلك إلى هذا الكتّاب الشباب من القرى المجاورة حرصاً على طلب العلم . وبعد إنهاء مهمته يذهب الشيخ المعلم إلى قرية أخرى وهكذا دواليك .

وأحياناً كان يذهب سكان القرية الثرية بأنفسهم إلى المدينة التي توجد بها مدرسة إسلامية وذلك لانتقاء الشيخ الذي يعود معهم إلى قريتهم ويقيم كتاباً وربما يستقر هذا الشيخ ويبقى هنا إلى الأبد وخاصة إذا أظهر نجاحاً متميزاً وأصبح محل ثقة وتقدير سكان القرية .

وكانت توجد في الكتاتيب الموجودة بالمدن وبالقرى كتب مدرسية يتم التعلم منها ، ولكن في أماكن أخرى كان يتم التعليم بدون أية كتب وبطريقة الحفظ . أما مواد الدراسة فترتبط باستعداد وكفاءة التلاميذ والشيخ المعلم أيضاً . وفي بعض كتاتيب سرايفو كان يتم تعلم قراءة القرآن وتجويده والمبادئ الأساسية للعبادات والعقائد وعلم الأخلاق والفقه والسنة واللغة العربية ونحوها . وبعض كتب هذه المواد كان مطبوعاً باللغة التركية

والبعض الآخر باللغة العربية . وفى نهاية الحكم العثمانى طبعت بعض الكتب باللغة البوسنوية الشعبية .

وكانت هناك بالبوسنة والهرسك كتاتيب للبنين وأخرى للبنات وثالثة مشتركة . وكانت الفتيات تتعلمن علوم الدين فى الكتاتيب أمام الشيخة أو المعلمة . وبالنسبة للوضع المالى فقد كان يسرى عليهن ما يسرى على الشيوخ .

وإذا نظر البعض إلى الكتاتيب بالبوسنة والهرسك من وجهة نظر العصر الحديث فقد يجد فيها بعض العيوب ، إلا أن هذه العيوب لم تكن ملحوظة فى ذلك الحين . ويكفى القول بأن هذه الكتاتيب كانت هى المؤسسات التعليمية الوحيدة للتعليم الأولى إلى وقت وقوع الاحتلال النمساوى المجرى لمنطقة البوسنة والهرسك . وكانت الكتاتيب برغم نقائصها التى تم اكتشافها حديثاً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعائلات المسلمين ، وكانت تلقى اهتماماً كبيراً من جانب الجميع وتشهد بذلك العادات والمأثورات الشعبية المرتبطة بها وبنظام التعليم فيها .

وهكذا نجد فى القصائد الشعبية للمسلمين بالبوسنة والهرسك أن المرأة المسلمة تتغنى بالكتاتيب . فهى تمنى ابنها بأنها سترسله إلى الكتّاب حينما يكبر ، وهى تعرب عن رغبتها فى أن يتزود ابنها بالعلم فى الكتّاب وبذلك يمكنه أن يصبح وزيراً من الوزراء .

وكان يتم ارسال الأولاد إلى الكتاتيب فى أوائل الخريف حينما يبلغون السادسة من عمرهم وحتى الثامنة . وفى اليوم السابق لذهاب الغلام إلى الكتّاب تهتم الأم باستحمامه ، وفى يوم ذهابه تلبسه أجمل الملابس . وإذا كان الغلام من سكان المدينة فإن الأم تشترى له الكتب والحقيبة التى سيحمل فيها الكتب إلى الكتّاب . ومن أجل عدم الحسد كان بعض الأمهات

يحيك على قبعة الأبناء ، أو فيما بعد على طرابيشهم عملة ذهبية أو فضية منقوش عليها « ما شاء الله » .

وكانت الأم تبارك الغلام والأب يقوده إلى الكتّاب وهو ينصحه بأن يقبل عند دخوله اليد اليمنى للشيخ ويضع فيها الهدية . ويرحب الشيخ بالغلام ويجلسه على المقعد ، إذا كانت هناك مقاعد ، أو فى المكان المخصص له على الأرض . وغالباً ما يجلس فى الصفوف الأولى الغلمان الذين يتلقون التعليم الأولى ، أما أولئك الذين يعرفون قراءة القرآن فقد كانوا يجلسون وراءهم .

ولم يكن الغلمان يحملون كتبهم إلى الكتاب فى يوم الخميس وذلك لأن هذا اليوم مخصص لإعادة وتكرار ما تم حفظه خلال الأسبوع .

ومن أهم العادات الشعبية ما يرتبط منها بختم القرآن فى الكتّاب . وحينما يختم الغلام القرآن يتم عقد احتفال لتلاوة دعاء ختم القرآن . والاحتفال بختم القرآن يعد من أجمل احتفالات المسلمين وأشدها بهجة . وهى حفلة حقيقية يتم الاستعداد لها بشكل خاص فى بعض المناطق ، وفى مناطق أخرى تكون حفلة متواضعة .

وفى منطقة البوسنة إذا ختم أحد الصبيان القرآن يقوم والده بدعوة الأقارب والجيران والأصدقاء من رجال ونساء لحضور الاحتفال الذى يقام فى أغلب الأحوال فى منزل الغلام ويُتلى فيه دعاء ختم القرآن .

وأولاً يغتسل الصبى ويتوضأ ويرتدى أبهى ملابسه ويأخذ المصحف الشريف ويذهب مبكراً إلى الكتّاب حيث يتجمع الناس أمامه . ويقوم الشيخ بإخراج التلاميذ من الكتّاب ويجعلهم يصطفون ويتصدرهم الغلام الذى سيختم القرآن . وأمامه يقف غلامان من مساعدى الشيخ أو من أكبر الغلمان سناً ويرفعان « الراحلة » (وهى مسند صغير قابل للطى يوضع عليه المصحف الشريف عند التلاوة) المزينة بالمناديل المطرزة وعليها

القرآن ، وهكذا يحملانها طوال الوقت . ويسير أربعة من حافظى القرآن أو من مساعدى الشيخ وهم يحملون المناشف والقمصان والمناديل المطرزة وغيرها من الهدايا التى حصلوا عليها من والدة الغلام وأقربائه . وينشد التلاميذ التواشيح الدينية والقصائد فى تناسق ووراءهم يسير الشيخ المعلم .

ويتحرك الموكب من الكتاب ويتجول فى الشوارع وعبر السوق ، وفى بعض المدن والقرى يزور المقابر حيث تتم قراءة الفاتحة ، إلى أن يصل إلى منزل الغلام . ويتم وضع « الراحلة » فى رأس الحجرة المكتظة بالضيوف ويبقى التلاميذ أمام المنزل . وتبدأ مراسم الاحتفال بقراءة جزء من القرآن بمعرفة الغلام الذى ختم القرآن ، ثم يقرأ بعض السور الحفاظ أو مساعدو الشيخ . وبعد ذلك يتلو الشيخ دعاء ختم القرآن والناس والغلمان يأمنون على دعائه . وفى النهاية يتم توزيع الحلوى على الغلمان وتركهم يذهبون إلى منازلهم .

ويقوم الغلام الذى ختم القرآن بتقبيل يد شيخه ثم يد أبيه والمسنين من عائلته . وبعدئذ يذهب إلى حجرة السيدات ويقبل يد أمه ثم يد كبار السيدات . وغالباً ما يحصل الغلام على هدايا من الجميع . وينصرف المدعوون بعد تناول طعام الغداء أو العشاء .

إلا أنه بالرغم من كل هذا فلم تصمد الكتاتيب كثيراً ولم تقاوم طويلاً فى معركة البقاء المصيرية فأخذت تختفى تدريجياً إلى أن إندثرت تماماً بعد أن أدت بالطبع مهمتها على أكمل وجه فى حينها وزمانها . وأكبر شهادة على نجاحها هى أنها خرجت لنا أجيالاً من العلماء والأدباء المسلمين النشطين الذين ألفوا باللغة العربية كتباً فى مختلف الموضوعات والمجالات الإسلامية والعربية والأدبية .

والعزاء الوحيد عن هذه الكتاتيب المندثرة أنه يحل محلها فى الوقت

الحالى نوع من التعليم الدينى غير الرسمى ينظمه بعض أفراد الطائفة الإسلامية بالبوسنة والهرسك بمنازلهم . وينصب هذا التعليم أساساً على تعريف الصغار والشباب بمبادئ دينهم الإسلامى الحنيف وتعليمهم اللغة العربية . وفى المرحلة الشيوعية السابقة وقبل استقلال البوسنة والهرسك كان هذا النوع من التعليم الدينى يلاقى هجوماً وانتقاداً من جانب الأجهزة السياسية الشيوعية ، إلا أن المسلمين كانوا يمضون فى سبيلهم ولا يعبأون بأية عقبات أو عوائق توضع لهم فى طريقهم عن عمد مادامت أهدافهم نبيلة وغاياتهم سامية وتتمشى مع روح القوانين ونصوصها .

ويجرى فى الوقت الحالى حديث عن إدخال التعليم الدينى بشكل رسمى في المدارس الإبتدائية والثانوية . هذا بالإضافة إلى جو الحرية والتحرر الذى أخذ يسود المؤسسات التعليمية الإسلامية وزوال الضغوط والرقابة عنها .

يوم فى حياة إمام مسجد

كثر الحديث فى فترة من الفترات عن أئمة المسلمين فى البوسنة والهرسك وعن أحوالهم ومشاكلهم ومطالبهم ، وتعرضت لذلك مختلف المحاضرات والندوات والكتابات بالصحف والمجلات ، إلا أننا إذا ألقينا نظرة متأنية على مضمون هذه الكتابات فسرعان ما نتبين أنه يسود ، على نحو ما ، التباس حول مفهوم مهنة الإمام فى البوسنة والهرسك . ومن هنا رأينا أنه من الأفضل أن نتعرض لبحث هذا الموضوع بشكل موضوعى بهدف إلقاء مزيد من الأضواء على هذه الفئة من الدعاة إلى الإسلام .

والحقيقة أن المتتبع للحياة الإسلامية فى البوسنة والهرسك يمكنه أن يتبين وجود ثلاث فئات من الأئمة . وتشمل الفئة الأولى أولئك الأئمة الذين يفنون أنفسهم فى العمل بحيث يغفلون عن حياتهم العائلية بل ويضحون بها فى بعض الأحيان فى سبيل نشر تعاليم الدين الإسلامى الصحيحة وسط أفراد جماعاتهم . وبالنسبة لهذه الفئة من الأئمة لا يوجد لديهم وقت محدد للعمل لأنهم وهبوا جل وقتهم لعلمهم . فإذا لم يكونوا يعلمون الصغار فى الكتاتيب فهم يقومون بتوزيع المطبوعات الإسلامية أو يتحدثون مع أفراد الجماعة أو يقرؤون ويبحثون ويكتسبون المعارف الجديدة وما إلى ذلك من أمور .

وتضم الفئة الثانية الأئمة الذين يؤدون ما عليهم من واجبات تجاه عملهم وكأنه حرفة من الحرف . فهم مثاليون فى عملهم ويؤدونه وفقاً للوائح المشيخة الإسلامية ويجتهدون فى عدم توجيه أى لوم لهم . ولكن حينما يبتعدون عن مكان عملهم تختلف شخصيتهم تماماً ولا يمكن التعرف

عليهم بحيث يحصل المرء على انطباع بأنهم يمارسون هذا العمل لتأدية الواجب ليس إلا .

والفئة الثالثة هم الذين يتقاعسون عن العمل وبذلك يجلبون الضرر لأنفسهم ولأفراد جماعتهم . وهذه الفئة ضئيلة جداً .

وإذا أردت أن ترى نموذجاً مشرفاً من أئمة الفئة الأولى –وهم كثير والحمد لله– فتعال معى إلى قرية « بوسانسكى نوفى » التى تقع بمنطقة البوسنة والهرسك . وهى قرية صغيرة تقع على مصب نهر «سانا» فى نهر «أونا» ويبلغ عدد سكانها حوالى خمسة عشر ألفاً من السكان الذين يمثلون قوميات وديانات مختلفة . ويشكل المسلمون فى هذه القرية أكثر من نصف عدد سكانها . ومن الطريف أنه لا يعرف أحد بهذه القرية عدد المسلمين بالضبط . طبعاً هناك تقديرات متباينة بل ومتضاربة ، ولكن الجميع يفضلون عدم إثارة هذا الموضوع وعدم التطرق إليه .

ويوجد بهذه المنطقة تسعة أئمة ، ثلاثة منهم فى هذه القرية ، والباقون منتشرون فى القرى الأخرى . وأحد هؤلاء الأئمة الثلاث هو « محرم شتولانوفيتش » الذى يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين ربيعاً وهو شاب تبدو عليه ملامح النساك ويتحدث بصوت خافت خاشع .

والإمام محرم أنهى تعليمه بمدرسة الغازى خسرو بك ، وهى من أقدم المدارس الإسلامية بالبوسنة . ثم واصل دراسته بكلية العلوم الإسلامية بسرايفو ، ثم بجامعة سعود الإسلامية بالرياض بالسعودية حيث أمضى بها ما يزيد على ست سنوات ، وقضى منها سنتين فى دراسة اللغة العربية ، وقضى باقى المدة فى دراسة علوم الدين الإسلامى .

وعلاوة على إجادة اللغة العربية فهو يتحدث أيضاً اللغة الانجليزية ويمارس الرياضة . كما أنه تعلم فى السعودية لعبة الكاراتيه ويعتز بأنه حصل على شهادة تقدير فى هذه اللعبة باللغة العربية .

والإمام مشغول طوال اليوم ، فهو يؤم المصلين فى الصلوات الخمس ، ويلقى دروس تعليم مبادئ الدين الإسلامى وتعاليمه ، ودروس الوعظ وخطبة يوم الجمعة ، ودروس مبادئ اللغة العربية للصغار ، وهى تنعقد فى يومى السبت والأحد من التاسعة وحتى الحادية عشرة صباحاً . وينتظم بهذه الدروس من ثلاثين إلى أربعين غلاماً وفتاة من القرية ، وتتراوح أعمارهم ما بين سبع إلى إحدى عشرة سنة . وعدد الفتيات أكبر من عدد الصبيان . والدراسة شرعية تماماً وتمضى وفقاً لقوانين ولوائح الجماعة الإسلامية .

ويدخل الصغار مكان الدرس ولابد من إلقاء تحية الإسلام ، ومعظمهم يفضلون إلقاء التحية باللغة العربية من أجل إتقانها . ومع كل تلميذ توجد مجموعة من الكتب المدرسية الإسلامية لتعليم القرآن وتعليم الصلاة وقصائد المدح النبوى الشريف وغيرها من الكتب اللازمة .

وبالفصل مجموعتان من التلاميذ ، مجموعة المبتدئين ومجموعة المتقدمين . ويدرس الإمام للمجموعتين فى آن واحد ، فبينما يعلم المبتدئين درساً جديداً يستمع الآخرون أو يعيدون مذاكرة المادة الخاصة بهم .

وعلاوة على ذلك فالإمام محرم يؤم صلاة يوم الجمعة وصلاة الجنازة وغيرها من الصلوات ، ويلقى كذلك بعض المحاضرات والدروس الدينية على الكبار . ويعقد حلقات الدرس والندوات الدينية فى المساء سواء فى المساجد أو فى منازل المسلمين . ويقوم أيضاً بإنشاد قصائد المدح النبوى فى المناسبات المختلفة . هذا بالإضافة إلى قيامه بعقد القران وفقاً للشرعية الإسلامية . ويقوم كذلك بغسل الميت ودفنه ، وتلاوة آيات القرآن الكريم على روحه ومن الطبيعى أن كل هذا يزيد من أهمية عمل إمام المسجد بل وخطورته ويحمله الكثير من المسئوليات والتبعات .

ويحصل الإمام على راتبه من مجلس الجماعة الإسلامية بالبلدة التى يعمل بها . ويرتبط مقدار هذا الراتب بقدراته ومؤهلاته وسنوات خدمته وبعدد أفراد جماعته وما إلى ذلك من أمور . كما يدفع المجلس للإمام قيمة المعاش والتأمين الاجتماعى . ويتم الاتفاق على الراتب مع مجلس الجماعة الإسلامية فى بداية كل تجديد للعقد ، وعادة ما يتم ذلك بالتراضى .

وقد منحت الجماعة الإسلامية بقرية « بوسانسكى نوفى » الإمام محرم مسكناً جديداً يتألف من ثلاث غرف . ويقطن فيه مع أسرته المكونة من زوجته وابنيه الصغيرين محمد ومجاهد . وزوجته لا تعمل وتتفرغ لرعاية الابنين ولمساعدته فى عمله . وقد أنهت المدرسة الثانوية وترتدى الملابس المحجبة وتعتذر عن مصافحة الغرباء لأن الشريعة الإسلامية تحرم مصافحة الأجانب .

وينوه الإمام محرم إلى أن أفراد الجماعة يتمثلون بالإمام فى حياته العائلية ولذا لابد أن تكون زوجة الإمام وأولاده قدوة حسنة فى تصرفاتهم وأحوالهم ، وأن تكون الزوجة –على وجه الخصوص– دعاية طيبة للحياة الإسلامية والأخلاق السامية وعوناً له فى عمله ، وعلى الإمام أن يبدأ بنفسه وبأسرته أولاً ثم بأفراد جماعته متمثلاً فى ذلك بمبادئ الرسول عليه الصلاة والسلام .

ويدرك الإمام محرم – تمام الإدراك – أن عليه أن يداوم دراسة سيرة الرسول الكريم والاقتداء به . وينبغى عليه أن يبين لأفراد جماعته بكل تصرف من تصرفاته الأسلوب الذى ينبغى العيش به عيشة إسلامية سوية ، وذلك لأن وعظه الذى يلقيه عليهم لن يثمر أية ثمرة إذا كان أسلوب حياته ومسلكه مناقضاً لكلامه . وهو فى هذا المضمار يتذكر القول المأثور القائل : « حال رجل لألف رجل أنفع من وعظ ألف رجل لرجل » .

وحيث أن لكل زمان أساليبه فإن الإمام محرم يعمل -قدر استطاعته- ليل نهار من أجل إيجاد أساليب عصرية للدعوة الإسلامية ومضامين فعالة لعمله حتى يؤثر تأثيراً إيجابياً على أفراد جماعته ، وهو يؤمن بأنه ينبغى عليه أن يرشدهم بالحكمة والموعظة الحسنة مع مراعاة الاختلاف فى الطباع والمشارب والأمزجة والثقافة .

وأوضح الإمام محرم أن الأئمة فى البوسنة والهرسك هم حملة مشاعل الدعوة الإسلامية بها وهم دعامتها الأساسية . وبالفعل ، فالأئمة هم الذين يهتمون بتطور ومستقبل الجماعة الإسلامية فى هذه المنطقة ، وترتبط حياتها وهيئاتها ومؤسساتها بوعيهم وحماسهم وأنشطتهم وتعاونهم المشترك وبتعليمهم وثقافتهم وغير ذلك من الأمور .

وكل هذا يحتم على الإمام أن يجتهد فى الاستفادة من وقت فراغه -إن وجد- فى البحث عن معارف جديدة من فقه الدنيا والدين . ولابد أن تكون لديه دراسة شاملة لعلل الجماعة وطرق علاجها وإلمام واسع بشتى المعارف . وهو يفعل ذلك من أجل نفسه وأسرته وجماعته وسعادته فى هذه الحياة الدنيا وفى الآخرة ومن أجل الأمل فى سلوك أفضل . ومن ناحية أخرى فإن ثراء التقاليد العلمية الإسلامية والتراث الذى خلفه كبار العلماء المسلمين يلزم الإمام إلزاماً خلقيا ويطالبه عملياً بأن يكون تجسيداً للعلم وللنضج من خلال العمل الذى يؤديه .

ويوجد فى قرية « بوسانسكى نوفى » ثلاثة مساجد : مسجد المدينة ومسجد أوريا ومسجد فيدوريا . والأخير هو أقدمها عمراً ولا توجد معلومات مؤكدة عن سنة بنائه . ولكن كبار السن من المسلمين يؤكدون أن عمره قد تجاوز القرن . ويرتفع الشارع الذى يفصل هذا المسجد عن شاطئ نهر أونا ارتفاعاً كبيراً بحيث أنه يتم الصعود إلى المسجد والدخول إليه عن طريق درجات . وتوجد خلف المسجد مقابر قديمة لسكان القرية .

وتتلألأ المصابيح والثريات داخل المسجد ، وتتزين الجدران السميكة العالية بلوحات من آيات القرآن الكريم مما يعطى انطباعاً بالرهبة والخشوع (مع أنه من المعلوم أن زخرفة المساجد ولو بآيات من القرآن مخالف للسنة) وللمسجد مئذنة وشرفة تم تجديدهما مؤخراً . والمئذنة مصنوعة من الخشب ، وفى العام الماضى تمت كسوتها بطبقة خاصة من الألومنيوم الذى لا يفقد لمعته وذلك من أجل حمايتها ، ولذا فإنها تسطع من بعيد تحت أشعة الشمس الذهبية . والجدران الخارجية للمسجد مطلية باللون الأخضر وهذا هو لونها الأصلى .

ومسجد « فيدوريا » لا يوجد به مؤذن خاص وإنما يقوم الإمام محرم بهذه المهمة . ومنذ سنوات لا يسمع صوت الأذان من على شرفة المئذنة وإنما يؤدى الإمام الأذان من داخل المسجد عن طريق الميكروفون . وتنقل السماعات الموضوعة بالشرفة الدعوة إلى الصلاة إلى الأماكن البعيدة : الله أكبر .. الله أكبر ..

ويستجيب المصلون للحضور فرادى وجماعات ، وهم فى الغالب من كبار السن ومتوسطى الأعمار ، ولكن يوجد أيضاً عدد من الفتيان والفتيات . ويصطف الجميع وراء الإمام محرم : الرجال فى الصفوف الأولى والنساء فى الصفوف الأخيرة .

وأرض المسجد مغطاة بالسجاجيد التى أهداها المسلمون للمسجد ، وهى عادة ما تكون فخمة وغالية . ويوجد منها بالمسجد عدد كبير بحيث أن بعض الأماكن مغطاة بثلاث قطع منها .

ويبدى الإمام محرم ملاحظة بأنه تم فى الآونة الأخيرة تشييد عدد لا بأس به من المساجد الجديدة وإجراء تجديدات شاملة فى عدد من المساجد الأخرى . ويعود هذا ، أولاً وقبل كل شيء ، إلى سخاء المسلمين فى هذه المنطقة وإلى رغبتهم فى أن تكون لديهم مساجد جميلة ذات تصميم

حديث ومجهزة بأفضل التجهيزات وقد تلاحظ أن المسلمين بالقرى والمدن يتنافسون فى تشييد المساجد وتجديدها .

وينصح الإمام محرم نفسه وزملاءه قائلاً لهم بأنهم لابد وأن يدركوا بأن عمل الإمام ليس يسيراً كما يتوقعون وإنما هو أكثر مشقة مما يتوقعون ، ولكنه عمل هام وحيوى . وإذا أدخل الله حب هذه المهنة فى قلب الإمام فإنها ستصبح سهلة على نفسه حبيبة إلى قلبه ولن يرضى عنها بديلاً . وهو ينصحهم بأن يعيشوا من أجل الإسلام لا أن يتعيشوا ويتكسبوا من الإسلام ، وبذلك سيكونون بإذن الله راضين فى الدنيا والآخرة . ولو أنهم استحوذوا على شباب المسلمين ووجهوهم إلى الخير وحببوه لهم لأدوا رسالة المسجد على خير رجه .

الداعية الإسلامى أحمد سمايلوفيتش

من الحتم علينا كلما تذكرنا الدكتور أحمد سمايلوفيتش الرئيس السابق للمشيخة الإسلامية بالاتحاد اليوغسلافى سابقاً وأستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية بكلية الدراسات الإسلامية بسرايفو أن نسرع بالترحم عليه وبإسداء الشكر له على ما صنعه وأنجزه خلال حياته للمسلمين وللإسلام فى جمهورية البوسنة والهرسك . ويفعل ذلك على الدوام أهل البلدة الذين لمسوا على الطبيعة وأحسوا فى الواقع بنشاطه وإنجازاته . ومن أجل هذا بالذات تيقنوا وأدركوا ، أكثر من غيرهم ، فداحة الخسارة وعظم الخطب والمصاب الذى حل بهم نتيجة لرحيل مفكرهم ومعلمهم وأستاذهم وواعظهم ومرشدهم وهاديهم إلى الإسلام الدكتور أحمد سمايلوفيتش العالم والداعية الإسلامى الكبير .

ويقينى أن أفضل رثاء للدكتور أحمد سمايلوفيتش - رحمه الله وأسكنه فسيح جناته - وأحسن عزاء نوجهه لأهل بلده من المسلمين أن نعدد مناقبه وفضائله ونبرز فكره ونوضح أنشطته وإنجازاته ، وأن نشير إلى كتاباته وترجماته ؛ إذ أن كل هذه الإنجازات تتدثر بدثار الخلد وتجعل هذا الداعية يتخذ موقعه الصحيح على صفحات التاريخ .

واعتقادى كذلك أن تسليط الأضواء على نشاط الدكتور أحمد سمايلوفيتش وعلى أعماله ومؤلفاته هو فى الوقت ذاته تسليط للأضواء على جانب ليس بالضئيل من نشاط المسلمين ومن جهودهم فى نشر الدعوة الإسلامية بهذه المنطقة .

وأنه لمن العسير حقاً أن نخص مجالاً واحداً بعينه تميز فيه نشاط

وجهد هذا الداعية الإسلامى ، وذلك لأنه كان نشيطاً فى كل المجالات المتاحة أمامه وباذلاً للجهد والعطاء فى جميع الميادين والمناسبات . ولا يمكن لأى جاحد أن ينكر أن هذه المزايا والفضائل كانت هى الأساس عند اختياره رئيساً للمشيخة الإسلامية ، هذا علاوة على أنه كان المفكر الرائد للمسلمين بهذه المناطق ويتمتع بسمعة طيبة داخلها وخارجها .

وأحمد سمايلوفيتش مولود فى عام ١٩٣٨ بقرية « توكولياتسا » بجمهورية البوسنة والهرسك ، وكان والده يعمل إماماً ومأذوناً شرعياً . وبعد إنهائه للمدرسة الابتدائية فى قرية مجاورة التحق بمدرسة « الغازى خسرو بك » فى سرايفو فى عام ١٩٥٠ وأنهى دراسته بها فى عام ١٩٥٨ . وكان واحداً من أفضل تلاميذها ، وفى السنوات الأخيرة من دراسته بالمدرسة كان يقوم خلال الأجازات الصيفية بمهام الإمامة والخطابة فى أحد مساجد القرية .

وتنفيذاً لسياسة الرئيس الأعلى للطائفة آنذاك بشأن تدعيم المشيخة الإسلامية بالشباب الذين تلقوا تعليماً عالياً فقد التحق أحمد سمايلو فيتش فى عام ١٩٦٢ بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر . وأنهى دراسته فى الوقت المحدد والتحق على الفور بالدراسات العليا وحصل على الماجستير فى ١٩٧٠ وعلى شهادة الدكتوراه فى عام ١٩٧٤ .

والتحق فى عام ١٩٧٥ بالعمل فى المشيخة الإسلامية ، أولاً كمدير لمكتب رئيس العلماء ثم كرئيس لمشيخة الجماعة الإسلامية وظل بهذا المنصب عشر سنوات . وفى الآونة نفسها تم اختياره للعمل كأستاذ لمادتى العقيدة والفلسفة الإسلامية بكلية الدراسات الإسلامية بسرايفو وظل يمارس هذا العمل إلى أن اختطفه الموت ، غير أن فكره وإنجازاته لم تمت بل خلدت اسمه بعد رحيله .

ويرتبط اسم الدكتور أحمد سمايلو فيتش بالعديد من الأنشطة التى

قامت بها الجماعة الإسلامية ومازالت تقوم بها حتى الآن ولا يمكن تصور وجودها بدونها . ويرجع هذا الارتباط إما لأنه صاحب المبادرة فى القيام بهذه الأنشطة وإما لأنه عمل على تطويرها وتحديثها وقدم لها الحوافز المناسبة لكى تكتسب الجماهيرية وتعطى ثمارها الطيبة . ولذا فإنه من قبيل الظلم والإجحاف إغفال الدور التاريخى للدكتور أحمد فى تطوير الحياة الإسلامية بالاتحاد اليوغسلافى السابق خاصة وأنه ترك بها آثاراً لا تنمحى من نتاج عمله وثمار نشاطه .

ويرجع إليه الفضل فى العمل على تنفيذ العديد من المشروعات العظيمة فى الاتحاد اليوغسلافى السابق . فقد تم إصلاح وترميم وتجديد العديد من المساجد القديمة وتشييد الجديد منها . وتم افتتاح كلية الدراسات الإسلامية بسرايفو فى عام ١٩٧٧ ، وإنشاء المدرسة الإسلامية للبنات « الغازى خسرو بك » فى عام ١٩٧٨ ، وتجديد المدرسة الإسلامية بسرايفو والانتهاء من إنشاء جامع « زغرب » ومسجد « لوبليانا » ومبنى الجماعة الإسلامية فى مدينتى بولاوسبليت ، وإقامة فصول دراسية مجهزة بأحدث التجهيزات والمعدات من أجل تعليم وتدريس الدين الإسلامى .

وعلى الصعيد الدولى ساهم الدكتور سمايلوفيتش ، باعتباره رئيساً للمشيخة الإسلامية أو بصفته ممثلاً للجماعة الإسلامية أو على أساس كونه عضواً منتظماً فى العديد من المنظمات الدولية الإسلامية ، مساهمة كبيرة فى مختلف الاجتماعات والمؤتمرات والندوات والملتقيات . وكان ينتهز هذه المناسبات لكى ينقل ويرفع صوت الجماعة الإسلامية . وتمكن فى أكثر من مرة ومجال من الحصول على حق التحدث فى أماكن لم يكن من السهل فيها – على الدوام – الحصول على هذا الحق .

وغالباً ما كان يلقى محاضراته باللغتين العربية والإنجليزية فى هذه

المؤتمرات والاجتماعات ، ولا يتحدث إلا بناء على طلب جمهور المتحدثين أو وفقاً لرغبة جماهير المسلمين . ومن المعلوم أن الدكتور سمايلوفيتش يتحدث اللغة العربية بطلاقة وسلاسة بحيث أنهم كانوا يرحبون به دوماً لإلقاء محاضرات فى كثير من الكليات بالعالم الإسلامى .

ويذكر شهود العيان أنه بعد إلقاء محاضراته فى الجزائر وفى المدينة المنورة هتفت الجماهير مكبرة بتلقائية وحماس . وفى إحدى المرات بعد إلقائه محاضرة فى جامعة المدينة بحضور كبار علماء المسلمين وجه بعض الطلبة طلباً رسمياً لإدارة الجامعة يلتمسون فيه تحديد موعد لحضور الدكتور سمايلوفيتش من بلاده لكى يلقى عليهم سلسلة من محاضراته القيمة عن بعض الموضوعات الإسلامية ، وهذا يؤكد دون شك ما قيل عن صدق كلامه وطلاقة بيانه .

وكان الدكتور سمايلوفيتش مشغولاً على الدوام بالعمل من أجل الإسلام ومن أجل خير وصالح المسلمين فى بلاده . وحتى أولئك الذين لا يعرفونه جيداً كانوا يتحدثون عن إنشغاله الشديد ، فإن لم يكن مشغولاً بالكتابة فى أحد الموضوعات الإسلامية أو ترجمة أحد عيون الكتب الإسلامية أو بإعداد محاضرة لطلبته فى كلية الدراسات الإسلامية بسرايفو ، أو مشغولاً بحل العديد من القضايا الجوهرية فهو مشغول بالحديث مع جماهير المسلمين والاستماع لهم .

وكان يداوم على الذهاب إلى حفلات افتتاح المساجد والمدارس الإسلامية الجديدة ، وعلى عقد الاجتماعات واللقاءات وإلقاء المحاضرات والخطب ودروس الوعظ . ولم يكن عسيراً عليه أن يستقبل أتباع الجماعة الإسلامية فى مكتبه بصفته رئيساً للمشيخة وفى مكتبه بالكلية وأن يقدم النصح لكل شخص يطلب منه ذلك . ولم يحدث أن تخلف عن أى احتفال أو مناسبة جليلة فى تاريخ الجماعة الإسلامية أو تخلف عن افتتاح مسجد

أو الاشتراك في اجتماع هام لأتباع الجماعة الإسلامية . ونظراً لأنه كان يلقى التحية والاحترام والتقدير من جانب المسلمين فى بلاده فلم يكن قادراً على رفض دعواتهم وطلباتهم بالقيام بزيارتهم .

وتعد الدروس التى كان يلقيها فى هذه المناسبات متعة حقيقية فريدة لكل أولئك الذين يستمعون له . وكانوا يعلمون أنه سيلقى على مسامعهم أموراً جديدة وأن أرواحهم ستستمتع بما يلقيه عليهم من معلومات طريفة ، وستتحمس نفوسهم بما يتلقونه منه من فيض الحماس والأمل . وهذا ليس بالأمر الغريب فهم يدركون أنهم يستمعون لداعية إسلامى جليل ولعالم كبير وأستاذ فاضل ولرجل مثقف نبيل يفيض قلبه بالإيمان الفعلى وبالتدين الحقيقى ويجيد شرح المعارف الاسلامية . وكانوا يسعدون فيما بعد بإعادة سرد نصائحه وتوجيهاته أو تسجيلها على شرائط وتكرار الاستماع إليها بحضور أفراد العائلة والأصدقاء .

وبالإضافة إلى الدروس والمحاضرات التى كان يلقيها فى جميع أنحاء جمهوريات الاتحاد اليوغسلافى السابق فى مختلف المناسبات فقد اعتاد الدكتور أحمد سمايلوفيتش ، منذ توليه رئاسة المشيخة الإسلامية فى سرايفو ، على إلقاء دروس على المسلمين مرة كل أسبوع فى مسجد « البك » خلال شهر رمضان المعظم . وليس أدل على أهمية هذه الدروس من ضيق المسجد بجمهور المستمعين الذين يكتظون فى الشوارع المحيطة به من أجل الاستمتاع بخطبة الدكتور . وحينذاك كان يستمع إليه الصغار والكبار والمتقدمون فى السن من الرجال والنساء وأصحاب الحرف والمثقفون والطلبة والتلاميذ وأفراد عائلات بأكملها ، بل والأطرف من ذلك أنه يستمع إليه أشخاص يدينون بديانات أخرى .

وكان هدف الدكتور أحمد سمايلوفيتش من كل هذا خالصاً لوجه الله تعالى ودافعه إيمانياً إلى أبعد الحدود . وينبع من كل كلمة يقولها الحب

الإيمانى لله تعالى ولرسوله الكريم . وكان يجتهد فى التحدث بشكل مباشر بلغة القرآن الكريم وبالحديث النبوى المناسب . وكان رجلاً « قرآنياً » بمعنى الكلمة ، ويسعى نحو تنبيه المؤمنين والمؤمنات إلى تنسيق أعمالهم فى الحياة مع قواعد القرآن الكريم . وهكذا كان الجميع على اختلاف أعمارهم وثقافاتهم ومشاربهم ومهنهم يجدون شيئاً يصلح لهم فى دروسه ومحاضراته ، ولهذا كان الجميع أيضاً يرحبون بسماعه والإصغاء إليه .

وخلال حياته القصيرة نشر الدكتور سمايلوفيتش ما يربو على مائتين وخمسين مقالاً ودراسة ، وذلك علاوة على عدة كتب مترجمة من اللغة العربية والصربوكرواتية . ونشر معظم هذه المقالات فى العديد من المجلات الإسلامية بالبوسنة والهرسك . ومن أشهر ترجماته ترجمته لرواية « الدرويش والموت » للأديب ميشا سليموفيتش وقد نشرت بالقاهرة فى عام ١٩٧١ . ثم ترجمته لكتاب مصطفى محمود « حوار مع صديقى الملحد » الذى طبع فى سرايفو فى عام ١٩٧٦ وأعيدت طباعته فى عام ١٩٨١ . وكذلك ترجمته لكتاب « المؤتمر الدولى للعمل الإسلامى » الذى طبع فى سرايفو فى عام ١٩٨١ .

إلا أن أهم عمل أكاديمى فى حياته هو رسالته للدكتوراه وعنوانها « فلسفة الاستشراق وأثرها فى الأدب العربى المعاصر » ، ونال عنها درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى فى عام ١٩٧٤ وطبعتها دار المعارف بالقاهرة فى عام ١٩٨٠ فى كتاب يقع فى ٧٦٩ صفحة . وتعنى هذه الدراسة بتسجيل الاتجاهات العامة للاستشراق خلال عصوره المختلفة ، واهتمت أيضاً بالنشاط الاستشراقى الذى تغلغل أثره فى ميادين الحياة الفكرية والثقافية منذ أكثر من قرن من الزمان وبلغ أوج تغلغله هذا فى النصف الأول من القرن الحالى ، ومن هنا استمدت هذه الدراسة أهميتها الفكرية والعلمية والفلسفية والدينية والثقافية وغيرها .

وكشفت هذه الدراسة الرائدة عن الدور الخطير الذى لعبه الاستشراق

فى تشتيت الجهود الموجهة لمقاومة السيطرة الأجنبية فى المجالات الفكرية وتبديدها وذلك بإثارة الريب والشكوك والمشاكل والمعضلات التى وزعت جهود العلماء والمصلحين والأدباء العرب ودفعتهم إلى اتجاهات متباينة ومتناقضة فى بعض الأحيان . وشغفت الدراسة بعرض أثر الاستشراق فى الأدب العربى عرضاً موضوعياً مثبتاً جوانب آثاره الإيجابية ومنتقداً جوانب آثاره السلبية . وأكدت الدراسة أن للاستشراق قيماً متشعبة الأطراف لا يمكن إنكار أية منها مطلقاً . ومن هنا يرى الباحث أهمية دراسة الاستشراق دراسة واعية منهجية لإبراز ماله وما عليه في جميع ميادين نشاطه . وارتأى فى نهاية دراسته أن الأزهر بمنهجه القرآنى وتسامحه الإسلامى هو الوحيد فى العالم العربى الإسلامى المؤهل لأن يفعل شيئاً فى هذا الميدان .

وبالرغم من هذا النشاط المكثف فى مجالات متعددة فقد رحل الدكتور سمايلو فيتش ، الداعية الإسلامى الكبير ، فى صيف عام ١٩٨٨ عن مسرح الحياة فى هدوء حتى دون أن يتمكن من إغلاق المصحف الشريف الذى كان يقرأ منه كل يوم ويتعلم ويفسر ، وتركه مفتوحاً على الآية ٨٤ من سورة الكهف . وكان ينوى ختم القرآن قبل أن ينتقل إلى مسكنه الجديد . وكان من المفروض أن ينهى ختم القرآن فى الثالث عشر من أغسطس ، ولكن ذلك اليوم كان يوم تشييع جنازته .

وهكذا رحل الدكتور أحمد سمايلوفيتش فى سكون ، ولن ينسى العديد من المعجبين به والمقدرين له نشاطه وفكره فى مجال الدعوة الإسلامية .

شــهر رمضــان

شهر رمضان له مكانة خاصة فى قلب كل مسلم من المسلمين فى البوسنة والهرسك الذين يتعرضون فى الوقت الحالى لأعتى حملة نفسية شرسة . وهو بالنسبة لأغلبيتهم هو شهر الصوم والعبادة والحياة الإسلامية الثرية المكثفة . ومن هنا كان من الطبيعى أن يبتهج كل مسلم ابتهاجاً حقيقياً بشهر رمضان وأن يستعد لاستقباله استقبالاً يليق به وبمكانته ، وأن يتهيأ لصيامه وللحصول على أكبر قدر من فيض بركاته وحسناته .

ويعرف المسلمون فى البوسنة والهرسك معرفة جيدة أن رمضان هو شهر الصيام والرحمة والذكر والعبادات وأنه شهر يفيض بالخيرات والبركات أكثر من أى شهر آخر ولذا فهم ينشطون فى هذا الشهر الكريم الذى تنفتح فيه جميع أبواب الرحمة والمغفرة أملاً فى أن يستفيدوا من تلك الخيرات وتلك البركات التى يمنحهم إياها الله جل شأنه .

وبعد انهيار الشيوعية فى يوغسلافيا ونتيجة لضغوط التيارات الديمقراطية أظهرت وسائل الإعلام شيئاً من التحرر وظهرت - على غير توقع - البرامج الدينية فى التليفزيون بعد أن كانت شيئاً محرماً تماماً . ونقل التليفزيون بعض وقائع الاحتفالات الرسمية بمناسبة الأعياد الدينية .

والحقيقة أنه تجرى استعدادات هائلة من أجل شهر الصوم فى كل منزل من منازل المسلمين فى البوسنة والهرسك الذين يتجاوز عددهم المليون والنصف المليون . فقبل حلول هذا الشهر المبارك ببضعة أيام

تجرى عمليات هائلة ومكثفة لتنظيف المساجد وتجديدها وإعادة تنظيمها . وهذا يسرى بشكل خاص على تلك المساجد المهجورة التى لا تقام فيها الصلوات إلا خلال شهر رمضان أو التى يقل التردد عليها فى غير شهر الصوم . وعادة ما يقوم الناس بهذه الأعمال طواعية وتطوعاً ، وغالباً ما تقوم بذلك فتيات القرية أو المدينة التى يقع فيها المسجد .

ويتميز هذا الشهر الكريم بالعديد من مظاهر وأشكال العبادات والحياة الإسلامية ، وبعض منها مرتبط ارتباطاً وثيقاً برمضان ، وبعض منها يتكثف القيام به فى هذا الشهر المبارك . فقبيل بداية رمضان بثلاثة أيام تقريباً تبدأ فى بعض المناطق بالبوسنة والهرسك ما تسمى « بالمقابلة » وهى تلاوة للقرآن بصوت عال فى المسجد بمعرفة أكثر من قارئ وحافظ للقرآن . وتستمر هذه التلاوة القرآنية طوال شهر رمضان ويتم ختمها قبيل ليلة السابع والعشرين ، أى فى السادس والعشرين من الشهر . وتبدأ «المقابلة» فى بعض القرى والمدن مع بداية شهر الصوم وتنتهى فى اليوم قبل الأخير أو الأخير منه وفقاً لعدد أيامه .

ويتم ، بقدر الإمكان ، اختيار وتكليف أفضل قراء القرآن وحفاظه من أجل إتمام هذه التلاوة القرآنية . وهذا هو السبب فى الإقبال الكبير على حضور هذه التلاوة القرآنية المسماة « بالمقابلة » طوال كل أيام رمضان . وتجرى تلاوة القرآن فى أكثر من مكان بالمدن الكبرى وفى أوقات مختلفة من اليوم ، ابتداء من السحور وحتى الفجر وقبل الظهر وبعده وقبل العصر وبعده . وفى أماكن أخرى تبدأ تلاوة القرآن بحيث تنتهى قبل تناول طعام الإفطار . والشائع أن تلاوة القرآن تتم فى أغلب الأحوال بعد الانتهاء من صلاة العصر . وقد استقر فى ذهن ووعى الصائمين من المسلمين فى البوسنة والهرسك أن الحضور والإنصات إلى هذه التلاوة القرآنية يدخل فى نطاق العبادات ويثاب المرء عنه ثواباً كبيراً . ولذا فإن المساجد تكتظ

بأعدادهم الغفيرة أكثر من أى وقت آخر ، وفى أحوال كثيرة تمتلئ بهم أفنية المساجد .

وفى مدينة سرايفو عاصمة البوسنة والهرسك التى يتركز بها عدد كبير من المسلمين تجرى التلاوة القرآنية في الأوقات التى ذكرناها . وفى بعض المساجد ، مثل مسجد البك ، تجرى أكثر من تلاوة فى اليوم الواحد فى أوقات مختلفة . وفى مسجد الغازى خسرو بك تجرى التلاوة القرآنية قبل الإفطار بساعة واحدة .

ومن غير المعروف على وجه التحديد متى تم إدخال نظام التلاوة القرآنية فى رمضان بالشكل الذى يجرى به فى المدن البوسنية . ولا يوجد أى ذكر له فى وصيات الوقف القديمة ، وهذا يعنى أن هذا النظام يرجع إلى تاريخ حديث أصله غير معلوم ، بل ولا يوجد نظام مماثل له فى عديد من الدول الإسلامية .

وفى حين من الأحيان كان يتم الإعلان عن بداية ورحيل شهر رمضان فى البوسنة والهرسك بإطلاق المدافع ، أما اليوم فيتم الإعلان عنهما بأساليب مختلفة . فبعد الإعلان عن بدء رمضان يتم إشعال القناديل على مآذن المساجد عند صلاة المغرب . وكان يستمر إشعال القناديل طوال شهر رمضان فى نفس الوقت من كل يوم إرشاداً للصائمين بأن الصيام اليومى قد انتهى وأنه بإمكانهم تناول طعام الإفطار ، ويتم الاحتفال بعملية إشعال القناديل بطريقة بهيجة .

فقد كانت تتملك الأطفال المسلمين فى القرى والمدن سعادة خاصة وهم ينتظرون حلول وقت طعام الإفطار أمام المساجد بينما يقف المؤذن على المئذنة قبيل حلول الموعد بنصف ساعة لكى يعد القناديل ، ويقوم المدفعجى بتنظيف ماسورة المدفع وحشوها بالطلقة . هكذا كانت تمضى الحال حينما كانت القناديل تعمل بالزيت والفتيل وعندما لم تكن قد ظهرت

بعد الإضاءة الكهربائية فى المساجد . وما أن يحل وقت المغرب بالضبط حتى يؤذن المؤذن لصلاة المغرب وفى الآونة نفسها ينقل القناديل إلى الجانب الخارجى من شرفة المئذنة . ويقوم المدفعجى بعدما يكبر المؤذن لأول مرة بإطلاق المدفع ، ويصبح الأطفال فى صوت واحد : اشتعلت القناديل ، ويهرول الجميع إلى منازلهم وهم يطلقون نفس الصيحات .

وبعد مضى فترة وجيزة بعد آذان المغرب وإشعال القناديل وإطلاق المدافع تخلو الشوارع تماماً من الكبار والصغار ومن عابرى السبيل . وتنتشر فى جميع الأحياء والشوارع رائحة طعام الإفطار ويسود سكون وهدوء غير مألوف فى منطقة السوق . وبعد صلاة المغرب والإفطار تستعيد الشوارع والأزقة نشاطها وتواصل منطقة السوق ضجيجها وصخبها . ويستمر الحال على هذا المنوال لفترة طويلة فى الليل تتخللها فترة انقطاع لأداء صلاة العشاء والتراويح فى المساجد .

ومن العادات الثابتة طوال شهر رمضان عقد دروس الوعظ فى المساجد . ومن خلال هذه الدروس يجرى الحديث عن الإسلام ومبادئه وتعاليمه ويتم التعرض لمختلف الموضوعات من حياة المسلمين ، وخاصة ما يتعلق منها بالعبادات . ويحدث هذا يومياً فى أغلب الأحوال ، بالنسبة للنساء أولاً ثم بالنسبة للرجال بعد صلاة الظهر . وفى المدن الكبرى يتم إلقاء دروس الوعظ فى أماكن عدة وفى مساجد عديدة . وفى بعض الأحيان يتم إلقاء دروس رمضان بعد صلاة التراويح فى قاعات الاطلاع الخاصة بالمسلمين وفى دور الأنشطة الاجتماعية وداخل المنازل .

وفى أغلب الأحوال يتم تكليف الطلاب القدامى بالمدارس الإسلامية وكلية أصول الدين وغيرهم لإلقاء هذه الدروس والمحاضرات . وهذه عادة ذات تاريخ قديم نسبياً . فقد كان من المعتاد أن يقيم هؤلاء الطلاب

خلال شهر رمضان فى بعض الأماكن التى يعيش فيها المسلمون ، وهنا يقومون بأداء جميع الأعمال الدينية الإسلامية مثل تلاوة القرآن وأداء صلوات التراويح وإلقاء دروس الوعظ والتفقه فى الدين وما إلى ذلك فى المساجد . ويحصلون فى مقابل أدائهم لهذه الأعمال على مكافآت نقدية أو عينية من سكان القرية أو المدينة ، الأمر الذى يفيد الكثيرين منهم ويعينهم على الوفاء بالتزاماتهم ومصاريفهم خلال فترة الدراسة . وكان هذا أمراً هاماً للغاية بالنسبة لبعض الطلاب لأنه فى معظم الأحوال يمثل المصدر الوحيد المأمول لاستكمال تعليمهم ودراستهم .

وعادة ما يتم فى رمضان بالبوسنة والهرسك إعداد ولائم الإفطار التىتتم دعوة الأقارب والأصدقاء والجيران إليها ، وعلى الأخص الوالدين إذا كانا يعيشان بعيداً عن أولادهما . وغالباً ما يتم ذلك فى النصف الثانى من رمضان . وهذه الولائم للإفطار تمثل متعة خاصة بالنسبة لأولئك الذين يعدونها ويحضرونها . ويتم فى بعض الأماكن إعداد موائد إفطار مشتركة وجماعية للصائمين العاملين بالخارج طوال شهر رمضان . وقد اشتهرت تلك الولائم التى تم إعدادها منذ سنوات بنجاح كبير فى مدرسة الغازى خسرو بك فى سرايفو . وقد أصبحت هذه الولائم للإفطار تقليدية وتمثل بالنسبة للمشاركين فيها بهجة كبيرة ومتعة رمضانية متميزة .

ومما يذكر أن بعض أهل القرى من المسلمين يبدأون من اليوم الخامس عشر من شهر رمضان عملية الإفطار المشترك لأهل القرية جميعهم عند أحد سكان القرية أو فى باحة المسجد ، ويستمر هذا الإفطار اليومى المشترك إلى وقت حلول العيد . وفى مدينة سرايفو ، على سبيل المثال ، يتم تقديم طعام الإفطار إلى المقرئين الذين يقيمون فيها طوال شهر رمضان ويقومون بتلاوة القرآن وأداء صلاة التراويح فى مساجدها ، وكذلك إلى العرب الذين يأتون من أجل أداء الحج عن الغير ويمكثون فى سرايفو لصيام رمضان وتلاوة القرآن فى المساجد . ويقوم بتقديم طعام الإفطار الأغنياء والنساك وأهل الكرم من سكان سرايفو .

وعند الحديث عن رمضان وعاداته فى البوسنة والهرسك لابد من التطرق أيضاً إلى الحديث عن جلسات رمضان . وعادة ما تكون جلسات موسعة يتم عقدها فى المنازل بعد الإنتهاء من تناول طعام الإفطار المشترك ، وتجمع الأقارب والجيران والأصدقاء . ويتم فيها فى أغلب الأحيان الاستماع إلى آيات القرآن الكريم سواء عن طريق القارئ أو شريط التسجيل أو جهاز الاسطوانات ، وإلى التواشيح الدينية وما شابه ذلك . ويتم فيها فى بعض الأحيان إلقاء محاضرات دينية ارتجالية مرتبطة بهذه المناسبة أو قراءة التواشيح الدينية وإنشاد قصائد المدح النبوى وقصائد عن الشخصيات الإسلامية المشهورة وما إلى ذلك . كما يتم الاحتفال بليلة القدر بنفس الأسلوب .

وتوجد فى البوسنة والهرسك عادة الاعتكاف التى استنها النبى عليه الصلاة والسلام . فيقوم الإمام والمؤذن ومن يرغب فى ذلك فى الاعتكاف الذى يبدأ من عصر اليوم العشرين وينتهى بعد صلاة العصر فى اليوم الأخير من رمضان . وفى العادة يقوم الأثرياء من المسلمين بإعداد واحضار طعام الإفطار والسحور لأولئك المعتكفين ولغيرهم من الضيوف والمسافرين . وفى بعض الأحيان يتم تقديم الطعام أيضاً للمدفعجية الذين يطلقون المدفع فى وقت الإفطار والسحور .

ومن المعتاد أن يعتكف شخص واحد فى كل مسجد فى المكان الواحد بغض النظر عن عدد المساجد الموجودة . وفى سرايفو يعتكف عدة أشخاص فى عدة مساجد . ويتم الإعتكاف طواعية مع علم وموافقة الأجهزة المختلفة بالمشيخة الإسلامية ولكن دون تقديم تعويض مادى من جانبها .

مدينة ترافنيك

تعد مدينة ترافنيك من أقدم المدن فى وادى نهر لاشفا ومركزه التاريخى ، وهى واقعة عند سفح جبل فلاشيتش بارتفاع ٥١٤ متراً عن سطح البحر . وتشتهر المنطقة المحيطة بها بمساحات شاسعة من الغابات والمراعى الجبلية التقليدية التى تنتج نوعاً مشهوراً من الجبن يسمى جبن ترافنيك (أو جبن فلاشيتش) .

وقد نشأت مدينة ترافنيك فى موقع مناسب للغاية فى وادى ضيق لنهر لاشفا ، وهذا الوادى يعد هو حلقة الاتصال الطبيعية بين نهر فرباس من الغرب ونهر البوسنة من الشرق ولذا فإن له أهمية كبيرة من الناحية الإستراتيجية ومن ناحية حركة المواصلات . وهكذا فإن مدينة ترافنيك التى تعتبر أكبر منطقة سكنية بهذا الوادى تقع فى مفترق هام للطرق والمواصلات الأمر الذى يشتمل على أهمية عظيمة بالنسبة لتطور المدينة ونموها وتقدمها . ومن ناحية أخرى فإن للموقع الجغرافى أهمية لا مثيل لها بالنسبة لوجود المدينة ولتطورها الاقتصادى . وفى وقت من الأوقات كان هذا الموقع الجغرافى يناسب مؤسسى المدينة من أجل حمايتها ، وفيما بعد منح نفس هذا الموقع الجغرافى أفضلية للغزاة من أجل السيطرة على كل المنطقة المحيطة . وبوجه عام فقد مكنت الأحوال الطبيعية الملائمة والثروات المتنوعة للمنطقة من الحفاظ عليها عبر الأيام والسنين .

وكانت منطقة ترافنيك آهلة بالسكان منذ خمسة آلاف عام قبل الميلاد أى فى العصر الحجرى الحديث . وتواجدت هنا حينذاك مناطق سكنية

وامتدت فى جميع الاتجاهات فى وادى نهر لاشفا وفرعيه بيــلا وجروفيتسا . واستخدم سكان هذه المنطقة الأحجار والأسلحـة الحـادة والأدوات المختلفة . ومنذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد وحتـى الحقبـة الرومانية كان يستوطن هذه المنطقة الايلير الذين اختلطوا فى عام ٤٠٠ قبل الميلاد تقريباً بالكلت وشكلوا معهم السكان الأصليين لهذه المنطقة . وبقيت من هذا العهد الكثير من القلاع المحصنة التى كانت تستخدم للدفاع لأن القبائل الموجودة كانت كثيرة التقاتل فيما بينها .

وتعد الفترة الرومانية هامة أيضاً بالنسبة لمنطقة ترافنيك . وبعد الإستيلاء على شبه جزيرة البلقان احتل الرومان وادى نهر لاشفا وأقاموا فيه الكثير من المناطق السكنية . وبسبب موقع منطقة ترافنيك كملتقى للطرق وبسبب ثرواتها الطبيعية فقد إزدادت قيمتها وأهميتها وأثّر هذا بالتالى على تطورها ونموها الاقتصادى . ولعدة قرون أخذ الرومـان يستخرجون الذهب من رمال نهر لاشفا . وكان يقوم بهذه الأعمال العسيرة العبيد الذين كان الرومان يستخدمونهم كقوة عاملة . وعن طريق استيطان السلاف الجنوبيين فى شبه جزيرة البلقان فى القرن السابع الميلادى حدث امتزاج بين السكان الأصليين وبين العناصر السلافية .

ودخلت مدينة ترافنيك فى القرن الثانى عشر ضمن الدولة البوسنية . ومنذ ذلك الحين نجد أول المعلومات المسجلـة عن منطقـة ترافنـيك . وأصبحت دوقية لاشفا حينذاك إحدى الوحدات الإدارية التابعة للدولـة البوسنية ، وشملت المنطقة التى تحمل نفس اسم النهر ، وهى منطقة ترافنيك الحالية .

ومن المؤكد أن اسم مدينة ترافنيك مستخرج من كلمة « ترافا » ومعناها العشب أو الكلأ وذلك لأنه كان يقيم فى هذه الدوقية الموظف الذى كان يقوم بتحصيل ضريبة الكلأ من كثير من أصحاب قطعان الماشية الذين

كانوا يسوقونها للرعى بهذه المنطقة . ومن اسم محصل ضريبة الكلأ « ترافارنيك » يُفترض أنه نشأ اسم ترافنيك بالنسبة للمنطقة السكنية الموجودة حينذاك .

ويتم ذكر المدينة بهذا الاسم لأول مرة فى التاريخ فى عام ١٤٦٣م . حينما دخلها السلطان العثمانى محمد الثانى بجيشه الذى توقف هنا لفترة وجيزة بالقرب من أسوارها عند عودته من غزوته الناجحة وهو فى طريقه إلى اسطنبول .

وخلال فترة الوجود العثمانى نمت ترافنيك بحيث أصبحت مركزاً عسكرياً ، وكانت الحامية العثمانية المتواجدة بها آنذاك تمثل نقطة انطلاق لغزوات أخرى صوب الجنوب الغربى . كما كان يوجد بها مستودع هام للأسلحة والذخيرة يتم منه تزويد الحاميات العثمانية الأخرى . وفى الوقت الذى ضعفت فيه قبضة الدولة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان يتم بالقلعة الموجودة فى ترافنيك حبس المتهمين السياسيين وأصحاب الاقطاعيات والقواد العسكريين ، الذين تم فيما بعد إعدام كثير منهم .

وفى المنطقة القديمة من المدينة جرى إنشاء عدة مبان من أجل الجيش ، وفى المنطقة المنخفضة عنها اتسعت المدينة بحوانيت الحرفيين من أجل احتياجات الجيش والمتاجر والمساجد والحمامات والمبانى الأخرى . وتعاظمت أهمية مدينة ترافنيك فى البوسنة وأصبحت مقراً لإقامة الوزراء وولاة السلطان منذ عام ١٦٩٩ وحتى عام ١٨٥١ . وكان خليل باشا تشوسو قد نقل مقر الوزارة من سرايفو إلى ترافنيك حيث أقام بها سبعة وسبعون وزيراً تركوا العديد من الآثار الهامة بالنسبة لماضيها . ومن هذه المدينة كان يتم حكم ولاية البوسنة كلها خلال مائة وخمسين عاماً تقريباً تتخللها فترات انقطاع قصيرة . وبفضل دورها فى الحكم والسيطرة تطورت المدينة بحيث أصبحت مركزاً تجارياً وحرفياً كبيراً تصل إليه

السلع من فيينا والقسطنطينية وتريستا وفينيسيا ومن المدن الأخرى ، كما كان يتم تصدير المشغولات اليدوية من هنا إلى أماكن كثيرة بالبوسنة والبحر الأبيض المتوسط .

وفى أوائل القرن التاسع عشر فتحت هنا قنصلية لها كل من فرنسا (فى عام ١٨٠٧) ثم النمسا (فى عام ١٨٠٨) . وهكذا أصبحت ترافنيك أول مركز دبلوماسى للبوسنة والهرسك ومفترقاً للطرق والمصالح بين الشرق والغرب ، وميداناً للاتصال المباشر بين حضارتين مختلفتين اختلافاً كبيراً . وهذه الحقبة من تاريخ المدينة وصفها الأديب إيفو أندريتش وصفاً مؤثراً فى روايته المشهورة « تاريخ مدينة ترافنيك » وقصة « فيل الوزير » .

وفى تلك الفترة تطورت المدينة الواقعة بجانب نهر لاشفا ، وعلى الأخص منذ أواخر القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر . وبجانب النهر نشأ الشارع الرئيسى وأقيمت معه سلسلة من المبانى الهامة : المسجد المزركش ومساجد أخرى بلغ عددها حوالى سبعة عشر مسجداً ، والحمام العمومى والمدارس الإسلامية والمحلات الشاملة الكبيرة والفنادق وصنابير المياه العمومية وأبراج الساعات وغيرها من المبانى .

وبجانب نهر لاشفا أيضاً تم إنشاء مقر الوزير وهو عبارة عن مبنى ضخم به عديد من الغرف الواسعة ويشتمل على كل وسائل الراحة المتاحة فى ذلك العصر . وكان يعيش فيه الوزير مع حاشيته . وفى هذا المقر كان يتم عقد جلسات الديوان لأصحاب السلطة ، وفى هذه الجلسات كانت تصدر القرارات المصيرية بالنسبة للبوسنة والهرسك كلها .

وفى عام ١٨٥١ حينما نقل الوزير عمر باشا لاتاس مقر الوزير من ترافنيك إلى سرايفو أصاب الكساد المدينة وانخفضت أهمية السوق الذى

كان يزود الوزير وحاشيته وعدداً كبيراً من الموظفين باحتياجاتهم . ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية القرن التاسع عشر بدأ السكان وعلى الأخص أصحاب الحرف والتجار يرحلون عن المدينة . ومع رحيل الوزير وحاشيته إلى مدينة سرايفو انخفض النمو المستقبلي للمدينة إلى وقت وقوع الأحداث المصيرية الجديدة التى أعقبت الاحتلال النمساوى المجرى فى عام ١٨٧٨ . ولم تظل ترافنيك بمنأى عن التغيرات التى حدثت فى مجال العلاقات الاجتماعية واحتلت ثانية مكاناً بارزاً فى دوامة الأحداث الجديدة . وعقب الاحتلال النمساوى المجرى للبوسنة والهرسك فى عام ١٨٧٨ وقعت تغيرات هائلة بهذه المدينة .

وفى أواخر القرن الماضى وبداية القرن الحالى ظهرت فى ترافنيك أول الإمكانات الصناعية ، فقد أقيم مصنع للدخان فى عام ١٨٩٣ ، ومصنع للكبريت فى دوتسا على نهر لاشفا فى عام ١٩٠١ ، ومصنع للمنتجات الخشبية فى منطقة توربه فى عام ١٩١٢ . وفى أكتوبر عام ١٨٩٣ وصل إلى المدينة أول قطار ، وفى عام ١٩٠٦ أضاءت بها أول المصابيح الكهربائية ، وأقيمت بها المدارس والمؤسسات الصحية وخلافه . وأصبحت المدينة مرة أخرى مركزاً لمنطقة البوسنة والهرسك واكتسبت سمات المركز العمرانى الحديث .

ومدينة ترافنيك حافلة بالآثار التاريخية والإسلامية الهامة . ومنها المسجد المزركش (أو السليمانية) . وهو أول مسجد شيده بهذا المكان الغازى أغا فى عام ١٧٥٧ وجدده تجديداً كاملاً تشاميل أحمد باشا ولذلك سُمى « بالتشاميلية » . وأقيم أسفل منه محل كبير شامل به سبعة وعشرون حانوتاً وصنابير عمومية للمياه حول المسجد . وتخصص إيجار الحوانيت من أجل صيانة المسجد والحفاظ عليه . وفى أثناء الحريق الذى نشب فى عام ١٨١٥ احترق المسجد وقام بتجديده سليمان باشا سكوبلياك وأمر بزخرفة جدرانه الخارجية ، ونسبة إلى اسمه فقد جرت

تسمية المسجد « بالسليمانية » أو بالمسجد المزركش نسبة إلى زخارفه .

ويتميز المسجد بوجود مئذنته على الجانب الشرقى بدلاً من الجانب الغربى ، وبأنه توجد بها - وفقاً لبعض المعتقدات - عدة شعرات من لحية النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أهداها إلى المسجد سليمان باشا سكوبلياك باعتبارها وساماً عسكرياً حصل عليه من السلطان نظير خدماته العسكرية الجليلة . وعلى مقربة من هذا المسجد يوجد جسر حجرى يعبر نهر لاشفا ، وهو مشيد فى عام ١٥٩٠ .

وهناك أيضاً برج الساعة المشيد أمام قلعة المدينة ويرتفع عالياً فوق السوق الموجودة بالمنطقة المنخفضة . ومن المفترض أنه تم إنشاء هذا البرج فى القرن السابع عشر ولكن بمرور الزمن أصابه التآكل والشيخوخة ولذا جرى اصلاحه وتجديده تجديداً شاملاً فى عام ١٨١٥ ، وهذا هو ما تشهد به الكلمات المكتوبة بأعلاه . وفى أثناء الحريق الكبير الذى نشب فى المدينة فى الثالث من سبتمبر عام ١٩٠٣ أصيب البرج بأضرار بالغة واحترق سطحه الخشبى وتوقفت ساعته عن العمل . وتم تجديده فى فترة ما بين الحربين العالميتين وذلك لاستخدامه فى عمليات الإطفاء . وفى عام ١٩٦٤ تم ثانية تركيب ساعة به . وسميت المنطقة السهلية الموجودة حول البرج « بالمصلى » وذلك لأن أفراد الجيش كانوا يستخدمونها بالفعل كمكان للصلاة .

ونجد فى المدينة أيضاً مسجد « ينى » (أى المسجد الجديد) وهو يعتبر من أقدم المساجد المصانة فى المدينة نظراً لأنه مشيد فى حوالى عام ١٥٤٩ . ومن المرجح أنه قبل ذلك كان مشيداً فى نفس المكان مسجد آخر أقدم منه ولكن لم يتم الحفاظ عليه . أما مسجد « ينى » فهو مشيد من الأحجار ولذلك تم الحفاظ عليه وصيانته . وفى وقت الحروب الكبيرة كان

يستخدم كمستودع للذخيرة . ويوجد بالمسجدأيضاً مدفن قديم للغاية تم فيه دفن العديد من الشخصيات العثمانية البارزة . ويبرز هنا ضريح عبده باشا الدفترتارى الذى يرجع إلى عام ١٧٨٥ .

ومن الآثار الهامة كذلك منزل حافظاديتش ، وقد شيده فى عام ١٨٥٨ الطبيب المجرى الدكتور لوكنتاى الذى تواجد بمدينة ترافنيك بعد إخماد الثورة المجرية فى عام ١٨٤٩ . وحصل هذا الطبيب على حق اللجوء لدى العثمانيين بالمدينة وتخصص فى حقل الطب وظل هنا لمدة عشرين عاماً كاملة . وهذا المنزل مشيد فى شكل رومانى معدل ، وقد سُمى بمنزل حافظاديتش نظراً لأن عائلة حافظاديتش أصبحت مالكة له قبل عام ١٨٧٥ .

أما مسجد الحاج على بك فقد شيده محمد باشا كوكافيتسا ما بين عامى ١٧٥٧ و ١٧٥٩ بجانب مقر إقامة الوزير . وقد سُمى المسجد باسم حاج على بك لأنه بعد حريق عام ١٨٥٠ جدده تجديداً كاملاً خلال عامى ١٨٦٥ و ١٨٦٦ الحاج على بك حسن باشيتش بأمواله الخاصة . وعلى الحائط الغربى للمسجد تم تشييد ساعة شمسية فى عام ١٨٦٦ . وهى فى الوقت الحالى تعد الساعة الوحيدة من هذا النوع فى البوسنة والهرسك . والكتابة الموجودة على المسجد باللغة التركية عبارة عن مدح فى مجدد المسجد .

وفى أوائل القرن الماضى ، وبالتحديد فى عام ١٨١٧ أقام سليمان باشا سكوبلياك برجاً للساعة بجانب المسجد . وفى عام ١٨٢٢ تم تركيب جرس بهذا البرج . وخلال الحريق الذى نشب بهذا الجزء من المدينة فى عام ١٨٩٥ أصيب برج الساعة بإصابات بالغة إلا أن الحاج على بك حسن باشيتش قام بتجديده واشترى له جرساً جديداً من النمسا . وفى عام ١٩١٧ تم نزع هذا الجرس لاستخدامه فى أغراض أخرى . ومنذ ذلك الحين

وحتى تجديد البرج وشراء آلات جديدة للساعة فى عام ١٩٦٤ لم يعمل برج الساعة .

ومن بين الآثار التى ترجع إلى العهد العثمانى وجرى الحفاظ عليها حتى الآن ضريح الوزير أمام فندق أورينت . وفى الضريح الأيمن المشيد فى حوالى عام ١٧٤٧ يرقد جثمان موسين عبد الله باشا الذى جرى تنصيبه أربع مرات وزيراً فى ترافنيك ، ويرقد كذلك جثمان جلال الدين باشا الذى يعد من أكثر وزراء ترافنيك قسوة وشدة . وفى الضريح الأيسر الذى تم تشييده فى حوالى عام ١٨٠٠ يرقد رفات الوزير بريشان مصطفى باشا . وفى كلا الضريحين توجد توابيت حافلة بالنقوش الشرقية وشواهد للقبور تعد من الروائع التى قام بنحتها فنانو القسطنطينية ونقلت إلى هنا .

ومن المعروف أنه ولد بهذه المدينة فى التاسع من أكتوبر لعام ١٨٩٢ الأديب إيفو أندريتش الحاصل على جائزة نوبل للأدب فى عام ١٩٦١ . وتم تجديد منزل مولده فى عام ١٩٧٤ بحيث أصبح يمثل مثالاً نموذجياً للمنزل البوسنى القديم . وخلفه يوجد فناء واسع ، ووفقاً للتقاليد السائدة آنذاك فقد تمت إحاطته بسور حجرى مرتفع .

ويوجد بالطابق الأرضى من المنزل معرض للطبعات الأولى لإيفو أندريتش باللغة الصربوكرواتية وباللغات الأجنبية ، وكذلك الأشياء الخاصة بالاستعمال المنزلى اليومى . وتمت فى الطابق الأرضى أيضاً إقامة معرض للصور الخاصة برحلته إلى ستوكهولم بالسويد وبالاحتفال بتسليمه الجائزة .

وحجرة العمل الخاصة بالأديب مجهزة بالحاجيات الشعبية الأصيلة من مدينة ترافنيك . وفى الطابق الأول توجد مكتبة ثرية بمؤلفات الأديب باللغة المحلية وترجمات لها باللغات الأجنبية وكذلك المقالات النقدية

والدراسات عن أعمال الأديب باللغة المحلية واللغات الأجنبية . وبعد وفاة الأديب تحول المنزل إلى متحف تذكارى له وأصبح معبداً حقيقياً للأدب يزوره كل يوم العديد من المحبين والعاشقين والمعجبين والمقدرين لأدبه وأعماله .

وتوجد بالمدينة أيضاً المكتبة القومية التى تحمل اسم إيفو أندريتش وبها ما يزيد على أربعن ألف كتاب موجودة فى متناول يد القراء وفى خدمة المترددين على المكتبة . وهناك مكتبة للأطفال فى مبنى خاص . وكتب هذه المكتبة القومية فى متناول يد سكان القرى النائية بفضل المكتبة المتنقلة التى تنقل هذه الكتب إلى هؤلاء القراء .

جسر على نهر درينا

جمهورية البوسنة والهرسك ثرية ثراء غير عادى بالجسور الحجرية المشيدة فى فترة وجود الأتراك العثمانيين بهذه المنطقة . والجسور الحجرية هى الوحيدة التى استطاعت أن تقاوم الزمن وظلت باقية حتى يومنا هذا بينما جميع الجسور القديمة المشيدة من الأخشاب تحطمت وانهارت .

ويعتبر الجسر الحجرى بناء معمارياً يتألف من مجموعة من العناصر المعمارية التى تعد نتيجة منطقية للأغراض التى تم تشييد الجسر من أجلها وللامكانات المعمارية المتوافرة . وهو كذلك محصلة نهائية لأفضل الحلول المتاحة القائمة على تكثيف أفضل التجارب السابقة . ومن جسر إلى جسر كانت الأحوال المتميزة والظروف الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية تدفع مصمم الجسر ومشيده لأن يعد تصوراً لحل معين وأن يبحث ، وهو يمزج بين هذه العناصر ، عن أنسب العلاقات فيما بينها التى ترضى الموقف الراهن . وهكذا كان لكل جسر من الجسور تميزه وشكله وروحه .

وتتوفر فى كل جسر حجرى العناصر الأساسية التالية : الأساس والأعمدة والقباب والأسوار الأمامية وحشو الجسر والتيجان والحواجز الأمامية والعناصر التكوينية والمعمارية والإضافية .

ومن الجسور المشهورة فى البوسنة والهرسك جسر موستار القديم الذى يثير إعجاب كل زائر بجماله وفتنته وروعته . ولا يقل عنه جمالاً

الجسر المقام على نهر جيبا ، وجسر « العنزة » المقام فى مدخل مدينة سرايفو ، وجسر أرسلان أغا عند بلدة تريبينا والجسر المقام فى كليبتسى عند تشابلينا وجسور كثيرة أخرى تنتشر فى ربوع البوسنة .

ولكن من المؤكد أن أجمل هذه الجسور هو الجسر الحجرى الكبير المقام على نهر درينا . وهو جسر ثمين فى بنائه فريد فى جماله ولا تملك مثيلاً له مدن تتفوق على مدينة فيشيجراد تفوقاً كبيراً فى الثراء والتجارة . وقديماً كان يقال أن المملكة كلها ليس فيها إلا جسران اثنان من هذا الطراز . وقد نشأ الجسر فى ذلك المكان الذى دعت الحاجة وأوجبت الضرورة إلى عبور نهر درينا منه .

ومنذ قدماء الرومان وعبر كل العصور الوسطى كانت هناك أهمية حيوية لإقامة مثل هذا الجسر وتزايدت الأهمية بانضمام البوسنة وصربيا إلى الامبراطورية العثمانية . والحق أن هذا الجسر هو الممر الوحيد الدائم المضمون على المجرى الأوسط والأعلى من نهر درينا ، وكان هو المعبر اللازم الذى يربط بين البوسنة وصربيا ، ويربط من خلال صربيا بين البوسنة وسائر أجزاء الامبراطورية العثمانية حتى اسطنبول .

وليس من نافلة القول التنوية إلى أن رحلة السفر عبر طريق القسطنطينية بما فيها المرور على هذا الجسر لم تفقد أهميتها حتى يومنا هذا . والجسر نفسه باعتباره بناء استراتيجياً اكتسب أهمية بالغة فى جميع اللحظات العصيبة لتاريخ الشعوب اليوغسلافية . ففى خلال الثورة الصربية الأولى فى أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية ظل جسر فيشيجراد نقطة استراتيجية غاية فى الأهمية حدث من أجلها صراع بين مصالح القوى المتعارضة ، ولذلك أصيبت القيمة الثقافية والتاريخية والمعمارية لهذا الجسر تحت ضغوط الغليانات الاجتماعية . ونفس هذه الأهمية وتلك القيمة الكبيرة للجسر هى التى كانت تدفع إلى إعادة إصلاح أجزائه المحطمة بعد كل هدوء يعقب أى غليان اجتماعى .

وعند الجسر نفسه وعلى الضفة اليمنى من نهر درينا يقع مركز مدينة فيشيجراد وسوقها الشرقى الذى يمتد جزء منه فى السهل ويثوى جزء آخر على منحدرات الربى . وفى الجهة الأخرى من الجسر ، وعلى طول الضفة اليسرى ، ينبسط سهل مالوهين وبه ضاحية سكنية تنتشر ديارها حول الطريق المؤدى إلى سرايفو .

وتوجد بين هذا الجسر وبين حياة سكان مدينة فيشيجراد رابطة حميمة عمرها قرون . ومصير هذا الجسر ومصير فيشيجراد بلغا من التداخل أن المرء لا يستطيع أن يتخيلهما منفصلين . فقصة نشأة الجسر ومصيره هى فى الوقت نفسه قصة حياة المدينة وسكانها من جيل إلى جيل . كما أن جميع الحكايات التى تُروى عن هذه المدينة ينظمها خيط الجسر الحجرى ذى القناطر الإحدى عشرة الذى تتوسطه بوابة كأنها له تاج . وتتشابك الحكايات عن التغيرات والأحداث التاريخية وعن تجارب الجماهير وعن الهزات التى أصابت المدينة وعن مصائر الأفراد . وعلى الجسر أو بجانبه تمر فى تسلسل تاريخى الحياة القلقة المنفعلة للبشر ومصائرهم المضطربة .

وهذا الجسر المشهور يعد أحد الأوقاف الخيرية التى أقامها واحد من أكبر حكام عصره الوزير الأكبر محمد باشا سوكولوفيتش ، وهو - من ناحية أخرى - يعد إنجازاً معمارياً لواحد من أكبر المهندسين المعماريين فى تاريخ فن المعماز المهندس ميمار سينان .

والوزير الأكبر محمد باشا سوكولوفيتش مولود فى أوائل القرن السادس بقرية سوكولوفيتش على مسافة غير بعيدة من مدينة فيشيجراد ، وقد نقل إلى القسطنطينية وهو صغير السن . وبفضل قدراته وكفاءاته ومواهبه وصل إلى منصب الوزير الأكبر . وخلال عهود ثلاثة من السلاطين العثمانيين حكم الامبراطورية لمدة خمسة عشر عاماً . وقد سقط ضحية للاغتيال فى عام ١٥٧٩م .

ولم ينس أبداً هذا الحاكم الكبير بلدة مسقط رأسه ولذا فإنه بالإضافة إلى المبانى التى شيدها فى القسطنطينية ويدرينا وحلب والمدينة شيد فى مسقط رأسه مسجداً ومسافرخانة وشبكة مياه . وأمر أيضاً بتشييد هذا الجسر على نهر درينا على نفقته الخاصة وبأحدث السبل الممكنة وأفضل الإمكانيات المتاحة آنذاك . وأوقافه الخيرية منتشرة فى جميع أنحاء الأراضى اليوغسلافية .

أما المهندس المشهور ميمار سينان فأعماله تمثل أفضل إنجازات فن العمارة العثمانى فى وقت ازدهاره . والمشروعات التى نفذها والمبانى التى أقامها تضعه فى مصاف كبار المهندسين المعماريين فى تاريخ فن المعمار على الإطلاق . وقد أقام فى جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية المترامية الأطراف قائمة طويلة من المشروعات والمبانى يوجد من بينها ثمانية جسور كبيرة ومن بينها جسر فيشيجراد الذى يعد الانجاز الأخير الذى أقامه سينان من هذا النوع . وهو عمل جمع وكثف فيه الحد الأقصى من خبراته وتجاربه ومعارفه الثرية حتى ذلك الحين وقد بلغ من العمر ثمانين عاماً .

والعناصر المعمارية التى تم منها تشييد الجسر المقام على نهر درينا تكشف عن روح التقاليد الشرقية الثرية وتشكل انطباعاً بالبساطة التقليدية الهادئة . والجسر له إحدى عشرة قنطرة يتراوح قطرها بين ٦,٢٠ و ١٨,٢٠ متر . وينبسط خلف الجسر واد رحب يتموج وكأن الجسر قاعدة له . وتظهر فى هذا الوادى مدينة فيشيجراد الصغيرة وضواحيها .

والهيكل الرئيسى للجسر محمول على عشرة أعمدة حجرية قوية ذات أحجام غير متساوية . ويبلغ الطول الإجمالى للجسر ثلاثمائة متر ، وعرضه ستة أمتار . وهو مرتفع قليلاً فى الوسط ، وهذا أمر مألوف فى الجسور العثمانية . ويحيطه من الناحيتين إفريز حجرى ارتفاعه متر واحد وعرضه ستون سنتيمتراً .

وتزين وسط الجسر بوابة حجرية عالية بها عبارات تتعلق بمعلومات عن تشييد الجسر . وهذه العبارات عبارة عن أبيات من الشعر نظمها شاعر من القسطنطينية يقال له بديع ، وفيها إشارة إلى اسم مشيد الجسر وأصله ولقبه وكذلك إلى العام الذى تم فيه تشييد الجسر وهو عام ٩٧٩ هجرية ، أى عام ١٥٧١ ميلادية .

والشاعر بديع هذا كان ينظم أشعاراً خفيفة فى مقابل نقود كثيرة . وكان يعرف كيف يفرض أشعاره هذه بمهارة بالغة على أقوياء هذا العالم الذين يشيدون مبانى عظيمة . وبالرغم من العطايا الجزيلة التى كان يحصل عليها الشاعر بديع فقد كان بائساً يتضور جوعاً وفى صراع دائم مع الفقر .

وكتب بديع يقول : هذا محمد باشا أعظم العظماء وأحكم الحكماء فى عصره . لقد وفى بالعهد الذى قطعه على نفسه ، فأقام برعايته وجهوده هذا الجسر على نهر درينا . وعلى هذا النهر العميق السريع الجريان لم يستطع أن يفعل السابقون له شيئاً . والله أسأل أن يجعل مبناه قوياً متيناً ، وأن يرفل بثوب السعادة وألا يعرف الحزن إلى قلبه سبيلا ، لأنه ظل طوال حياته ينفق الفضة والذهب فى أعمال الخير . وما من أحد يستطيع أن يقول أن المال الذى ينفق فى هذه الوجوه يذهب سدى . إن « بديع » الذى رأى كل ذلك نظم هذه الأشعار حين انتهى بناء الجسر . بارك الله هذا المبنى الذى بلغ فى جماله الإعجاز .

ويعلو هذا النص عبارات أخرى أحدث تاريخاً تتألف من ستة أبيات شعرية كتبها الشاعر « نيهادى » المولود فى سرايفو .

وبعد تشييد الجسر نمت مدينة فيشيجراد الموجودة حوله . وخلال القرون التالية استمرت منزلته ومعناه فى حياة سكان المدينة ، وكان معناه وجوهر وجوده فى بقائه ودوامه . فالقمر يكبر ويصغر فوقه والأجيال

تولد وتموت حوله وهو باق لا يتبدل كتلك المياه التى تجرى تحت قناطره . ولئن أصابه الهرم فإن شيخوخته كانت تدلف إليه من مقياس زمنى أكبر من أعمار أجيال كثيرة بحيث أن العين لا يمكنها أن تبصر تقدمه فى السن . ورغم أن مصير الجسر إلى فناء فقد كانت حياته تبدو خالدة لأن نهايته لا يمكن التنبؤ بها .

ويتحدث أوليا شلبى فى كتاب رحلاته عن الاصلاحات التى أجريت على الجسر منذ نشأته وحتى القرن التاسع عشر . وحسبما هو معروف حتى يومنا هذا فإن الجسر تواجد فى أشد المواقف صعوبة فى خريف عام ١٨٩٦ حينما فاض نهر درينا الذى ثبت فى وجه أقوى الظواهر المائية الطبيعية كان ضحية لأعمال التدمير خلال الحربين العالميتين . ففى عام ١٩١٤ وفى أثناء انسحاب النمساويين من أمام الجيش الصربى أصابوا بالمتفجرات أحد أعمدته وذلك من أجل إعاقة تقدم أفراد الجيش الصربى . وفى خريف العام التالى (عام ١٩١٥) قام الجيش الصربى لنفس الأسباب بتدمير أحد أعمدة الجسر لاضطراره للانسحاب أمام الهجوم النمساوى .

وبعد عودة النمساويين إلى مدينة فيشيجراد سرعان ما أقاموا هيكلاً حديدياً يسمح بمرور المواصلات على الجزء المحطم . وفى عام ١٩٤٠ تم إجراء تجديدات بهذا الجزء من الجسر وأصيب الجسر مرة ثانية وفى نفس المكان فى عام ١٩٤٣ خلال الحرب العالمية الثانية . وأجريت أعمال الإصلاح والتجديد تحت إشراف الهيئة الإقليمية لحماية الآثار بالبوسنة في الفترة من عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٥٢ . ومنذ ذلك الحين والجسر يتلألأ بنوره القديم إلى أن جاء عام ١٩٩٢ حينما أصيب الجسر بإصابات لم يتم تحديدها حتى الآن .

ويعتبر العديد من الخبراء أن أهمية هذا الجسر يمكن مقارنتها بأهمية

المبانى التى أقامها كبار فنانى عصر النهضة الإيطاليين مثل برامانت وميخائيل انجلو . ومن المؤكد أن الجسر الذى أقامه محمد سوكولوفيتش على نهر درينا يعد من أعظم آثار فن العمارة فى العصر العثمانى .

وقد دخل الجسر فى مجال الأمثال الشعبية فيقال أنه « صلب كالجسر المقام على نهر درينا » ، أو يقال أنه « دام مثل جسر على نهر درينا » . وهذا المثل الشعبى الأخير يرجح أنه ظهر بعد أحد الفيضانات الكبيرة مثل ذلك الفيضان الذى حدث فى نوفمبر عام ١٨٩٦ .

والجسر المقام على نهر درينا هو الشخصية الرئيسية فى الرواية المشهورة والمعروفة بهذا الاسم ، التى كتبها الأديب إيفو أندريتش وصور فيها أربعة قرون من حياة مدينة فيشيجراد وجسرها ، تبدأ من القرن السادس عشر وتنتهى بالحرب العالمية الأولى .

وهذه الرواية تعد فيلماً مستمراً لا ينقطع من الأحداث المثيرة . وإطار هذه الأحداث هو مدينة فيشيجراد بمناظرها الطبيعية الخلابة ، غير أن المسرح الحقيقى المشترك لهذه الأحداث هو الجسر المقام على نهر درينا . وهذا الجسر الذى يعده كاتب الرواية بأنه لا مثيل لجماله ويدهش المرء من وجوده فى هذه المدينة الصغيرة البعيدة ، هو المحور الذى يربط أجزاء هذه الرواية الفريدة بعضها ببعض ، وهو كالخيط الرفيع يربط الأحداث التى تقع بالمدينة وعهودها المختلفة . وهذا الجسر شاهد على انتهاء أجيال ومولد أجيال أخرى ، وكل جيل جديد يحمل معه آمالاً متباينة وأفكاراً متجددة عن الحياة وعن القضايا الكبرى للوجود وعن الهدف من وجود الإنسان فى الحياة . وتتغير من عهد إلى عهد حياة المدينة ويتبدل وجهها ويظل الجسر على الدوام ثابتاً يقاوم جميع عواصف الطبيعة وزوابع التاريخ بينما الجسر فى وحدته وجلاله وعظمته صامد لا يقهر . وتتابع التغيرات على الجسر بلا انقطاع مثلها مثل النهر الذى يجرى أسفله .

والفصول المختلفة التى تتألف منها هذه الرواية هى كلها أقاصيص تربط بالجسر المقام على نهر درينا . والفصول الأولى لهذه الرواية مخصصة لكيفية بناء الجسر . وبواقعية كاملة تم وصف أساليب السخرة التى استخدمت فى إنشاء الجسر . ويعيد أندريتش الحياة ، نقلاً عن الأساطير وعن الحكايات الشفاهية ، إلى المواقف الحرجة الخطيرة حول تشييد الجسر ، ويبرز القصص الخرافية عن الجسر وعن الثورات الخفية لعمال السخرة وعن أنشطتهم التخريبية وانتقامهم العجيب من السادة الأتراك . وكان أندريتش واقعياً بدرجة غير مألوفة حينما وصف الغضب الشديد لعبيد أغا والانتقام التركى الفظيع وما تركه من أثر مريع فى نفوس الجماهير الخائفة ومناظر السخرة .

وتحدث أيضاً على هذا الجسر المآسى البشرية الدامية . فخلال الثورة فى صربيا يتم استخدام الجسر ، ذلك الإنجاز المعمارى العظيم من الناحية الفنية ، كمكان للإعدام بهدف صب الرعب والفزع فى قلوب ونفوس سكان المدينة فى الوقت الذى يفيض فيه طوفان التاريخ بالأحداث كما يتسبب الطوفان الطبيعى لنهر درينا فى فيضانه على الزرع والضرع . وهكذا تحدث الهزات التاريخية وتمر والجسر الحجرى ثابت وصامد فى مكانه معبراً عن زوال الحياة حوله ومضى القرون التى تمر عليه وتضيع فى بئر الأبدية . إن هذا الجسر ، فى تصور أندريتش ، كالزمن . إنه الفيلسوف الروائى الصابر فى هذه الحياة .

وبنظرة متأنية إلى هذه الرواية التاريخية يمكن التأكيد بأن محورها الأساسى هو الكفاح الأبدى للإنسان ضد السيل الجارف من المصائب ، سواء أكانت فى شكل كوارث طبيعية مثل الفيضانات والحرائق والزلازل ، أم كانت فى شكل بلايا اجتماعية غير متوقعة لا يمكن التغلب عليها مثل الأوبئة والحروب والظلم . ودائماً ما كان أندريتش يفكر تفكيراً فلسفياً

عميقاً بهدف البحث عن أسبابها الدفينة وإلقاء ضوء شامل عليها . وهكذا أصبحت مدينة فيشيجراد بجسرها صورة مصغرة للأحداث الكبرى فى العالم . وقد ساق أندريتش كل هذه الأحداث بأسلوب قصصي رائع وبسرد تاريخى محكم . وقد نال عن هذه الرواية بعض الجوائز الأدبية .

الكلمات العربية فى اللغة الصربوكرواتية

من الحقائق المهمة التى تبرز أمامنا باستمرار فى هذا العالم المترامى الأطراف أن اللغة هى الوسيلة العصرية المتعارف عليها للتفاهم بين البشر ولذا فإنها تتعرض لمختلف أنواع التأثيرات الخارجية على مر الأزمنة والعصور . ومن أنواع هذه التأثيرات الخارجية هو ظهور الكلمات الأجنبية فى لغة من اللغات . ولا ريب بل ربما من المؤكد أن من الأسباب الرئيسية لظهور الكلمات الأجنبية فى لغة من اللغات هو اتصال واختلاط شعبين أو أكثر من الشعوب بأسلوب أو بآخر . ومن أجل كل هذا قرر علماء اللغة أن العنصر الأجنبى – وبالتحديد الكلمات الأجنبية – موجود بشكل أو بآخر وبدرجات متفاوتة ومتباينة فى أية لغة من لغات العالم تقريباً وذلك لأنه لا يمكن لأية لغة مهما بلغت أن تعيش بمعزل عن الاتصال بغيرها من اللغات أو أن تعيش بمنأى عن مختلف التأثيرات الخارجية .

ونضيف إلى ذلك أنه ليست هناك لغة حية نظيفة مائة فى المائة ، أى لغة خالية خلواً تاماً من الكلمات الأجنبية . وقد أصبح الآن من المعروف أن كل لغة متطورة أو كل لغة تريد أن ترتدى ثياب العصرية لابد وأن تستعير من أخواتها اللغات الأخرى حسب احتياجاتها ومتطلباتها أى حسب احتياجات ومتطلبات عصرها الذى تحيا فيه . وكما يحدث بالنسبة لانتقال الناس من مكان إلى مكان فإن الكلمات هى الأخرى تنتقل إلى كل مكان أو بعبارة أصح من لغة إلى أخرى . ولا شك أن هناك العديد من العوامل والعناصر هى التى تحدد مدى ودرجة تعرض لغة من اللغات إلى تأثير اللغات الأخرى عليها ومن هذه العوامل على سبيل المثال لا الحصر تجاور

الشعوب واختلاف ثقافتها وتعرضها للاحتلال سواء أكان عسكرياً أم ثقافياً أم اقتصادياً .

ولقد كانت الشعوب اليوغسلافية على اتصال مستمر ودائم بكثير من الشعوب العربية عبر السنين وذلك بسبب الوضع الجغرافى للأراضى اليوغسلافية والدور التاريخى الذى قامت به فى منطقة البلقان . ولذا فإن شعوب هذه المنطقة لم تستطع الإفلات من التأثيرات العربية التى وصلت إلى أماكن عديدة ومترامية ، وتظهر هذه التأثيرات بجلاء فى الكلمات والمصطلحات والتركيبات اللغوية العربية الموجودة فى اللغة الصربوكرواتية وهى اللغة السائدة فى يوغسلافيا سابقاً .

ومن الثابت أن هناك عوامل عدة هى التى شكلت الظروف وخلقت الإمكانات اللازمة لتسلسل وتغلغل الكلمات العربية فى اللغة الصربوكرواتية . ورغم أن الكلمات الشرقية (ويقصد بها الكلمات العربية والتركية والفارسية) قد أخذت تتغلغل بأعداد كبيرة فى اللغات البلقانية وخاصة اللغات السلافية البلقانية مع ظهور الأتراك العثمانيين فى هذه المناطق إلا أنه لا يمكننا أن ننكر وجود تأثيرات لاحقة على هذه اللغات البلقانية من جانب الشعوب العربية . ومن بين هذه التأثيرات تأثير الآفار وهو شعب منغولى كانت له دولة عظيمة فى آسيا الصغرى وشرق آسيا ابتداء من القرن الرابع الميلادى وحتى القرن السادس . وفى القرن السادس انتقل جزء من هذا الشعب المنغولى إلى أوروبا ونزح إلى نهر الدانوب وثبت سلطانه على المنطقة الواقعة بين بحر أزوف (فى شمال البحر الأسود) وحتى شلسكا (وهى المنطقة الواقعة بين بولندا وتشيكوسلوفاكيا الحالية) وذلك بعد أن أخضع كثيراً من قبائل الهون والبلغار والسلاف ، ولا شك أن ظهور الآفار فى وادى بانون واتصالهم بسكان منطقة البلقان وخاصة السلاف الجنوبيين أدى إلى ظهور بعض التأثيرات التركية التتارية والعربية على اللغات البلقانية .

ولقد كان الباحثون فى هذا المجال يقررون إلى عهد قريب أن الحكم التركى لبعض الشعوب اليوغسلافية ، الذى استمر خمسة قرون ، هو المسئول أولاً وأخيراً عن ظهور الكلمات الأجنبية الشرقية وخاصة الكلمات العربية فى اللغات السلافية وفى اللغات البلقانية بوجه عام. وباتصال الأتراك بهذه الشعوب البلقانية أخذ تأثيرهم على هذه الشعوب يشتد وقد ترك هذا التأثير آثاراً جلية متباينة فى هذه المناطق وفى لغاتها وثقافتها وكان علماء اللغة يدرجون الكلمات العربية الموجودة باللغة الصربوكرواتية تحت اسم الكلمات التركية . ومن المفهوم أن سبب هذا الخطأ هو غياب ونقص الأبحاث المتخصصة التى تدرس بشكل خاص موضوع الكلمات العربية فى اللغة الصربوكرواتية وتأثير العرب على شعوب البلقان .

إلا أننى خلال بحثى فى هذا المضمار برهنت على أنه كانت هناك على مر القرون وقبل احتلال الأتراك لهذه المناطق اتصالات عديدة تمت بين الشعوب العربية وبين الشعوب اليوغسلافية . ومما لا شك فيه أن هذه الاتصالات والعلاقات قد تركت آثارها على اللغة أيضاً . وقد أثبتّ خلال بحثى بالدليل القاطع أن هذه الاتصالات بين العرب وبين الشعوب البلقانية ومن بينها الشعوب اليوغسلافية سابقاً بدأت منذ عهد الخلفاء الراشدين . ولا شك أن هذه الحقائق الجديدة المدعمة بالأدلة التاريخية تدحض النظريات السابقة .

وأعتقد أن هذا الأمر يحتاج إلى وقفة متأنية نشرح فيها كيف تمت هذه الاتصالات والعلاقات بين الشعوب العربية وبين الشعوب اليوغسلافية التى لم تكن معروفة فى ذلك الحين بهذا الاسم وإنما كان يطلق عليها اسم «السلاف الجنوبيون». وكان هؤلاء السلاف الجنوبيون موجودين فى الامبراطورية البيزنطية أو بعبارة أصح نزح هؤلاء السلاف إلى شبه جزيرة البلقان ابتداء من القرن السادس الميلادى . وقد رأى الامبراطور البيزنطى أن يجند هؤلاء السلاف فى جيشه حتى يسد العجز الموجود فى

جيشه نتيجة لعدم وجود العدد الكافى من الجنود البيزنطيين . وتحول السلاف الجنوبيون إلى قوات تحارب مع البيزنطيين وترد هجمات العرب المتكررة .

والأهم من ذلك أن السلاف الجنوبيين لم يحاربوا فقط مع البيزنطيين وضد العرب بل حاربوا أيضاً مع العرب وضد البيزنطيين . وتذكر كتب التاريخ أنه فى عام ٦٦٥م . وفى عهد القيصر البيزنطى قسطنطين الثانى (٦٤١ - ٦٦٨م .) انتقلت وحدة عسكرية بيزنطية قوامها خمسة آلاف جندى من السلاف الجنوبيين إلى صف القائد العربى عبد الرحمن واستوطنت سوريا .

وتحكى كتب التاريخ كذلك أنه قد جرت معارك دموية على الحدود بين الامبراطورية البيزنطية وبين الدولة الإسلامية فى عهد الأمويين والعباسيين . وقد استمرت هذه المعارك والحروب ثمانية قرون اشترك فيها السلاف الجنوبيون مع المسلمين ومع البيزنطيين . وحتى بداية القرن العاشر الميلادى تقريباً كانت تتكرر كل عام تقريباً الهجمات من الجانبين ويتم أسر الجنود وتبادلهم . ومن المؤكد أن كل هذا يؤدى إلى حدوث اتصالات مباشرة بين العرب وبين السلاف الجنوبيين وإلى تبادل الاتجاهات الروحية والأفكار وأسباب الحضارة والثقافة . ولا يخفى على أحد تأثير كل هذا على اللغة .

ونضيف إلى ذلك الهجمات العربية على بحر الادرياتيك والتى استمرت هى الأخرى قرنين كاملين على فترات متقطعة ثم الدور الذى قام به التجار الفاطميون فى نشر الثقافة والحضارة وكذلك اللغة العربية . ولا ننسى كذلك اشتراك السلاف الجنوبيين فى الحروب الصليبية .

ثم بعد كل هذا أتى الأتراك إلى الأراضى اليوغسلافية سابقاً وجلبوا معهم نظاماً اجتماعياً وإدارياً جديداً وحملوا معهم كذلك عناصر الحضارة

الثقافية العربية والإسلامية . وقد كانت الامبراطورية التركية بحق تقوم بدور الوسيط والناشر لعناصر الثقافة العربية بين السلاف فى منطقة البلقان كلها وقد قام بنقل هذه العناصر كل شخص تقريباً ابتداء من الجندى والتاجر وعن طريق رجل الدين والحجاج وكذلك عن طريق الولاة والحكام ورجال القلم بوجه عام . وخلال حكم الأتراك لهذه البلاد ظهر العديد من الأفكار والتصورات والمؤسسات والمصالح فدخلت بأسمائها دون تغيير فى اللغة الصربوكرواتية . ويمكننا الآن أن نؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الأتراك ثبتوا عناصر الحضارة والثقافة العربية والإسلامية التى كانت موجودة قبل غزوهم للأراضى اليوغسلافية وأضافوا عليها الكثير . وكان التأثير عميقاً لدرجة أن كثيراً من العناصر الشرقية مازالت موجودة حتى الآن وبعد مرور فترة طويلة من الزمن على انتهاء وجود الأتراك فى هذه المناطق .

ومن المؤكد الآن أنه كانت هناك ثلاث سبل تعد هى السبل الرئيسية التى تم عن طريقها نشر وانتشار هذه الكلمات الشرقية واتساع استخدامها لدى جماهير الشعب الصربىوالكرواتى وعلى الأخص لدى سكان البوسنة والهرسك حتى يومنا هذا . وكان السبيل الأول هم أهل البلاد من المسلمين الذين يجيدون اللغة الصربوكرواتية والذين تعلموا فى القسطنطينية ، وبعد عودتهم من دراستهم لم يكن بإمكانهم التخلص من تأثير اللغتين العربية والتركية عليهم . وابتدعوا فى أعمالهم ونشاطاتهم فى مختلف المجالات الثقافية والدينية نوعاً من اللغة الوسط بين اللغتين العربية والتركية وبين لغتهم الأصلية الصربوكرواتية بحيث أنهم كانوا يستخدمون بالنسبة لكثير من المعانى الكلمات العربية والتركية والفارسية بعد تطويعها لروح وتطور اللغة الصربوكرواتية .

ورغم أن اللغة التركية من حيث أصلها وتركيبها تختلف اختلافاً عظيماً عن اللغة العربية إلا أن اللغة التركية قد أخذت من اللغة العربية

الكثير من الكلمات والتعبيرات وأضافت عليها البوادئ واللواحق التركية أو حورت وغيرت فى معانيها وفى نطقها . وانتقلت هذه الكلمات بتغيراتها وأشكالها الجديدة إلى اللغة الصربوكرواتية ، واستخدمها اليوغسلاف وعلى الأخص أهل البوسنة كما هى أو ربما أضافوا عليها أيضاً البوادئ واللواحق الخاصة باللغة الصربوكرواتية أو استخدموا بجانبها الأفعال المساعدة مثل يكون ويضع ويفعل .... إلخ . ولا شك أنهم كانوا مضطرين إلى ذلك لجهلهم النسبى بلغتهم الأصلية . فهم بجانب تعلمهم اللغات العربية والتركية والفارسية فى القسطنطينية لم يكن بإمكانهم أن يدرسوا فى نفس الوقت أيضاً لغتهم الأصلية . ومن هنا أتى عجزهم وعدم قدرتهم على إيجاد كلمات من لغتهم الأصلية تناسب وتعبر عن كثير من الأفكار والتعبيرات التى تعلموها باللغات المذكورة .

وقد ظهر نشاط هؤلاء الأفراد الذين تعلموا فى القسطنطينية فى المدارس الدينية وفى الكتاتيب وفى المواعظ والدروس الدينية المختلفة . وكان التلاميذ بهذه المدارس وكذلك المسلمون المحليون الذين كانوا غالباً ما يستمعون إلى دروس الوعظ – هم همزة الوصل ، وكانت عن طريقهم تتغلغل الكلمات العربية وغيرها من الكلمات الأجنبية وسط طبقات الشعب العريضة وتطبعت هذه الكلمات بطابع الكلمات الصربوكرواتية .

ولابد أن ننوه فى هذا المضمار أن اللغة العربية كانت هى الناقل الرئيسى ووسيلة التعبير الأساسية عن الثقافة الإسلامية بوجه عام . ولذا فإن تأثيرها على اللغة الصربوكرواتية انتشر واتسع فى كل مكان تقريباً وحتى خارج نطاق الدين . ولا ينبغى أن ننسى أن اللغة العربية هى لغة الإسلام وهى بالتالى لغة كل من اعتنق الإسلام . وبذلك أصبحت اللغة العربية إلى حد ما فى متناول جميع المسلمين بغض النظر عن قومياتهم وعن ثقافتهم . ومن المرجح أن عدداً من الكلمات العربية الموجودة فى اللغة الصربوكرواتية وخاصة تلك الكلمات التى تتعلق أساساً بالحياة

الدينية للمسلمين وبالدين الإسلامى وشعائره وبأسماء المسلمين وألقابهم – دخلت إلى اللغة الصربوكرواتية مباشرة من اللغة العربية .

وفيما يتعلق بالعامل الثانى فمن الحقائق العامة المعروفة أن الشعر والنثر والتراث الشعبى باللغة الصربوكرواتية تتوفر فيه بغزارة الكلمات العربية خاصة والكلمات الشرقية بوجه عام . ولم يكن جامعو التراث الشعبى وكذلك أولئك الذين كانو ا يشتهرون بأنهم شعراء يقرضون شعراً مماثلاً للشعر الشعبى – يدافعون عن تطهير الشعر والتراث الشعبى من هذه الكلمات المستعارة واستبدالها لإحساسهم أنها ليست بالغريبة عليهم . ونظراً لشدة تعود عامة الشعب على هذه الكلمات وسط الشعر الشعبى كانوا دائماً ما يتغنون به فقد أصبحت هذه الكلمات كالملح والبهارات للطعام أى أنه لا غنى ولا بديل عنها مطلقاً . ومن الطبيعى أن مثل هذا الشعر الشعبى قد أثر أيما تأثير فى اللغة اليومية لعامة الشعب .

ومما لا ريب فيه أن بعض اللغات الأوروبية هى السبيل الثالث الذى دخلت عن طريقه بعض الكلمات العربية إلى اللغة الصربوكرواتية . ومن هذه اللغات الانجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية وغيرها . ومن المعروف أن هذه اللغات الأوروبية تقبلت خلال القرون الوسطى عدداً من الكلمات العربية التى تم نقلها عن طريق مختلف العلوم مثل علوم الفلك والرياضة والكيمياء والطب وغيرها . والكلمات التى وردت عن طريق هذه اللغات قليلة ومحدودة الاستخدام ولها مميزات خاصة . وقد كثرت الدراسات المتخصصة فى هذا المجال الذى يبرز فضل اللغة العربية والعرب على لغات العالم .

وهناك قضية تستحق المناقشة ، فمن المعروف أن التعصب أو التحمس للغة القومية يدفعان ويحثان أهلها إلى تطهير لغتهم من الكلمات الأجنبية . وتتوقف قوة هذا التطهير وشدته على ما إذا كان الأمر يتعلق

بمحاربة تأثيرات أجنبية مفروضة بالقوة وبمحاربة تأثيرات تهدد اللغة القومية أم أن الأمر لا يتعدى كونه تأثيراً سلمياً طبيعياً للغة أجنبية على اللغة القومية .

وفى هذا المضمار لابد أن نبرز حقيقة هامة وهى أن موقف رجال اللغة وعلمائها حيال الكلمات العربية والتركية أكثر تساهلاً وتسامحاً من موقفهم حيال الكلمات المستعارة الأخرى المأخوذة من اللغات غير السلافية وذلك خلال عملية تطهير اللغة الصربوكرواتية من الكلمات الغربية المستعارة . وعلماء اللغة الصربوكرواتية ورجالاتها أمثال فوك وياجيتش وماريتش كانوا أنفسهم يستخدمون الكلمات العربية والتركية فى أبحاثهم ومؤلفاتهم ، ومن الطبيعى أن موقفهم حيال مثل هذه الكلمات كان يختلف اختلافاً بيّناً عن موقفهم حيال الكلمات الأجنبية عامة والكلمات الألمانيــة خاصة . والسبب الأساسى لذلك يرجــع إلــى أن اللغــة الصربوكرواتية كانت تتطور وتنمو بحرية تحت الإدارة التركية . هذا علاوة على أن الأتراك خلال سيطرتهم على الأراضى اليوغسلافية لم يكترثوا كثيراً بعادات أهلها ولا بلغاتهم ، ولم يتم فرض الكلمات التركية أو العربية بالقوة أو بتدبير معين . ووجود هذه الكلمات العربية فى اللغة الصربوكرواتية لم يثر أى احساس بالمهانة أو الضيق لدى جماهير الشعوب اليوغسلافية بحيث أنها كانت تتساهل وتتسامح مع الألفاظ العربية والتركية التى يوجد لها بديل مناسب فى اللغة الصربوكرواتية ويستمر هذا التساهل حتى فى اللغة الأدبية الفصحى وفى لغة الأدب المنثور .

ومن الغريب أن الباحثين كانوا فى الجمهوريات اليوغسلافية السابقة يدرجون الكلمات العربية باستمرار ضمن الكلمات التركية ويتناسون أن اللغة العربية هى الأصل . ويرجع السبب الرئيسى فى ذلك إلى نقص الأبحاث والدراسات العلمية الجادة التى تهتم بالكلمات العربية فى اللغة الصربوكرواتية . ولكن لابد أن ننوه هنا على الفور أنه بدأت فى السنوات

الأخيرة فحسب تظهر محاولات علمية جادة من جانب مجموعة من الشباب المتحمس للعلم وللحقيقة رغبة منهم فى إلقاء أضواء الحقيقة على هذا الموضوع .

وأهم الأبحاث الجادة التى قامت بدراسة الكلمات التركية بما فيها الكلمات العربية هو قاموس المستشرق المعروف عبد الله شكاليتش وعنوانه « الألفاظ التركية فى اللهجات الشعبية والأدب الشعبى لمنطقة البوسنة والهرسك » . وكما نرى من عنوان هذا القاموس فإنه لم يركز إلا على الأدب الشعبى بينما هناك العديد من المصادر الأخرى التى تفيض أيضاً بالألفاظ العربية . والأمل معقود على أن يقوم المؤلف بإستكمال هذا النقص .

وحسب ما ذكره مؤلف هذا القاموس فهو يحتوى على ٦٥٠٠ كلمة منها حوالى ٣٨٠٠ كلمة من أصل عربى ، ومن هذا يتبين لنا أن أكثر من نصف الكلمات الأجنبية كلمات عربية الأصل . وعلاوة على هذا فقد قام المؤلف بجهد مشكور فى تنقيح قاموسه وإضافة بعض الألفاظ الأخرى التى اكتشفها وهذا بالطبع يزيد من قيمة وأهمية هذا القاموس .

وخلال بحثى فى رسالة الدكتوراة عثرت على حوالى ١٢٩ كلمة عربية غير موجودة بقاموس شكاليتش المذكور أو فى أية كتب أو أبحاث تتعلق بهذا الموضوع . وقد أوردت كذلك أمثلة على كيفية استخدام الكتّاب والأدباء من مختلف المناطق اليوغسلافية لهذه الكلمات . وهذا العدد وإن كان قليلاً فى حد ذاته إلا أنه يفتح الباب أمام الباحثين لتعميق الأبحاث والاستزادة من الدراسات فى هذا المجال .

ولا شك أن بعض النماذج والأمثلة للكلمات العربية الموجودة فى اللغة الصربوكرواتية سيعطى القارئ الفاضل صورة أحسن .

مأخوذة من كلمة عباءة ولكنها هنا فى البوسنة تطلق على نوع من القماش المحلى أو على الجبة المصنوعة من هذا القماش	**aba**
عـدالة	**adalat**
عــادة	**adat**
عجيب	**adžaip**
غير عربى . فارسى	**adžam**
عجلة . سرعة	**adžala**
أفيون	**afijun**
بركة	**berićat**
بدعة	**bid'at**
بالله	**bilahi**
بالخير	**bilhair**
بسم الله	**bismila**
بلبل	**bulbul**
كافر	**ćafir**
كافور	**ćafurija**
كاتب	**ćatip**
كفن	**ćefini**
الكمال	**ćemal**
(الكنيف) دورة المياه – المراحيض	**ćenifa**
كتان	**ćeten**
كباب	**ćebab**
كشف	**ćevs**
كبر . فخر	**ćibur**

ćitab	كتاب
ćufari	كفار
ćufur	كفر
ćup	كوب
ćurs	مأخوذة من كلمة كرسى وتعنى منبر الوعظ فى الجامع
daima	دائماً
daira	دائرة
dal	حرف الدال
dara	مأخوذة من كلمة طرح وتعنى ورق التغليف
dava	دعــوة
def	الدُف
dahšet	دهشة . بدهشة
dekika	دقيقة
delil	دليل . مرشد
derdža	درجة
ders	درس
dikat	دقة . عناية
din	دين
divit	دواية . محبرة
džabija	جابى الضرائب
džahil	جاهل
džaiz	جائز
džedval	جدول
džefa	من كلمة جفاء وتعنى المشاجرة والخلاف
džahalet	جهالة

džemat	جماعة
dženaza	جنازة
džerah	جرّاح
džerida	جريدة . صحيفة
džerima	غرامة
dževab	جواب
dževiz	جوز
džihad	جهاد
džilde	مأخوذة من كلمة جلد وتعنى السندان الذى يسند عليه صانع الأحذية والنعال عند الإصلاح
džilt	غلاف . جلدة
džins	جنس
džube	جبة
džuma	صلاة الجمعة
džunup	الجنب . غير الطاهر
ehalya	أهالى
ahli-kitab	أهل الكتاب
emer	أمر
emir	أمير
emri-ilahi	أمر الله
erbeir	مأخوذة من كلمة أربعين وتعنى حالياً الفترة الأولى من الشتاء وهى تستمر ٤٠ يوماً إبتداء من ٢٢ ديسمبر وحتى ٣١ يناير .

erzak	أرزاق
eser	أثر
esmer	أسمر
espap	من كلمة أثواب وتعنى الملابس والثياب
esrar	أسرار
eśtagfirulah	أستغفر الله
ešija	أشياء
ešraf	أشراف
evkaf	أوقاف
evlad	أولاد
evsat	أوسط . متوسط
faiz	فائظ
fajda	فايدة
fakir	فقير
falake	الفلقة . سوط الضرب
fani	فانى
farz	فرض
fasik	فاسق
fazla	فضلة
felah	فلاح
fen	فن . نوع
ferik	فريق . قائد الفرقة
fesad	فساد
feth	فتح
fid'ja	فدية

fikh	فقه
fil	فيل
fitilj	فتيل
frka	فرقة
gaflet	غفلة
gajret	غيرة
garet	غارة
gasul	غسل ويقصد به غسل الميت
habib	حبيب
hadis	حديث شريف

أول قاموس صربوكرواتى – عربى

اللغة العربية متواجدة فى بعض جمهوريات يوغسلافيا سابقاً منذ دخول الإسلام إليها عن طريق الأتراك العثمانيين فى أوائل القرن الرابع عشر . وتعمقت جذور هذه اللغة خلال حقبة مديدة من سيطرة الامبراطورية العثمانية على هذه المناطق امتدت لما يقرب من خمسة قرون ، وساعد على ذلك أن اللغة العربية هى لغة الإسلام الذى حمل لواء نشره في تلك المناطق الأتراك العثمانيون . وساهم أيضاً فى إنتشار اللغة العربية آنذاك وجود شبكة واسعة من المؤسسات التعليمية الإسلامية من كتاتيب ومدارس إبتدائية وإعدادية إسلامية ودور للمعلمين وغيرها . واللغة العربية هى كذلك لغة الثقافة والحضارة الإسلاميتين .

ومنذ ذلك الحين أصبحت اللغة العربية هى الوسيلة الرئيسية لإكتساب العلوم وبلوغ أرفع المناصب السياسية والاجتماعية والأدبية . ومن الطريف أيضاً أنه تم عن طريق اللغة العربية الحفاظ على قدر هائل من التراث الثقافى والأدبى لشعوب يوغسلافيا سابقاً ، ولشعب البوسنة والهرسك بشكل خاص . وهكذا استمر تواجد اللغة العربية فى هذه المنطقة حتى الوقت الحالى بالرغم من إنتهاء سيطرة الأتراك العثمانيين عليها ، وساعد على ذلك أن الدين الإسلامى مازالت – والحمد لله – جذوره راسخة هناك ومازال يعمر قلوب عدد كبير من المسلمين فى البوسنة والهرسك وغيرها من مناطق يوغسلافيا سابقاً مثل صربيا والجبل الأسود وكوسوفو ومقدونية .

وأضحت اللغة العربية فى الفترة التالية للحرب العالمية الثانية ، وعلى الأخص فى العشرين سنة الأخيرة ، فى عداد اللغات التى تلقى اهتماماً عاماً متزايداً على المستوى الجامعى وتحتم الضروريات الثقافية والاجتماعية معرفتها ودرايتها . وهناك فى الوقت الحالى أقسام لتدريس اللغة العربية فى الجامعات فى بلغراد بصربيا وسرايفو بالبوسنة والهرسك وبريشتينا بكوسوفو وسكوبلى بمقدونية وغيرها .

وإذا أضفنا إلى كل هذا ما حدث فى الآونة الأخيرة من انفتاح اقتصادى وسياسى وعلمى بين الدول العربية وبين الجمهوريات التى كانت تعرف من قبل باسم يوغسلافيا سندرك لماذا زاد الاحساس منذ فترة طويلة بضرورة وجود قاموس صربوكرواتى – عربى . واللغة الصربوكرواتية هى اللغة الأكثر إنتشاراً فى هذه المناطق .

والحقيقة أنه بالرغم من تزايد عدد المهتمين والدارسين للغة العربية فى البوسنة والهرسك بشكل خاص وفى المناطق اليوغسلافية بشكل عام ورغم طول الحقبة الزمنية التى جرى فيها تدريس اللغة العربية فى مختلف المؤسسات التعليمية بها ، ورغم أنها أصبحت إحدى اللغات الرسمية فى الأمم المتحدة إلا أنه إلى عهد قريب لم يكن هناك قاموس صربوكرواتى – عربى يسد مطالب واحتياجات الدارسين والمهتمين . ولا يخفى على أحد أن القواميس المزدوجة اللغة هى فى الوقت الحالى تجربة مألوفة فى عالمنا المعاصر وذلك لانه لا يمكن بدونها تصور تعلم اللغات الأجنبية والدخول فى مجال ومدار الاتصالات الثقافية المتشعبة بين أرجاء العالم قريبها وبعيدها . كما أنه ليس من نافلة القول التنويه هنا إلى دور المعاجم وأهمية اللغات فى تيسير التفاهم ونشر الثقافة والعلوم بين مختلف شعوب العالم وفى تعميق الصلات والتعاون البنّاء لخير الإنسانية والبشرية جمعاء .

ومن أجل سد هذا النقص الشديدقام بعض الأفراد والمؤسسات بمحاولات متنوعة ولكنها لم تكلل بالنجاح فى حينه إلى أن جاء التعاون المثمر بين المستشرق د. حسّن قلشي والباحث المصرى د. كامل البوهى وأثمر عن ظهور أول قاموس صربوكرواتى - عربى .

ورغم أن هذا القاموس - حسب معلوماتى الشخصية - جاهز للنشر منذ مايربو على العشرين عاماً إلا أنه تضافرت عوامل عدة على عدم طبعه حتى وقت قريب . وحسب علمى فقد قام المؤلفان بمحاولات عدة لطبعه فى جمهوريات يوغسلافيا السابقة وفى مصر ولكن دون جدوى . وأعتقد أنه كان هناك تخوف لدى جهات النشر فى البلدين من الاقدام على مثل هذا المشروع على زعم أنه غير مربح من الناحية الاقتصادية . ومن المرجح أنه كانت هناك بعض العوائق المالية والإدارية .

ومن حيث القيمة العلمية والثقافية فإن هذا القاموس يعد مساهمة هامة فى مجال دراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية بالبوسنة والهرسك وغيرها من الجمهوريات المتحدثة باللغة الصربوكرواتية ، وهى الدراسة التى لايمكن تصورها وتطورها بدون المعرفة الحقيقية الجادة للغة العربية .

ويشتمل هذا القاموس على ما يربو على خمسين ألف كلمة وتعبير باللغة الصربوكرواتية ويقابلها معانيها باللغة العربية . ويلاحظ أنه تم انتقاء هذه الكلمات بدقة وعناية بحيث يكون المصدر هو الجذر الأساسى للكلمة ثم تتفرع منه مشتقاته تيسيراً للكشف عن الكلمات .

وقد تسلمت مخطوطة القاموس مجموعة عمل من كبار المستشرقين بالبوسنة والهرسك . وقامت هذه المجموعة بمراجعة الكلمات الصربوكرواتية والكلمات العربية ودقة المعانى وتطابقها . ومثل هذه الطريقة الحديثة للإعداد والمراجعة تسهل عملية تسجيل وحفظ هذا القدر الهائل من الكلمات والرجوع إليها عند إعادة طبع القاموس مرة أخرى

أو القيام بمشروعات معجمية مماثلة . وهذا يوضح أن الجانب الفنى من هذا القاموس يقترب من المتطلبات العصرية لاستعمال المعاجم .

ونظراً لوفاة المؤلفين قبل الشروع فى إعداد القاموس للطبع فلم يتمكن أحد من أعضاء مجموعة العمل من معرفة الأسلوب الذى تم به إعداد واختيار الجزء الأساسى من القاموس ، أى المتعلق بالكلمات الصربوكرواتية . ومن المرجح أنه جرى استخدام أحد القواميس مزدوجة اللغة التى جرى نشرها من قبل كأساس ومرجع ومصدر لكلمات هذا القاموس الموجود بين أيدينا الآن .

وهذا الجزء الأساسى من القاموس يتضمن الكلمات والتعبيرات بلغة الحديث اليومية ولغة الأدب والصحافة ، ويتضمن كذلك عدداً كبيراً من الأسماء الفنية فى مجالات العلوم الاجتماعية والطبيعية والتطبيقية والفنون وعلوم الدين وغيرها .

ومنذ البداية اتفقت مجموعة العمل الخاصة بالمراجعة على أن تحافظ على النص الذى تركه المؤلفان وتحترمه وألا تقوم بتدخلات وألا تجرى تغييرات جوهرية عليه . ولذا كانت تدخلاتها عامة ونتيجة لذلك فإن الجزء الأساسى من القاموس يحتوى على بضع كلمات قديمة ومهجورة وعلى صيغ غير شائعة الاستعمال وقت ظهور القاموس مطبوعاً . وهناك ملاحظات أخرى وعدم التزام بالقواعد المعجمية .

إلا أن هذه النقائص لاتقلل على الإطلاق من قيمة هذا القاموس خاصة إذا تذكرنا أن هذا هو أول قاموس من هذا النوع فى البوسنة والهرسك وفى غيرها من المناطق المتحدثة باللغة الصربوكرواتية وكذلك فى المنطقة العربية . ورغم هذه النقائص وما شابهها فمن المرجح أن القاموس سيفى بغرضه وسيكون ، على نحو ما ، أساساً رائداً فى المستقبل لقواميس مماثلة أكثر حداثة ودقة .

والدكتور حسن قلشي (١٩٢٢ - ١٩٧٦) صاحب فكرة هذا القاموس وأول منفذ لها يعد من أبرز المستشرقين بالجمهوريات اليوغسلافية السابقة . ويرجع أصله إلى عائلة من عائلات علماء المسلمين بجمهورية مقدونية . وبدأ منذ عامه السادس يجيد اللغة العربية على يد والده . وبعد انتهائه من المدرسة الابتدائية انتظم بالمدرسة الإسلامية العليا فى سكوبلى وأنهى ست سنوات من تعليمه الثانوى بها ، ثم قطع دراسته بسبب الحرب العالمية الثانية واستكملها وأنهاها فى برشتينا فى عام ١٩٤٤ . والتحق بعد الحرب بكلية الآداب بقسم الفيلولوجيا الشرقية بجامعة بلغراد . وبسبب نجاحه الباهر وموهبته الخاصة فى تعلم اللغات الأجنبية تم تعيينه معيداً بالكلية . وناقش رسالته للدكتوراه فى عام ١٩٦٠ وبعد ذلك تخصص فى دراسة علوم اللغة التركية فى هامبورج بألمانيا . وقام بتدريس مادة التاريخ فى المعهد الألبانى ببريشتينا . وعندِ تأسيس قسم اللغات الشرقية بجامعة بريشتينا عمل به أستاذاً متفرغاً وألقى محاضرات فى اللغتين العربية والتركية .

وألف الدكتور حسن قلشى ما يزيد على ثلاثمائة من الأبحاث والدراسات العلمية فى مجال الاستشراق والدراسات العربية والأبحاث المقارنة باللغات الألبانية والصربوكرواتية والمقدونية والتركية وبعض اللغات الأخرى . وقد حضر وساهم مساهمة فعالة فى عديد من اللقاءات والمؤتمرات العلمية فى اسطنبول وصوفيا وميونخ وباريس ونابولى وبراتسلافا وشيكاغو وغيرها من المراكز الثقافية والعلمية وله العديد من الأبحاث التى لم يتم نشرها حتى الآن .

أما الأستاذ كامل البوهى فقد كان يعمل مديراً عاماً لإذاعة القرآن الكريم بالقاهرة ورئيساً لاتحاد الجمعيات الدينية بمصر ، وقد تعاون فى إعداد هذا القاموس وتأليفه مع الدكتور حسن قلشى خلال فترة تواجده فى

بلغراد لمدة خمس سنوات حيث عمل بها أستاذاً للغة العربية بجامعة بلغراد ، ثم استكملا عملهما بعد ذلك فى مصر .

ومما لا شك فيه أن ظهور هذا القاموس الصربوكرواتى – العربى من تأليف الدكتورين حسن قلشى وكامل البوهى يعد حدثاً أدبياً وثقافياً مهماً على صعيد العلاقات الأدبية والثقافية بين الدول العربية وألبوسنة والهرسك وغيرها من الجمهوريات اليوغسلافية السابقة المتحدثة باللغة الصربوكرواتية . ومن المؤكد ان هذا القاموس سيسعد جميع اولئك الذين يستخدمون اللغة العربية بطريقة أو بأخرى فى أعمالهم أو أبحاثهم أو دراساتهم لعلوم اللغة العربية أو للعلوم الإسلامية مثل طلاب المدارس الإسلامية وكلية الدراسات الإسلامية والأئمة والوعاظ والعاملين بالمشيخة الإسلامية وكذلك أولئك العرب الذين يدرسون فى الجامعات المتحدثة باللغة الصربوكرواتية .

ولا يتم مطلب الكلام دون التنويه إلى ناشر هذا القاموس ألا وهى المشيخة الإسلامية بالبوسنة والهرسك التى تستحق كل الشكر والتقدير على ما قدمته حتى الآن من كتب جادة ومعاجم فريدة لا غنى عنها لأى باحث يهتم بهذا المجال . كما أنها تستحق كل ثناء وتبجيل لمبادرتها بالبحث فى القاهرة عن مخطوطة هذا القاموس وإنهاء كل المشاكل المادية والإدارية المتعلقة بالبدء فى طبع ونشر هذا القاموس .

وعن طريق المطبوعات ذات القيمة العلمية الكبيرة التى طبعتها المشيخة الإسلامية اكتسبت سمعة الناشر الجاد الهام فى مجال الدراسات العربية والإسلامية . وقد لاقت هذه المطبوعات قبولاً طيباً لدى القراء واستحساناً من جميع الأوساط الثقافية والأدبية بالبوسنة والهرسك وغيرها من الجمهوريات اليوغسلافية السابقة .

دراسة جديدة عن اللغة العربية

من المعلوم أن دراسة اللغة الأجنبية تبدأ بالتعرف على نظامها الصوتي وعلى حروف أبجديتها ، الأمر الذى يسهم فى التمكن من نطق حروفها وكلماتها . وعادة ما توجد بالنسبة لهذه المرحلة الأولية من الدراسة كتب مدرسية مناسبة فى علم الأصوات ، أو على الأقل يتم تخصيص باب من أبوابها لشرح الظواهر الصوتية . وهذه هى الحال تقريباً فيما يتعلق باللغات الأجنبية المشهورة ، وفى المقام الأول بالنسبة للغات العالمية . ولهذه اللغات الأجنبية التى تجرى دراستها فى البوسنة والهرسك ما يكفيها من الكتب المدرسية المختصة بعلم الأصوات إلا أن الوضع يختلف بالنسبة للغة العربية .

فبالرغم من اتساع نطاق الدارسين للغة العربية فى البوسنة والهرسك ورغم طول الحقبة الزمنية التى جرى فيها تدريسها فى مختلف المؤسسات التعليمية بالجمهورية ورغم أنها أصبحت إحدى اللغات الرسمية فى الأمم المتحدة إلا أنه تلاحظ وجود نقص بيّن فى الكتب المدرسية والمراجع المناسبة لدراسة اللغة العربية وقواعدها ، وعلى الأخص تلك الكتب التى تسد مطالب واحتياجات الدراسة الجامعية . وهو نقص لا يتناسب على الإطلاق مع تاريخ انتشار اللغة العربية في البوسنة والهرسك . وكان هذا النقص من العوامل التى تؤثر تأثيراً سلبياً على فعالية ونتائج دراسة هذه اللغة .

وفى الواقع كانت توجد بعض الكتب المدرسية التى تهدف فى الأساس إلى سد الاحتياجات التعليمية فى المدارس الثانوية ، وهى فى

معظمها كتب لقواعد ونحو اللغة العربية ولا تزال مستخدمة حتى الوقت الحاضر . وتقدم هذه الكتب التوجيهات الأساسية لنطق الحروف العربية إلا أنها لا يمكن أن تحل محل كتاب يعرض بشكل شامل منظم لعلم الأصوات فى اللغة العربية .

ومن الملاحظ ، بوجه عام ، قلة عدد الدراسات والأبحاث فى مجال الأصوات الخاص باللغة العربية وذلك إذا ما قورن بعدد الدراسات فى اللغة العربية عموماً . وليس من نافلة القول التنويه إلى أن العلماء العرب القدامى اهتموا بنظام الأصوات فى اللغة العربية ودرسوه وفسروه بتعبيرات ومصطلحات تعبر عن آرائهم النظرية وعن مستوى الفكر العلمى الذى كان سائداً فى زمانهم . إلا أنه لم يكن من الممكن نقل هذه النتائج الخاصة بالأصوات إلى مجال الدراسات العربية فى أوروبا فى القرن التاسع عشر وذلك بسبب نقص الدراسات الصوتية المتخصصة آنذاك ، وفى المقام الأول نقص الدراسات الخاصة بالحروف المتحركة . وهكذا نلاحظ فى أواخر القرن التاسع عشر وجود توقف معين فى مجال الدراسات الصوتية الخاصة بنظام الأصوات فى اللغة العربية . ويكفى إلقاء نظرة على الكتب المشهورة مثل كتاب النحو الذى وضعه « رايت » أو ذلك الذى ألفه « بروكلمان » للتأكد من النقص السائد فى مجال الدراسات الخاصة بالأصوات العربية أو بحثها بطريقة علمية يعول عليها .

وبفضل ظهور بعض الدراسات للأنظمة الصوتية فى بعض اللهجات واللغات العامية العربية بدأ توجيه اهتمام أكبر لهذه النوعية من الدراسات المتخصصة بحيث أننا حصلنا فى العشرينيات من القرن الحالى على أول دراسة عملية عصرية للأصوات فى اللغة العربية تأليف و.هـ.ت. جاردنر . وتمثل هذه الدراسة الصوتية الحديثة أول مؤلف أوروبى فى علم أصوات اللغة العربية ، ولذا فقد كان لها أكبر الأثر فى إلهام مختلف

الباحثين للقيام بدراسات جديدة تستخدم الأساليب العصرية المتاحة . وصدورها يمثل أيضاً علامة بارزة فى تاريخ الدراسات المتعلقة بعلم الأصوات فى اللغة العربية .

وفى فترة ما قبل الحرب انتشرت الأبحاث الخاصة باللهجات ، وأصبح مختلف اللهجات العربية فى شرق وغرب العالم العربى مادة لدراسات خاصة . وساهمت المادة الصوتية الوفيرة التى تم جمعها فى تشجيع مواصلة الأبحاث وتكثيفها وتطويرها الأمر الذى سمح بظهور آراء جديدة فى العالم الكبير –المجهول آنذاك– للظواهر الصوتية فى المنطقة المتحدثة باللغة العربية ، وأدى إلى ظهور معارف علمية جديدة .

وتزايدت المعارف فى تنوع الأنظمة الصوتية للهجات العربية فى علاقاتها المشتركة وفى علاقاتها باللغة الأم –اللغة العربية الفصحى– وفى الآونة نفسها قام المستشرقون الأوروبيون بتوجيه اهتمام أكبر لمختلف الدراسات فى مجال علم الأصوات الخاص باللغة العربية . وخلال الثلاثينيات تزايد الاهتمام بإعداد دراسات عن الآراء الخاصة بعلم الأصوات والواردة فى كتب الباحثين العرب القدامى . واستمر هذا الاهتمام حتى بعد الحرب العالمية الثانية .

وسرعان ما ظهرت مجموعة جديدة من الباحثين العرب المعاصرين الذين تلقوا تعليمهم فى المراكز الجامعية الأوروبية والأمريكية ، وقاموا بالعديد من الدراسات الأصلية الجديدة ذات النوعية المتميزة التى تعد مساهمة ضخمة في جميع مجالات دراسات اللغة العربية ، وعلى الأخص فى مجال علم الأصوات ، وقدم هؤلاء الباحثون نظريات لغوية معاصرة فى مؤلفاتهم .

وبفضل الإمكانيات التكنولوجية الهائلة التى تقدمها التحليلات الالكترونية الحديثة وبفضل مختلف الآلات الجديدة فى فحص الأصوات

ثم الشروع أخيراً فى إعداد دراسة عن النظام الصوتى للغة العربية الأمر الذى سيعمل على تطوير الدراسات العربية وسيعطى نتائج ثمينة غاية فى الدقة .

وقد عمل الدكتور سرجان يانكوفيتش ، مؤلف الكتاب ، لسنوات عدة أستاذاً بقسم اللغات الشرقية بكلية الفلسفة فى سرايفو . وتخصص فى بحث قضايا اللغة العربية الحديثة ، وبالتحديد فى بحث تلك القضايا المتعلقة باللغات العامية فى الوطن العربى عامة وفى مصر بصفة خاصة . وله عدة دراسات رائدة فى هذا المجال . وبذل جهداً مكثفاً مع طلبة المرحلة الأولى من أجل التمكن من نطق الأصوات العربية . واكتسب فى هذا المضمار خبرة طيبة تؤكد ، بما لايدع مجالاً للشك ، مقدار صعوبة وبطء عملية التمكن من المواد المدرسية فى ظل عدم وجود كتاب مناسب فى علم أصوات اللغة العربية . وكان يتم التمكن من نطق الحروف العربية عن طريق تقليد ومحاكاة المحاضر بينما كانت أذهان الطلبة تفتقد وجود مدخل لعلم أصوات اللغة العربية . وفى كثير من الأحيان تيقن المؤلف بنفسه من عدم صحة نطقهم بل ومن وجود أخطاء فى المعلومات المكتسبة لدى طلبة المرحلة الأخيرة من التعليم . ومن هنا ساد الإحساس منذ سنوات عديدة فى الأوساط الثقافية والعلمية بالحاجة إلى كتاب فى علم الأصوات ، وكان هذا كله دافعاً له لإعداد عرض موجز مناسب لعلم الأصوات فى اللغة العربية وفقاً للنتائج العلمية الحالية .

ويعتبر كتاب « النطق العربى » أول دراسة علمية من نوعها فى مجال علم الأصوات الخاص باللغة العربية . وأعده مؤلفه مستهدفاً به فى المقام الأول أن يكون مرجعاً للطلبة الذين يدرسون اللغة العربية بالجامعات المذكورة وراعى فيه المؤلف احترام المبادئ الأساسية للتعليم مثل التدرج والوضوح والإجمال فى الانتقاء اللازم عند إعداد مثل هذه الكتب الجامعية . كما راعى من ناحية أخرى الاعتماد على الإنجازات

العلمية المتطورة فى هذا المجال . ويمكن القول بأن هذا الكتاب علاوة على كونه كتاباً جامعياً على مستوى طيب فإنه فى الآونة نفسها يعد دراسة علمية جادة فى مجال الدراسات الاستشراقية فى جمهورية البوسنة والهرسك .

ولابد من تقديم موجز لمضمون الكتاب من أجل توضيح هيكله والتعريف بحجمه . فهو يشتمل على ١٤٧ صفحة وتحتل المقدمة خمس صفحات وباقى الصفحات موزعة على النحو التالى : المدخل – ٣٤ صفحة ، الأبجدية العربية – ١٧ صفحة ، نظام أصوات اللغة العربية – ٣٤ صفحة ، نظام الحروف المتحركة ١٦ صفحة ، المقطع وبعض التغيرات الصوتية – ٢٢ صفحة . وفى النهاية يأتى بيان بأسماء المراجع التى استخدمها المؤلف عند الكتابة واستشهد بها خلال عرضه لمادة البحث .

وأول ما يلفت النظر أن الباب التمهيدى الأول المسمى « بالمدخل » يحتل عدداً كبيراً من الصفحات ، فهو يشكل حوالى ربع صفحات الكتاب . وفيه يتحدث المؤلف ، شارحاً ومحللاً ، عن النطق ، وأجهزته والخصائص السمعية للأصوات وإمكانية وصفها وتصنيفها وتقسيمها إلى متحركة وساكنة . وهى كلها معلومات أولية أساسية استهدف المؤلف من الاستفاضة فيها أن يشكل لدى الطالب الجامعى والقارئ المثقف الذى يفتقد إلى المعلومات العامة فى مجال علم اللغة والأصوات خلفية جديدة تساعده على فهم ومتابعة قضايا ومشاكل علم أصوات اللغة العربية . ويتسم هذا الباب التمهيدى بالتمكن من المادة والتعمق فى شرحها ، وأسلوب المؤلف فيه علمى واضح يتناسب مع مختلف المستويات .

ووفقاً لطبيعة اللغة العربية ولتطورها التاريخى فقد عرض المؤلف بعناية ودقة تاريخ ونظام الحروف باللغة العربية فى الفصل الثانى من

كتابه . وتم تقديم هذا العرض بشكل يرتبط ارتباطاً عضوياً بقضية علم الأصوات الخاص باللغة العربية وما يتصل بها من قضايا تاريخية وثقافية . ويتميز هذا الفصل بالديناميكية ووفرة المعلومات والشمول .

ولا يمكن فى هذه العجالة تقديم تحليل مفصل لما ورد بالفصلين الثالث والرابع عن الحروف الساكنة والمتحركة فى اللغة العربية . فهذا الجزء يمثل النواة الرئيسية للكتاب وتتوفر فيه أيضاً كمية هائلة من المعلومات الدقيقة الجديدة . وهناك مناقشات تمتد على بضع صفحات لمعالجة الأصوات التى تختلف ، فى كثير من الأحيان ، بشأن طبيعتها آراء العلماء والباحثين . وهذه المناقشات تمثل ، حقيقة دراسات مصغرة قام المؤلف بإنجازها فى صبر وأناة ومثابرة وطرح فيها ملاحظات طريفة وخواطر مثمرة ، وصال فيها بغزارة علمه وفيض معلوماته وجال فيها بدقته التحليلية وواقعيته الموضوعية .

وبالإضافة إلى ذلك فقد قام بعقد مقارنة بين اللغتين العربية والصربوكرواتية (اللغة الشائعة فى البوسنة) . وهنا تأكدت ميزة جديدة للمؤلف ، فعلاوة على معرفته الجيدة بعلم اللغة العام فقد أثبت أنه يجيد إجادة بصيرة لغته الصربوكرواتية وتراكيبها فى ضوء علم وفقه اللغة . كما أنه سلط الأضواء على العلاقة بين الأصوات فى اللغتين الأمر الذى ستكون له فائدة عملية ضخمة بالنسبة للطلبة إذ أن كل هذا سيمكن الطلبة من فهم الاختلافات والتشابهات الموجودة فى النظامين وبالتالى يساعدهم على سرعة التمكن من النطق العربى . وفى الآونة نفسها ستكون له نتائج حميدة على صعيد التحليل والتنظير فى مجال الدراسة العربية فى جمهورية البوسنة والهرسك .

ويشرح المؤلف فى الفصل الخامس المقاطع والقوانين الصوتية ويقودنا بها صوب الظواهر المورفولوجية الصوتية وينتهى بالدلالات

الخاصة بالمقاطع الصوتية العروضية التى لم تتم دراستها دراسة كافية حتى الآن . وهو بهذا الشرح يوحى بوجود ديناميكية داخل اللغات وفيما بينها .

وقائمة المراجع المثبتة تبين حجم اطلاعاته وكثافة استغلاله لنتائج الدراسات السابقة الخاصة بهذه القضايا فى العالم وعند العرب .

ولا شك أن ظهور هذه الدراسة العلمية فى الأصوات العربية يمثل خطوة هامة وعلامة ضخمة فى تطور علوم الدراسات العربية فى البوسنة ، كما أن الكتاب سيثرى دوائر الرؤية المعرفية فى مجال علوم اللغة ودراستها وسيعمل على إخراج هذه المناطق - تدريجياً - من عزلتها اللغوية الإقليمية وينمى علاقاتها الثقافية واللغوية مع الدول العربية .

ولا ينبغى أن نغفل أن هذه الدراسة المنهجية الرائدة ستلعب دوراً إيجابياً فى تعليم النطق العربى للكوادر بهذه المنطقة الامر الذى سيسهل تعليم اللغة العربية والتعرف على تراكيبها عن طريق تقديم المادة المعقدة الجافة والخاصة بعلم أصوات اللغة العربية بطريقة علمية جذابة تتحد فيها اتحاداً مثمراً الخبرات السابقة لعلوم الأصوات الخاصة باللغة العربية واللغات الأوروبية .

الاســـتشـــراق

أصبحت قضية الاستشراق والمستشرقين فى عالمنا العربى من القضايا الحرجة الحساسة نظراً للتناقض الشديد الناشئ بين أصحاب الآراء فى هذا المضمار ، وذلك لأن أكثر الأقلام التى تناولت هذه القضية كانت متحاملة أشد التحامل على المستشرقين وعلى أبحاثهم ودراساتهم واعتبرتهم رسلا جندهم الاستعمار وعملاؤه ، وعدت الاستشراق بوجه عام صورة من صور الغزو الاستعمارى فى المجالات الثقافية والفكرية والحضارية . كما ارتأى أصحاب هذه الأقلام أن الاستشراق ركيزة للاستعمار فى تقويض أركان الإسلام وتعاليمه وتحقير لمظاهر ثقافته ومعالم حضارته والحط من نظمه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنية والجمالية وكل مظاهر الحياة فى المجتمع الإسلامى . وبالتالى وضعوا المستشرقين جميعاً فى مصاف أعداء الإسلام والعروبة والحضارة الإسلامية العربية على أساس أن دراساتهم ما هى إلا مهاترات وتحامل على الإسلام والمسلمين .

وعلى النقيض من ذلك أخذت أقلام أخرى تكيل المديح للمستشرقين ولأبحاثهم واعتبرت أن الفضل الأول للمستشرقين هو نشرهم لكتبنا وتنظيمهم لمخطوطاتنا فى وقت كنا فيه فى غاية التخلف ولولا تلك الأيدى البيض التى نشرت ثروتنا الأدبية التى فقدت أصول معظمها ولم تصل إلينا إلا ترجماتها لما توصلنا إلى معرفتها ومعرفة تاريخ أدبنا ولما كنا وقفنا على درجة حضارتنا ومركز بلادنا فى العالم .

وكان كل فريق من هذين الفريقين المتناقضين يورد الأدلة القاطعة

والأمثلة الساطعة مدعماً بها موقفه ، ويستخدم التعميمات فى آرائه وأحكامه بحيث تزداد القضية تعقداً وغموضاً . إلا أنه ظهرت فى الآونة الأخيرة أقلام لا تناصر ولا تعادى هذا الرأى أو ذاك ، أى أقلام وسط ، لاتتعصب ولا تنفعل وضعت نصب أعينها هدفاً وهو أن ترسم للقارئ العربى صورة واقعية دقيقة علمية عن الاستشراق والمستشرقين وعن أبحاثهم ودوافعهم واتجاهاتهم ، وعن جهودهم ونتائج دراساتهم .

وإيماناً منا بهذا الطريق الوسط الذى يعد هو الطريق العلمى الوحيد للوصول إلى نتائج حقيقية مضمونة سنحاول على السطور التالية أن نرسم صورة مصغرة للجهود المتواضعة التى يقوم بها المستشرقون فى البوسنة والهرسك فى هذا المضمار ، والموضوعات التى تثير انتباههم والمشروعات التى تشغل بالهم وتفكيرهم .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن تعليم اللغة العربية ، باعتبارها لغة الثقافة والحضارة الإسلامية، بدأ لدى سكان البوسنة والهرسك مع بداية اعتناقهم للإسلام وانتشاره فى أراضيهم اعتباراً من القرن الرابع عشر الميلادى . وبقبولهم للإسلام ديناً اتجهوا بمحض رغبتهم وإرادتهم إلى الثقافة الشرقية وتقبلوا العديد من عناصر الثقافة والحضارة الإسلامية العربية. وحيث ان اللغة العربية كانت آنذاك فى أغلب الأحوال هى الوسيلة الرئيسية لاكتساب العلوم وبلوغ أرفع المناصب السياسية والاجتماعية والأدبية فقد كان على الراغبين فيها أن يجيدوها إجادة تامة .

ومن هنا فإنى أرى أن البداية الحقيقية للاستشراق فى البوسنة والهرسك هى مع بداية اعتناق سكانها للإسلام وذلك نظراً للاهتمام غير العادى الذى أبدوه بالآداب العربية وبعناصر الثقافة والحضارة الإسلامية العربية . وقد استمر هذا الاهتمام طوال فترة وجود الأتراك العثمانيين بهذه المنطقة حتى القرن السادس عشر الميلادى . ولذا فإنى لا أوافق

أصحاب الرأى القائل بأن الاستشراق فى هذه المنطقة قد بدأ فى العقد الثالث من القرن العشرين ، لأن الحقائق التاريخية وأنشطة المستشرقين تؤكد عدم صحة هذا الرأى .

وهنا كان يتم إنشاء المدارس والكتاتيب الإسلامية لتعليم اللغة العربية والقرآن وتعاليم الإسلام ، وبالتالى كانت اللغة العربية هى اللغة الأساسية فيها . هذا علاوة على انتشار المكتبات العامة والخاصة التى كانت تحتوى على مختلف الكتب والمراجع باللغة العربية وباللغة البوسنية المحلية وبعض اللغات الشرقية الأخرى .

واعتباراً من النصف الثانى من القرن التاسع عشر تم خلق الظروف اللازمة والملائمة من أجل المعالجة العلمية والنقدية للعناصر الشرقية المتوافرة بغزارة مع التراث الثقافى والتاريخى للبوسنة والهرسك . وبالفعل تم إجراء عدد من الأبحاث والدراسات فى مختلف المجالات قبل الحرب العالمية الأولى واعتبرها النقاد المؤرخون بداية مرحلة جديدة من مراحل تطور الاستشراق العلمى بهذه المنطقة . ثم شهدت فترة الخمسينيات من القرن الحالى ، أى بعد الاستقلال ، انطلاقة حقيقية للاستشراق وذلك بعدما تم إنشاء المؤسسات والمعاهد التعليمية والعلمية المتخصصة فى مجال الاستشراق .

وتعبير الاستشراق العلمى هنا لا يمكن أن يعنى علماً واحداً بل إنه يشمل مجالات متعددة من البحث العلمى وتساهم علوم مختلفة ، بشكل أو بآخر ، فى هذه المجالات . والمادة المشتركة لاهتمامها هى الشرق أو الدوائر الحضارية المرتبطة بالشرق بوجه عام والمرتبطة بالمنطقة العربية بشكل خاص .

والمستشرقون بالبوسنة والهرسك يهتمون بوجه عام بالموضوعات والمشاكل التى تجذب انتباه مختلف المستشرقين فى جميع أنحاء العالم ،

إلا أنه ينبغى أن نشير إلى التغلغل التدريجى للنظريات العلمية الحديثة وللأساليب المرتبطة بعلوم اللغة فى علم الاستشراق الذى أصبحت له قواعده وأسسه العلمية المنهجية . ومن هنا أصبح المستشرق بالبوسنة والهرسك فى القرن العشرين يختلف تمام الاختلاف عن المستشرق الأوروبى فى العصور الوسطى .. ذلك المستشرق الأوروبى الذى كان يمارس الاستشراق كهواية بسبب انجذابه للشرق بسحره وأسراره ومميزاته الحضارية الخاصة أو يمارسه بدافع من تعصب دينى أو قومى .

وقد مرت حركة الاستشراق فى البوسنة والهرسك وما جاورها من الجمهوريات اليوغسلافية سابقاً عبر مراحل تطور ونمو متميزة منذ بدايتها متعرضة فى بعض الأحيان لعدد من التغيرات الطبيعية . ويمكن القول بأن أول مستشرق بوسنوى بالمعنى الحديث ، أى أنه عالم غربى يهتم بالدراسات الشرقية ، هو صافت بك باش أجيتش (١٨٧٠ – ١٩٣٤م) . وهو شاعر ومترجم ، أنهى كلية الفلسفة فى فيينا ثم حصل على الدكتوراة فى الفلسفة عام ١٩١٠ . وكان يجيد اللغة العربية وبعض اللغات الشرقية ويترجم منها إلى لغته . وعمل لفترة من الفترات كمدرس للغة العربية فى المدرسة الثانوية العليا بسرايفو ، كما أصدر واشترك فى إصدار بعض المجلات الأدبية . وبالإضافة إلى أنشطته الأدبية المتعددة فقد تعرض بالبحث لدور السلاف الجنوبيين فى الأدب العربى . وقد عرض خلاصة ونتائج فى كتابين هامين : البشانقة فى الأدب الإسلامى (سرايفو ١٩١٢) ، الأعلام فى سكان كرواتيا والبوسنة والهرسك فى الامبراطورية التركية (زغرب ١٩٣١) . وما زالت أعماله فى مجالات الدراسات الاستشراقية الإسلامية مفيدة للغاية بالنسبة للأجيال الحالية .

ومن المستشرقين البارزين المستشرق فهيم بيرقتاريفيتش (١٨٨٩ – ١٩٧٠) وهو بوسنوى وقد دعى فى عام ١٩٢٥ لإنشاء قسم الاستشراق بجامعة بلغراد . واشترك فى إصدار بعض الدراسات العلمية

الدولية مثل دائرة المعارف الإسلامية باللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية ومعجم تقاليد المسلمين . ومن أهم دراساته : اللمية لأبى كبير الخزالى (باريس ١٩٢٣) ، ديوان أبى كبير الخزالى (باريس ١٩٢٧) ، رستم وسوهراب (بلغراد ١٩٢٨) ، قضية نصر الدين خوجة الرومى (بلغراد ١٩٣٤) ، تأثير الشرق على جوته (بلغراد ١٩٣٨) وغيرها من الدراسات والأبحاث . وهو يعد بحق أكبر المستشرقين وأوسعهم علماً وعلى الأخص فى مجال الفيلولوجيا الشرقية . وهناك بالطبع عدد كبير من المستشرقين الذين اجتهدوا وبذلوا جهداً أكاديمياً وقاموا بإعداد بعض الدراسات الاستشراقية الهامة بالنسبة للأوساط الثقافية والأدبية فى البوسنة والهرسك والدول المجاورة .

وقد جابه الرعيل الأول من المستشرقين بعض المعادين للاستشراق خاصة فى فترة الحكم الشيوعى . وبالرغم مما قدمه المستشرقون فى البوسنة والهرسك من أبحاث ودراسات ذات مستوى علمى جيد إلا أنهم أبدوا فى بعض الأحيان ضيقاً ونفاد صبر نظراً لما كانوا يلاقونه من معوقات متعمدة ويجابهونه من مشاكل مفتعلة ، الأمر الذى أفقدهم فى بعض الأحيان الأمل فى ازدهار الاستشرق العلمى وجعلهم يقنعون باعتبار علم الاستشراق علماً مساعداً لخدمة التاريخ القومى . وحسب رأيهم فقد كانت المهمة الوحيدة الموكلة لعلم الاستشراق هى المعالجة الأولية للمادة التاريخية ، أو بعبارة أدق إصدار وترجمة المصادر اللازمة لخدمة الأبحاث والدراسات التاريخية .

وفى المرحلة التالية حينما نجحت حركة الاستشراق فى مسايرة التطورات العلمية فى الاستشراق العالمى بوجه عام ، أخذت تتعرض لهزات داخلية ولهجمات تشكيكية خطيرة على المستشرقين وعلى منطلقاتهم وعلى أهدافهم . ولا ريب أن هذا الهجوم كان مرتبطاً ارتباطاً شديداً بالأحوال السياسية العامة فى يوغسلافيا السابقة وبموقف قيادتها من قضايا الاستشراق ككل .

وبالرغم من تزايد الاهتمام بالأبحاث المقارنة وبالدراسات اللغوية فى مجال الاستشراق فإن الواجب الرئيسى والهدف الأساسى لعلم الاستشراق فى البوسنة والهرسك يظل هو إعداد كتب حديثة سهلة مبسطة لتعليم اللغة العربية ولشرح النحو بطريقة علمية حديثة . أما الاهتمامات الأدبية فهى أكثر اتساعاً وشمولاً ، وتتباين اتجاهاتها ومجالاتها ودرجات الاهتمام بها بدءاً من الدراسات النظرية الأساسية وانتهاء بالأدب التجارى غير الهادف . ومع ذلك فإن أهم التزام للاستشراق يعد هو التمثيل المخطط الجاد لأهم المؤلفات الكلاسيكية والمعاصر مع تقديم الإطار المناسب لفهمها وتقبلها .

ولابد من الإشارة إلى أن علم الاستشراق فى البوسنة والهرسك منصب على الدراسة الشاملة للتراث الثقافى الشرقى الروحى والمادى ، الذى يعد باعتراف الجميع عنصراً خصباً لا يمكن إغفاله من أجل فهم الشخصية الحضارية للإنسان فى البوسنة والهرسك .

والاستشراق بمعناه الشامل الواسع يساهم فى سد حاجات ورغبات المثقفين بالبوسنة والهرسك ، وعلى الأخص الشباب منهم ، فى التعرف على المجتمعات الشرقية وعلى حضاراتها وثقافاتها ودياناتها وفلسفاتها . ومن الحتم هنا التنويه إلى أن مجتمع البوسنة والهرسك بجميع طبقاته أثبت أنه فى حاجة ماسة إلى العمل المنظم الجاد فى مجال الدراسات الإسلامية القائمة على أساس علمى ، وهى مهمة تحسن القيام بها مجلة « الفكر الإسلامى » التى تصدرها فى سرايفو باللغة الصربوكرواتية رئاسة الجماعة الإسلامية منذ عام ١٩٧٩ .

وهناك اهتمام غير عادى بدراسة التراث الأدبى المكتوب باللغات العربية والتركية والفارسية فى البوسنة والهرسك . كما أن هناك رغبة جارفة فى دراسة « الأدب الأعجمى » المكتوب باللغة المحلية ولكن

بحروف عربية . وتم بالفعل الشروع فى عمل جرد منظم وفهرسة حديثة ومعالجة نقدية من ناحية المضمون لهذا التراث الضخم ، وهو أمر يعد فى حد ذاته على قدر كبير من الأهمية ، وعلى الأخص من ناحية النتائج التى تحققت حتى الآن وقد أحرز هذا النشاط العلمى والثقافى تقدماً ملحوظاً فى منطقة البوسنة والهرسك واتخذ طابعاً أكاديمياً جاداً إلى أن أصبح مشروعاً قومياً ضخماً عاماً جابه ويجابه وسيجابه الكثير من المشاكل والمعوقات .

ويجرى فى الوقت الحالى إتمام العمل الذى تم الشروع فيه وذلك باشتراك أكبر عدد من المتخصصين على أن يتم التركيز على المعالجة النقدية والببلوجرافية المستفيضة للوثائق الأدبية والمؤلفات والمؤلفين مع القيام بدراسة مقارنة ، وهكذا يتم خلق الظروف اللازمة للدراسات المتعمقة فيما بعد على المستويين الخاص والعام .

وليس هناك أدنى شك فى أنه يلزم الكثير من العمل الجاد المسئول من أجل تجاوز التناقضات الداخلية بين المستشرقين فى البوسنة والهرسك ، ومن أجل إضفاء نوع من التناسق والاستقرار على هذا العلم ، ومن أجل توحيد مبادئ الدراسات الاستشراقية فيها . ولابد أن نضع فى الاعتبار أنه يوجد لدى الشباب البوسنى اهتمام بدراسة الاستشراق بوجـــه عام وبدراسة اللغة العربية بشكل خاص . وهنا من الحتم ذكر الانطباع الذى تملكنى بعد أن تابعت وتبينت هذا الاهتمام -بأن الشباب يقبل فى أغلب الأحوال على دراسة اللغة العربية من أجل دوافع عملية شبه مادية ، وذلك لأنهم يتلقون عروضاً مغرية للعمل فى مجال الترجمة فى الدول العربية .

وبالرغم من معرفة المستشرقين فى البوسنة والهرسك للغة العربية منذ ما يزيد على ستمائة عام وبالرغم من عددهم الكبير إلا أن المؤلفات العربية المترجمة فيها ضئيلة نسبياً . وفى البداية تمت ترجمة قصائد من الشعر العربى الجاهلى وبعض مقتطفات من حكايات ألف ليلة وليلة

مترجمة عن اللغتين الألمـانية والفرنسية . ثم قام فهيم سباهو بالاشتراك مع عثمان نورى بترجمة هذه الحكايات عن النص العربى ، وكان يتم نشر الترجمة فى أعداد مجلة « بيهار » التى كانت تصدر فى سرايفو . ولم يتم مطلقاً إنهاء هذه الترجمة ، وفى عام ١٩٢٥ نشر ما تمت ترجمته من هذه الحكايات فى أربعة مجلدات . وكانت حكايات كليلة ودمنة هى أول عمل أدبى تمت ترجمته كاملاً ، ونشرت الترجمة فى سرايفو فى عام ١٩٥٣ وقد قام بها بسيم قورقوت ، أحد أساتذة معهد الاستشراق . ثم أخذت المجلات الأدبية تنشر ترجمات لقصائد كاملة أو مقتطفات من شعر إمرئ القيس وزهير وعنترة والمعرى وغيرهم مترجمة عن الأصل العربى أول مرة .

ومن كتب التاريخ والسير تمت ترجمة « حياة محمد » لأبى الفدا (سرايفو ١٩٠٣) ، وكتـاب « نظـام العالـم » (سرايفو ١٩١٩) ، وكتاب « نظام العلماء » (سرايفو ١٩٣٥) ، وكتاب « لمـاذا تأخـر المسلمـون وتقدم الآخرون ؟ » لشكيب أرسلان ، وكتـاب « الملـة الإسلامية وأوربا » تأليف عظيم زادة . وحظى القرآن الكريـم بعـدة ترجمات سواء عن اللغات الأجنبية أو عن اللغة العربية . وهذه الترجمات وما تبعتها من تفسيرات للقرآن تستحق دراسة خاصة لمـا لها من أهمية متميزة .

ومن الأدب العربى الحديث تمت ترجمة مجموعة قصصية لمحمود تيمور ورواية لتوفيق الحكيم عن اللغة الفرنسية . وفى عام ١٩٥٧ نشر كتاب عن الشعر العربى ، وهو أيضاً معد عن ترجمة ألمـانية . إلا أن هذه المختارات الشعرية معدة بشكل غير دقيق والاختيارات سيئة للغاية بحيث أنه عند المقارنة لا نجد شيئاً على الإطلاق من الأصل العربى . وعلى العكس من ذلك استمتعنا فى الفترة الأخيرة بترجمات رائعة لأيام طه حسين ولمجموعة قصصية ليوسف إدريس ولرسالة الغفران لأبى العلاء

المعرى وبعض أعمال نجيب محفوظ . وهى كلها ترجمات تشهد بالذوق الرفيع لمترجميها وبمستواهم العلمى الرفيع .

وتقوم رئاسة الجماعة الإسلامية بنشاط استشراقى جيد فى مجال الترجمات والدراسات ، وعلى الأخص ما يتعلق منها بالإسلام وقواعد اللغة العربية وتجويد القرآن والتفسير والأحاديث النبوية وما إلى ذلك من كتب هامة تحتاج إليها الجماعة الإسلامية وذلك حتى تسد العجز الكبير فى عدد الوعاظ والمعلمين . كما أن الجماعة الإسلامية تصدر عدداً من المجلات الإسلامية التى تعرض على صفحاتها مثل هذه الترجمات والدراسات بالإضافة إلى معالجة بعض قضايا التراث الثقافى لمسلمى البوسنة والهرسك .

ويقوم بدور هام وخطير فى مجال الاستشراق معهد الاستشراق الذى تم تأسيسه فى سرايفو فى يناير من عام ١٩٥٠ . ومن مهامه الرئيسية جمع ونشر وحفظ وبحث المخطوطات والوثائق والسجلات الموجودة باللغات الشرقية ، ودراسة الآداب والفنون الشرقية الموجودة بهذه المنطقة ، وكذلك دراسة التاريخ العام والتاريخ الثقافى للشعوب والقوميات بالبوسنة والهرسك خلال فترة الحكم العثمانى مع تطبيق الأساليب العلمية الحديثة وانطلاقاً من العناية بالسمات والمميزات التاريخية والثقافية لجميع الشعوب والقوميات .

وقد تسلم معهد الاستشراق بعد إنشائه كل المخطوطات والمطبوعات والمواد الخاصة بالاستشراق من مكتبة المتحف الإقليمى فى سرايفو ، وهى تبلغ خمسة آلاف مجموعة تشتمل على ما يربو على خمسة عشر ألف عمل . وهكذا أصبح هذا المعهد من أكبر المعاهد من هذا النوع فى البوسنة والهرسك بل وخارجها أيضاً .

إلا أن هذه المجموعة الكبيرة من المخطوطات تحتاج إلى وقت كبير

وإلـى كوادر متخصصة لفحصها ودراستها . ولـم تتم حتـــى الآن إلا فهرستها بشكل شبه كامل . وتبين أنها مخطوطات تتعلق بالقرآن وعلوم التفسير والتجويد والقراءات وبالأحاديث النبوية وبتعليم الديـن والشريعة الإسلامية والفقه والوعظ والصوفية ، وبالفلسفة والمعاجم ، وبالعلوم الرياضية والطبيعية ، وبالجغرافيا والتاريخ والسياسة ، وبعلوم اللغة ، وبالمؤلفات الأدبية والموسيقية . وهى كلها مخطوطات على درجة كبيرة من الأهمية ستسلط الأضواء على كثير من الحقائق الجديدة وتصحح كذلك العديد من المفاهيم القديمة .

وفى مجال جمع المـادة قام باحثو المعهد بمأموريات إلى بعض المدن بالداخل وإلى بعض الدول الأجنبية من أجل جمع واكتشاف المخطوطات الهامة . وقاموا بتصوير ما يزيد على مائة كتاب ، وكذلك الحصول على نسخ من كل القوانين التى تتعلق بالبوسنة والهرسك إبتداء من القـرن الحادى عشر وحتى القرن السابع عشر .

ومنذ العام الأول لإنشائه قام المعهد بإصدار مجلته المتخصصة التى تصدر مرة أو مرتين فى العام ، ولاقت إهتماماً كبيراً من جانب المعاهد المتخصصة فى الأبحاث العلمية بالداخل والخارج . وعلاوة على هذا فإن مضمون الأبحاث التى تم نشرها يعكس المستوى الفنى والعلمى العالى .

ومنذ حوالى اثنا عشر عاماً يعمل المعهد بشكل مكثف من أجل جمع المـادتين التاريخية والأدبية المرتبطة بمنطقة البوسنة والهرسك وذلك بالاشتراك مع معهد التاريخ والمكتبة القومية ومكتبة الجامعة . كما يجرى أيضاً تنفيذ مشروع بالتعاون مع معهد الأدب ومع قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب من أجل تجهيز المـواد المتعلقة بتاريخ آداب الشعوب والقوميات بالبوسنة والهرسك . ويشترك المعهد فى مشروع مماثل بالتعاون مع معهد التاريخ من أجل إعداد المـواد الخـاصة بالجـوانب

التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية خلال فترة الحكم العثمانى للمنطقة .

وفى مواجهة هذا النشاط العلمى الضخم لابد وأن تنشأ صعوبات كبيرة ، فتكاليف نشر وطبع الدراسات والأبحاث فى تزايد مستمر الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى خفض مكافآت الباحثين . ولاشك أن هذا كله ينعكس إنعكاساً سلبياً على النشاط الكلى للمعهد . كما أن الكوادر المؤهلة فى تناقص مستمر إما بسبب الوفاة أو الإحالة إلى المعاش أو الانتقال إلى وظائف أخرى ، هذا بالإضافة إلى إحجام الباحثين الشباب عن الإلتحاق بالمعهد بسبب انخفاض الرواتب وغير ذلك من الأسباب .

غير أنه من المحتم التنويه إلى أن المعهد بأنشطته وأبحاثه ودراساته قد صحح العديد من المفاهيم والآراء الخاطئة بل ومن الافتراضات التاريخية غير الصائبة حول العديد من قضايا الاستشراق ، وبذلك أرشد المؤرخين إلى الطريق الصحيح فيما يتعلق بهذه القضايا .

ومما لاشك فيه أن الاستشراق فى البوسنة والهرسك له خصائصه واتجاهاته ومميزاته الفريدة نظراً لأنها – أى البوسنة والهرسك – تملك عدداً هائلاً من المؤلفات والوثائق والمخطوطات النادرة باللغات العربية والتركية والفارسية ، كما أن ثقافتها ظلت حتى وقتنا الحالى وثيقة الصلة بالحضارة العربية الإسلامية سواء أكان ذلك عن طريق الأتراك العثمانيين أو بواسطة سبل أخرى . ومن ثم فإن هذا الاستشراق لديه قدرات لا مثيل لها وأمامه امكانيات ضخمة غير مستغلة وبذلك يحق لنا أن نعقد عليه الآمال الكبار وننتظر منه نتائج باهرة .

الجـــواهر

يعد كتاب « الجواهر » الذى يحتوى على مختارات أدبية من إبداعات المسلمين فى البوسنة وغيرها من بين الكتب التى ينبغى الإشارة إليها والتنويه بها بسبب أهميته كأفضل كتاب من الكتب التى صدرت فى عام ١٩٩٠ وبسبب المكانة التى اكتسبها فيما سبق والتى سيكتسبها فى الفترة القادمة . ويعتبر هذا الكتاب ، فى الحقيقة ، الطبعة الثانية المعدلة التى أعدها إعداداً جديداً الأديب « على إسحاقوفيتش » وأجرى تعديلات على طبعته الأولى الصادرة فى عام ١٩٧٢ . وتم انذاك اعتبار هذا الكتاب حدثاً ثقافياً من الدرجة الأولى وتلقى العديد من كلمات الإطراء والمديح بأقلام أشهر الأدباء والنقاد ، ولقى كذلك ترحيباً غير عادى من جماهير القراء والباحثين .

وكتاب « الجواهر » بمختاراته الأدبية المنتقاة يعد كتاباً طريفاً من حيث اختياراته ووفقاً للأسلوب الذى استخدمه على إسحاقوفيتش فى إعداده . وترجع طرافته إلى تعرضه لمختلف مجالات الإبداع الادبى للمسلمين ، وإلى تضمنه لمختارات من النصوص الأدبية التى أبدعها وألفها المسلمون الموجودون فى مناطق الجبل الأسود والبوسنة والهرسك وسنجق وغيرها من مناطق المسلمين إبتداءً من القرن الخامس عشر وحتى أيامنا هذه .

وهذا العمل الرائد الذى قام به « على إسحاقوفيتش » ينطوى على أهمية بالغة وبالأخص إذا علمنا أن الأمر يتعلق بعمل ضخم كان من الضرورى فيه التعرف على كل الإبداعات الأدبية للمسلمين ، ثم بعد

الدراسة والتمحيص قام المعد باختيار وفصل الجواهر المتلألئة التى يمكن أن يقدمها للقارىء كنموذج طيب لهذه الإبداعات . ويوجد هنا ، كما سنفصل فيما بعد ، ألوان من الأدب المكتوب باللغة الصربوكرواتية وكذلك باللغات التركية والعربية والفاريسية ، وهى ما تعرف فى البوسنة باللغات الشرقية . وبعض من هذه المؤلفات منقوش على الأخشاب أو الأحجار أو المعادن أو الجدران والجلود والأقمشة والزجاج وما شابه ذلك .

ولقد أثبتت الأيام والسنون أهمية العنصر الأدبى الذى نسجه المسلمون فى البوسنة والهرسك على الصعيد الأدبى واللغوى المشترك . ومن المؤسف حقاً أنه لم تتم حتى الآن بشكل كاف دراسة هذا العنصر ، بل وجرى فى كثير من الأحيان إهماله وإغفاله على نحو غير عادل . وفى أحوال كثيرة أسئ تقديره ، أو فى آخر الأمر لم تتم دراسته على الاطلاق . بيد أنه لا يمكن إعادة الماضى ولا يمكن إنكاره بأى حال من الأحوال . والفيضان الهائل للعناصر الروحية والأدبية للمسلمين مستمر لا ينقطع بدءًا من القصائد الشعبية للمسلمين ومروراً برواية « الدرويش والموت » للأديب ميشا سليموفيتش .

وإلتزم المعد فى إعداده بالمعايير الجمالية والأخلاقية الشديدة ، فنجد فى هذه المختارات رسائل إنسانية ودروساً مستفادة ذات مضمون ومعنى إنسانى عام . وسعى كذلك إلى تقديم نماذج من هذا الأدب للمسلمين فى شكل رأسى . والأهداف المرادة من هذه المختارات هى التى حتمت الإلتزام بمعايير قاسية إلى حد ما . وقد لا يكون هذا هو الأسلوب الأمثل فى إعداد مثل هذه النوعية من المختارات ، وذلك لأنه بسبب النقص الشديد فى الدراسات التحليلية وتحقيق النصوص فلابد من الدفاع عن هذه النصوص الأدبية المتنوعة فى مواجهة الزمن الذى لن يؤيدها أو يقف

فى صفها على طول الخط . ومع أن هذا أمر لا يمكن تجنبه إلا أنه لا بأس به .

ولم تقل الأبحاث التى جرت كتابتها حتى الآن كل شيء عن العنصر الأدبى للمسلمين . ولا يرتبط بأية آراء منفصلة تواجد العنصر الأدبى للمسلمين فى إطار الآداب اليوغسلافية المكتوبة باللغة الصربوكرواتية ، وفى المقام الأول فى إطار الأدب البوسنى ، وإنما يعد ضرورة تفرضها الحياة بإعتبارها المصدر الأعلى للمفاهيم والشرعية التى يصبح المرء فى مواجهتها أسيراً وفريسة لأوهامه الشخصية أو الاجتماعية .

ولقد كان من المعتقد إلى عهد قريب أن المسلمين يمثلون الجزء الأكثر عنفاً وقسوة من سكان البوسنة والهرسك ، وأنه لم يقدم أى أحد منهم أية عناصر للحياة الروحانية والأدبية . إلا أنه حدث أمر غير متوقع تماماً . إذ أن الأبحاث الأخيرة أوضحت انه كان يوجد لدى المسلمين البوسنيين منذ أواخر القرن السادس عشر شعر فنى حقيقى ، وأفضل دليل على ذلك هو هذا الكتاب الذى تتحدث عنه هذه السطور .

وإلى عهد قريب لم يكن من الممكن التخمين على الإطلاق بوجود مثل هذه القصائد . وكل ما كان معروفاً عنها حتى الآن هو بعض الملاحظات والإشارات والشروح غير الوافية . وكان أول من أشار إلى وجود بعض النصوص الأدبية المكتوبة بالحروف العربية وباللغة الصربوكرواتية هو الباحث الروسى « ألكسندر جليفردنج » فى عام ١٨٥٩ .

وذكر المستشرق « محمد هانجيتش » فى عام ١٩٣٣ أن المؤرخين العرب والأتراك والفرس قبلوا بكل ترحيب مؤلفات المسلمين من البوسنة والهرسك ومنحوها التقديرات التى تستحقها ووضعوها فى المراتب الجديرة بها ، بينما النقاد والباحثون المتخصصون لم يقدموا على الإطلاق

لمؤلفات المسلمين بهذة المنطقة ما تستحقه من الاهتمام والتقدير .

أما الباحث « أحمد مولى خليلوفيتش » فقد تحدث فى عام ١٩٤١ عن أولئك المسلمين الذين ألفوا وأبدعوا مؤلفات أدبية باللغة المحلية (البوسنية) . وهو يعتقد أن مؤلفاتهم لقيت نفس مصير مؤلفات المسلمين المكتوبة باللغات الشرقية . ففى المدارس الثانوية وما شابهها لا يجرى على الإطلاق ذكر النشاط الأدبى للمسلمين بالبوسنة وكأنه لم يكن موجوداً البتة . بل والأدهى من ذلك أنه حتى أولئك الذين يحاضرون عن تاريخ الأدب في هذه المنطقة لا يعرفون ، فى كثير من الأحيان ، شيئاً عن هذا النشاط الأدبى الخاص بالمسلمين ، وحتى فى الجامعات لا تتم دراسة مؤلفات الأدباء المسلمين البوسنيين ، إلا أنه من المحتم التنويه إلى أنه حدث تغير فى الآونة الأخيرة . حقيقة أنه تغير حثيث وغير كاف ولكنه تغير على أى حال من الأحوال . ولا شك أن الأسباب عديدة ومعقدة ، ومن أبرزها أنه يتم فى الأغلب إعتبار المسلمين أمة وفئة اجتماعية وهذه قضية شائكة لم يتم حسمها حتى الآن .

ومن المعلوم أن الإبداع الأدبى لأى شعب من الشعوب ليس أمراً عابراً ولا يمكن أن تزيله الصدفة المحضة أو ألد الأعداء . ولا تستطيع القوة أو الصدفة أو السنون أن تعمل على تعتيم وحجب الانجازات الأدبية لأى شعب حصل على مكاسب مادية واقتصادية حينما انتصر على الظلام والجهل والبربرية . ويظل هذا الانتصار على مر القرون أمانة لدى الأجيال التالية والأزمان الآتية .

تتألف هذه المختارات من ستة فصول مستقلة . وفى الفصل الأول الذى يحمل عنوان « قصائد القلب » يتم عرض مختارات من الشعر الشعبى للمسلمين . ويشمل هذا الفصل عدداً كبيراً من القصائد التى

اشتهرت لدى جماهير الشعب والتى من الممكن سماعها بصوت المنشدين الشعبيين للألحان الشعبية .

ويرى النقاد أن هذا الفصل الأول من أهم أجزاء المختارات وأكثرها قيمة وذلك لأنه يشمل الإبداع الشعبى الذى يتم فيه تكثيف الخبرات الثرية لطبقات الشعب العريضة . وعلى صفحات هذا الفصل توجد قصائد نشأت فى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، وتوارثتها فيما بعد الأجيال الشابة وتم الاعتناء بها والحفاظ عليها . ومن المحتم التنويه هنا إلى أن نشر مثل هذه المختارات يعد أسلوباً جيداً للحفاظ على كثير من هذه الإبداعات الشعبية .

ولم يغفل معظم النقاد فى كتاباتهم الأهمية الكبرى للشعر الشعبى . ورغم أنه لم يتم التيقن بشكل علمى دقيق من مكان وزمان ظهور الملاحم الشعبية المتميزة إلا أنه من المعلوم أن منطقة البوسنة والهرسك ، وهى أكثر الأقاليم نقاوة من الناحية القومية ، لعبت أهم دور فى الاعتناء بالقصائد الشعبية الملحمية والغنائية والحفاظ عليها . وحينما أيقظ فوك كرادجيتش الاهتمام العلمى والأدبى بالثروة الشعرية لشعب البوسنة والهرسك ولما شرع فى جمعها تبين أن أكبر وأفضل جزء من القصائد الشعبية محفوظ فى البوسنة . وهذه الحقيقة يمكن اعتبارها دليلاً لا يدحض على أنه يوجد بين سكان الريف غير المتعلمين فى منطقة البوسنة بشكل خاص اهتمام فنى وتقاليد قوية للإبداع الأدبى كشرط أساسى هام للتطور الثقافى . وهذه التقاليد الخاصة بالأدب الشعبى الشفاهى شكلت قاعدة صلبة أقيمت عليها – عن عمد أو غير عمد – الكلمة المعاصرة للأدب فى البوسنة والهرسك .

واكتسب الشعر الغنائى الشعبى الذى تطور بوجه عام فى المدن الكبيرة والصغيرة الكثير من السمات الشرقية وعلى الأخص فى اللغة

واللحن . وتتضح بشكل متميز فى القصائد العاطفية آثار الحساسية ورقة الشعور الشرقية التى تغلغلت تغلغلاً عميقاً عبر هذا الجنس الأدبى إلى نفوس البوسنيين وإلى أدبهم ، ولذا فهى متواجدة على نحو متفاوت لدى جميع كتاب القصة والرواية . ومن الطريف وليس من قبيل المصادفة أن هذا الخط بارز بشكل أكثر قوة لدى القصاصين المسلمين لأن الجزء الإسلامى من جماهير الشعب كانت له صلات مباشرة بالشرق الإسلامى .

وبلغ الشعر الشعبى للمسلمين أعلى مدى له فى القصائد الملحمية . والقصائد التى تشملها صفحات هذا الفصل تقدم بتعبير فنى نادر عرضاً للظروف التى كانت تعيش فيها الأسرة المسلمة ، وتعرض روايات ومآسى كاملة حافلة بالصراعات والفواجع .

وبعبوره عن طريق القصيدة الشعبية إلى المجال الروحى لأوروبا استوعب شعب البوسنة فى القرن التاسع عشر كل القيم المرتبطة بالثروة الشعبية . وذكر الباحثون الغربيون أن القصيدة الشعبية التى تتحدث عن المرأة تحمل بين ثناياها كل جمال الشعر الغنائى الشرقى والعربى . واكتشف باحثو الأدب فى أوروبا كل قيم الشعر الشعبى البوسنى وأشاروا إلى مميزاته الأخلاقية والقومية والأسلوبية . ومن المؤكد أن هذا الشعر الشعبى ساهم مساهمة كبيرة فى تشكيل الإيمان بالقوة الإبداعية للشعب البوسنى ، وفى نضاله من أجل الحفاظ على لغته الشعبية . وقدم هذا الشعر أفضل الأشكال والصيغ فى مجال الأسلوب واللغة فى فترة الرومانسية ، وبتأثيره على شعراء البوسنة أصبح فى الآونة نفسها أفضل مصدر لتاريخ هذه المنطقة .

وبينما انتقلت القصائد الدرامية إلى التراث الأدبى فقد حافظت القصائد العاطفية على استمراريتها فى البقاء وعلى الأخص فى منطقة البوسنة ومازالت تجابه الزمن الحديث وتقاوم التشوهات إلا أن مقاومتها

فى تناقص واضح . ويتمثل الخلاف الجوهرى بين القصيدة العاطفية والقصيدة الدرامية أن الأولى تخلو من الأحداث فى تطورها المتميز وسيرها الديناميكى ، أما الثانية فتصور الأحاسيس المؤلمة التى تركها حدث أو تصرف .

والقسم الثانى من المختارات يشمل نماذج من الحكايات الشعبية للمسلمين كتعبير نثرى شفاهى ، وقد أثارت الحكايات اهتمام الجانب الأكبر من الباحثين وتغلغلت إلى جميع الأماكن التى يقطنها البشر : إلى الأكواخ الجبلية البدائية وإلى منازل الأثرياء الواقعة على مفترقات الطرق المزدحمة فى المدن ، وإلى القصور المنعزلة للنبلاء ، وإلى جميع الأماكن الأخرى التى يتجمع فيها الناس ويقيمون معاً . وتتغلغل الحكايات الشعبية فى الوقت الحالى فى المدارس والمكتبات ومن المرجح أنها ستحتفظ بسحرها وحلاوة سردها فى الأزمنة التالية .

وتعد الحكاية الشعبية كشكل أدبى وكأسلوب للتعبير أكثر انفتاحاً وحرية ، أو بعبارة أفضل ، جنساً أدبياً أكثر مرونة . ويمكنها أن تستوعب قدراً من المحتويات المتنوعة والمضامين المتباينة يفوق ما تشتمل عليه القصيدة الشعبية الملحمية والغنائية وتستوجب مطالب أقل فى مجال الصياغة والتعبير . وهذا يعنى أن هياكلها وإطاراتها أكثر اتساعاً ورحابة ، ويتم من خلالها طرح المطالب بحرية أكثر وبالتالى فالقصاصون يشعرون بحرية نسبية أكبر .

وتوصف مناطق البوسنة والهرسك والجبل الأسود بأنها بمثابة الخازنة الرئيسية للثروة الشعبية البوسنية من قصائد وحكايات جادة وفكاهية . ففى هذه المناطق كان يعيش أفضل المنشدين والرواة ويقومون بتسلية الجماهير الشعبية . وتتفوق هذه المناطق على بقية المناطق المجاورة الأخرى من حيث قوة تعبيرها وجمال وثراء لغتها فى الإبداعات الأدبية .

ويؤكد جامعو الحكايات الشعبية فى البوسنة أن الحكايات الخاصة بالمسلمين تحمل خصائص الأسلوب الشرقى ويشير مضمونها إشارة جلية إلى أن أصلها ومنشأها من الشرق . ومن المؤكد أنه قد تم خلال رحلات التجارة إلى الشرق أو الذهاب إلى الحج نقل مثل هذه الحكايات .

وتنتسب إلى نفس الأصل الحكايات العديدة والطرائف الخاصة بنصر الدين خوجة ، وهو شخصية مشهورة لدى البوسنيين ويعد صورة مطابقة لشخصية جحا العربى . ويتم حتى يومنا هذا سرد الكثير من طرائفه ونوادره والاستشهاد بالأمثال الشعبية المرتبطة به وبحياته . وبذلك دخل نصر الدين خوجة إلى معظم المجموعات القصصية الشعبية الفكاهية ، ويتم فى كثير من هذه القصص الإحساس بالحياة الشعبية العسيرة وبالآلام التى تجثم على صدور الناس .

ويقدم لنا الفصل الثالث مختارات من الملاحم الشعبية التى تتغنى بالأبطال المسلمين وبطولاتهم . ومما لا شك فيه أن الشعر الغنائى والحكايات الشعبية والملاحم تشكل فى الحقيقة جانباً متميزاً وهاماً من هذه المختارات التى تم فيها تقديم الإبداعات الشفاهية للمسلمين التى ترجع جذورها إلى القرون الوسطى .

وتؤكد المراجع التاريخية أن شعب البوسنة كانت لديه ملاحم شعبية فى القرن السادس عشر . وبالرغم من أن المنشد الشعبى كان يطلق العنان لخياله إلا أن أغلبية قصائد المسلمين وغيرها من القصائد لها جذور تاريخية معروفة وذلك أولاً بسبب انقسام الشعب من الناحية الدينية وثانياً لاختلاف تبعيتهم من امبراطورية لأخرى .

وفى أثناء معارك الحدود المستمرة خلال الحكم العثمانى لهذه المناطق ، ربما حتى منتصف القرن الثامن عشر ، احتفظت القصيدة بعلاقاتها بالواقع الحياتى . ولكن مع استقرار الأحوال على الحدود

لم تنفصل أيضاً الملحمة عن الحياة وغيرت تدريجياً دورها . ومن المرجح أن تطور الملاحم الشعبية للمسلمين أخذ يبعدها عن شكلها الأصلى وأصبحت تلقى اهتماماً وعناية من الطبقات العليا فى المجتمع .

وقد لاحظ الباحثون أن هذه الملاحم ، من حيث لغتها ومقاطعها وترتيبها ، مماثلة للقصائد الملحمية الشعبية في المناطق المجاورة الأخرى . وبالرغم من ذلك فهى تختلف عنها فى أشياء وتتميز عنها فى أشياء كثيرة . وفيما عدا بعض الملاحم التى لا يرد فيها ذكر النساء فيمكن القول أنها كلها حافلة بالرومانسية الجديدة . وترتبط موضوعاتها بالقتال والمبارزة من أجل النساء ، وبالزواج وبحفلات الزفاف وبالهجوم على مثل هذه الحفلات ، وبخطف الفتيات ودفع فدية الأسرى من الأبطال وإهداء الفتيات لهم وبرد الظلم والانتقام وما شابه ذلك .

والفصل الرابع من المختارات يضم الشعر البرناسى الشرقى ، وهو فرع أدبى طريف ، حيث تم تقديم المسلمين على اعتبار أنهم جزء من الثقافة الاستشراقية . والأمر هنا يتعلق بمؤلفات الذين ألفوا وكتبوا باللغات التركية والعربية والفارسية . وهنا نجد القصائد الغنائية الانطباعية عن مدينتى سرايفو وموستار ، وعن الحب والسعادة والألم والمعاناة ويسيطر على مختارات هذا الفصل الشعر الذى يحمل طابعاً دنيوياً ودينياً صوفياً ، وتوجد هنا أيضاً قصائد الغزل ومدح الحياة وقصائد العشق الإلهى .

ومنذ الأيام الأولى لدخول الإسلام فى منطقة البوسنة كان يتلقى العلم فى المدارس الإسلامية المحلية وفى مثيلاتها بالقسطنطينية العديد من المسلمين وحصل كثيرون منهم بأعمالهم وأنشطتهم على أماكن بارزة فى الأدب والاستشراق الإسلامى . وتذكر الأبحاث بيانات عن حياة ونشاط حوالى مائة وثلاثين شاعراً وأديباً ، ونشرت أجزاء أصلية ومترجمة من قصائدهم وأعمالهم الأدبية . وفى عام ١٩٣٤ صدر كتاب آخر تحدث فيه

مؤلفه عن حياة ومؤلفات مائتين من الشعراء والعلماء المسلمين ، وأفسح فيه مجالاً أكبر للمؤلفين فى علوم العقائد والتاريخ واللغة . ويعد العصر الذهبى للآداب المتمثلة بالشرق فى منطقة البوسنة خلال القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر ، إلا أن هذه الآداب تمكنت من تحقيق استمرارية حتى القرن العشرين .

وبجانب الأدب الشعبى والإبداع باللغات الشرقية يظهر فرع ثالث لأدب المسلمين فى البوسنة والهرسك حتى عام ١٨٧٨ وهو نشاطهم الإبداعى الأدبى باللغة الصربوكرواتية والمكتوب بالحروف العربية ، وهو ما يسمى بالأدب « الهاميادو » . وهذا الاسم يعد تحريفاً لكلمة أعجمى .

ويعتبر هذا اللون من الأدب ظاهرة إقليمية قومية ظهرت فى المناطق التى وقعت تحت تأثير الأدبين والثقافتين العربية والتركية . وتجلت هذه الظاهرة بشكل واضح حينما أخذ مسلمو البوسنة والهرسك يستخدمون فى مراسلاتهم الشخصية اللغة البوسنية المحلية المكتوبة بحروف عربية . ولم يكن يتم تعلم هذه اللغة فى المدارس ولكن كانت تنتقل من جيل إلى جيل . وتم فيما بعد استخدام هذه اللغة فى كتابة الكتب الدينية الأساسية والحفاظ على بعض من المخطوطات .

وفى وقت ازدهار أدب المسلمين باللغات الشرقية (التركية والعربية والفارسية) وفى فترة الانتقال من القرن السادس عشر إلى القرن السابع عشر حينما ظهر أهم الأدباء المسلمين الذين يرجع أصلهم إلى هذه المنطقة لم يكن هناك أحد يقرض الشعر أو يبدع أدباً باللغة الشعبية البوسنية . وهذه الفترة من انحسار الإبداع الأدبى باللغة الشعبية تمثل فترة ازدهار للإبداع الأدبى باللغة الشعبية المكتوبة بالحروف العربية من منتصف القرن السابع عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر . إلا أن هذا

الأدب الأعجمى يتخلف من الناحية الأدبية تخلفاً بعيداً من حيث جودته الشعرية وتنوع أجناسه ومستوى مضامينه عن الإبداعات الأدبية المكتوبة باللغات الشرقية التى تعد تالية لها تاريخياً وزمنياً .

والسبب فى هذا يرجع فى المقام الأول إلى أنه لم يكن يقرض الشعر ويمارس الكتابة الأدبية باللغة الشعبية إلا أشخاص متوسطو التعليم يمتلكون قدرات إبداعية ضئيلة ولم تكن لديهم معرفة بالإبداعات الآدبية للآداب الشرقية التقليدية بحيث يمكنهم على الصعيد الإبداعى نقل واستيعاب قيمها الأدبية عند التأليف والإبداع باللغة الشعبية . ومن الواضح أن نقص التقاليد الأدبية الأصيلة باللغة الشعبية وعدم معرفة الابداع الأدبى للشعوب السلافية المجاورة المنغلقة من الناحية الدينية فى منطقة البوسنة والهرسك جعلت الأدب الأعجمى من حيث أفكاره وموضوعاته ومضامينه يعتمد على الشكل التعليمى الدينى للآداب الشرقية الموروثة ، وكذلك على الشعر الشعبى للمسلمين فى الشكل والتعبير مع تبسيطه إلى حد أن يصبح كلاماً دقيقاً جافاً خالياً من الشاعرية .

والأدب الأعجمى يمثل أهم عنصر فى الحفاظ على السمات اللغوية المميزة للبوسنة وعلى ثقافتها . وفى فترة سيادة الأدب الجديد كان الأدب الأعجمى معيناً لا ينضب يستمد منه القراء ما يطفئ ظمأهم الأدبى ، وفى فترة الحكم العثمانى كان حارساً على الخصائص الروحية لهذه المنطقة .

وفى النهاية نصل إلى الجزء الأخير من مختارات الجواهر الذى يعد قريباً بشكل خاص من قلب وعقل القارئ المعاصر . وهذا الفصل الأخير يشمل مختارات من الأعمال الإبداعية للأدباء المشهورين من هذه المنطقة والذين كانوا يبدعون ويؤلفون فى شتى الأجناس الأدبية فى القرنين الماضى والحالى .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن الفترة الحاسمة فى التاريخ الثقافى

والأدبى للمسلمين هى فترة الحكم النمساوى المجرى ، وعلى الأخص السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين . واحتلال الامبراطورية النمساوية المجرية لمنطقة البوسنة والهرسك يعنى بالنسبة للمسلمين أولاً وقبل كل شيء الانتقال من حضارة إلى أخرى وإلى مجال ثقافة آخر وانتهاج أسلوب مغاير للحياة . ولم يكن من الممكن على الإطلاق أن يمضى هذا الانتقال وذلك التغير ببساطة وبسرعة وبدون آلام ومعاناة .

وقبل ذلك ظل المسلمون بالبوسنة لعدة قرون موجودين فى محيط الدائرة الإسلامية الفريدة ومندمجين اندماجاً كاملاً فى المجتمع العثمانى الاقطاعى المتميز ، وربطتهم به مئات المصالح والعلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية والخيوط النفسية السميكة والرقيقة . وجاء الاحتلال ليمزق تقريباً كل هذه العلاقات والخيوط وشعروا لسنوات عديدة بالضياع وانعدام الوزن .

وكان أول مسلم يتقبل الظروف الجديدة ويستوعبها هو محمد بك قبطانوفيتش لوبوشاك الذى كان أول من طبع كتبه بالحروف الحالية . وأصدر « رسالة الأخلاق » و« الثروة الشعبية » و« الكنز الشرقى » ، وبهذه الكتب حدد اتجاه تطور الأدب الحديث للمسلمين . وكتابه « الثروة الشعبية » يعكس الوعى بالكيان العرقى السلافى للمسلمين البوسنيين . أما كتابه « الكنز الشرقى » فيكشف التأثيرات الثقافية الحاسمة التى شكلت وصاغت الروح الشعبية المتميزة لهذا الكيان . ومن هنا بزغت فكرة الوساطة التى يقوم بها المسلمون البوسنيون بين الحضارتين الشرقية والغربية .

وأصدر قبطانوفيتش فى عام ١٨٩١ مجلة « البوسنى » التى نصح فيها المسلمون بضرورة وحتمية تقبل الثقافة الأوروبية وأسلوب الحياة

الأوروبى . ومن بين صفوف مساعديه فى تحرير هذه المجلة برز فيما بعد حملة مشاعل الحركة الثقافية ومؤسسو الأدب الحديث للمسلمين . ويرجع إليهم الفضل الأكبر فى أنهم أصدروا فى عام ١٩٠٠ وما بعدها مجلات أدبية للمسلمين لكى ينشطوا الحركة الأدبية .

ومنذ أن اصطبغ أدب المسلمين فى القرنين التاسع عشر والعشرين بالصبغة الأوروبية مر بتلك المراحل التطورية والتكوينية المتميزة لجميع الآداب الأوروبية من عقلانية ورومانسية وانطباعية وتعبيرية ، وعن طريق التحولات المفاجئة والتطورات السريعة تساوى أدب المسلمين من ناحية توجهاته الأساسية وأساليب صياغته مع آداب الشعوب المجاورة وعلى الأخص فى صربيا وكرواتيا . وإذا كان هذا قد حدث خلال أربعين عاماً من اللقاء مع أوروبا فإنه لا ينبغى أن يثير حيرتنا أو أن يقلل من أهمية هذا التحول غير العادى الذى استمر أيضاً فى فترة ما بعد الحرب العالمية .

وعلى صفحات هذا الفصل الأخير نجد مختارات من إبداعات أشهر الأدباء والشعراء من الرعيل الأول ثم جيل الوسط بل ومن جيل الشباب .

وقد قام « على إسحاقوفيتش » معد هذه المختارات – عن علم واطلاع – بانتقاء كل ما يتضمن قيمة وله أهمية . وبذلك قدم للقراء فرصة نادرة لمتابعة الابداع الأدبى للمسلمين منذ السنوات الأولى لاعتناقهم الإسلام وحتى وقتنا الحالى . وهذا الإبداع متميز وفريد فى كثير من جوانبه ، ولكنه فى كثير من جوانبه أيضاً يدخل فى تاريخ الأدب اليوغسلافى ويتشابك معه ومع إطارات الأدب المعاصر بوجه عام . ومن حيث أفكاره وموضوعاته ولغته وأسلوبه فهذا الأدب مشابه للأدبين الكرواتى والصربى ويرتبط بهما كما يرتبط شعب البوسنة بروابط وعلاقات مشتركة مع الشعبين الكرواتى والصربى . وانتقاءات المعد

لها أهمية وقيمة كبيرتان لأنه يتواجد فيها أولئك الأدباء وتلك المؤلفات التي نستشعر فيها بالخط السلافي والتبعية السلافية وتتضمن تركيزاً خاصاً على حب الوطن والوطنية .

واستهدف المعد من هذه المختارات من أدب المسلمين في البوسنة وغيرها من المناطق نظم عقد من الجواهر المنثورة بين ذرات تراب العصور والأزمنة ، الضائعة في طيات الإهمال والقصور النسيان .

وتعد هذه المختارات شكلاً متناسقاً متكاملاً نلتقي فيه بالألوان البوسنية المتعددة وتنوع درجاتها . ولا شك أن الأهمية الكبرى التي ينطوي عليها هذا الكتاب هو عدم وجود سوابق مشابهة له على أي نحو ، ولذا فقد اضطر معد الكتاب لأن يقوم بنفسه بعملية الاختيار والترتيب والتصنيف . وهذه النوعية من الأعمال تحمل في طياتها خطراً مزدوجاً . وهكذا كان على معد المختارات أن يجمع عدداً كبيراً من الأعمال وأن يقيمها ويصنفها . وكان عليه كذلك أن يضع في اعتباره الاعتراضات التي تم توجيهها إلى هذا الأدب وأن يصفي الخلافات الناشئة حول ملكيته وإغفاله والاستهانة به من جانب بعض الدوائر الثقافية والأدبية في جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي السابق .

وكان من اللازم مرور فترة طويلة من الوقت لكي يتم إثبات أن أدب المسلمين هو جزء من المكاسب الحضارية لشعوب البوسنة والهرسك مثله مثل الآداب الأخرى ، ولكي يتم التيقن من أن هذا الأدب يشكل ثراءً للحياة في هذه المنطقة وثراءً للمضامين الروحية المشتركة لهذه الشعوب . وبفضل الباحث « على إسحاقوفيتش » وأمثاله من الباحثين السابقين تم تجاوز جميع العقبات والتغلب عليها وحظى ادب المسلمين بهذه الطبعة الثانية من كتاب « الجواهر » المشتمل على مختارات من أدب المسلمين على حفاوة جديدة وعلى تأكيد آخر بأهميته على هذه الأرض .

إبداعات المسلمين باللغة العربية

لن يختلف معى كثيرون إذا اعتبرت أن التعرف على تراثنا الإسلامى يمكنه ، على نحو ما ، أن ينقذنا من أغلال التأخر ويزيل أشواك التخلف من طريق حياتنا ، وأن يزيح النقاب أمام أعيننا عما خفى علينا من كنوز الماضى ومعارفه وبالتالى قد يكشف لنا عن آفاق العصر وطموحاته . وليس من نافلة القول التنويه إلى أن إزاحة ستائر النسيان والإغفال عن تراثنا ستدعم هويتنا وشخصيتنا الإسلامية العربية وتدلل على وجودنا الحضارى الإسلامى الذى امتدت آثاره إلى أماكن عديدة عبر أزمان كثيرة .

وما زال الكثير من كتب التراث الإسلامى فى معظم أقطار العالم فى حاجة ماسة إلى إحياء التراث ، ، وأقصد بإحياء التراث هنا ضرورة قيام مجموعات متخصصة من الدارسين والباحثين ببعثات دراسية علمية فى جميع أنحاء العالم بحثاً عن التراث الإسلامى بهدف تحقيقه وتمحيصه ودراسته . وهذه أمور ضرورية وواجبة لأننا سنجد فى كتب التراث هذه الكثير من الأمور الأصيلة الإيجابية والمعلومات الجيدة المفيدة .

ومن المعلوم أن مختلف المكتبات وإدارات السجلات الموجودة فى جمهورية البوسنة والهرسك تحوى الألوف من المخطوطات والكتب الثمينة التى تفيدنا أيما إفادة عند التأريخ لبعض الأحداث الإسلامية التى وقعت فى الماضى وعند دراسة التراث الإسلامى ، وعلى الأخص عند دراسة التأثيرات الحضارية الإسلامية على شعوب البوسنة والهرسك خلال فترة وجود الآتراك العثمانيين بها . ومازالت هذه المخطوطات

والكتب فى حاجة إلى جرأة المحققين والباحثين وإلى إقدام وتضحيات الناشرين فى سبيل كشف مكنوناتها والتعرف على محتوياتها .

وقد دأب معظم المؤرخين بجمهوريات الاتحاد اليوغسلافى السابق ، فى الماضى غير البعيد ، على إبراز وتضخيم الجوانب السلبية مع تعمد إغفال أو نسيان الجوانب الإيجابية لوجود الأتراك العثمانيين بهذه المناطق . وكان لهذا الإغفال المتعمد أسبابه السياسية وخلفيته الاجتماعية ، وهى أمور أصبحت معروفة جيد المعرفة لمن يتابع مثل هذه الأمور .

بيد أن الحق لا يلبث أن يظهر وسرعان ما يزهق الباطل ، فتلك هى طبيعة الحياة فى كل زمان ومكان . ومن هنا نجد أنه ظهر فى الآونة الأخيرة بعض الباحثين والمتخصصين الجادين الذين قاموا بوضع الحق فى نصابه وتسليط الأضواء على الجوانب السلبية وكذلك الإيجابية لوجود الأتراك العثمانيين بهذه المناطق فى حقبة ليست بالقصيرة تجاوزت الأربعة قرون ، من عام ١٤٦٣ وحتى عام ١٨٧٨ .

وقد نوهنا من قبل إلى أن الأتراك العثمانيين قاموا بدور الوساطة والنشر لعناصر الحضارة والثقافة العربية الإسلامية بين السلاف فى منطقة البلقان كلها . وتعمقت التأثيرات الإسلامية تعمقاً خاصاً بين سكان البوسنة والهرسك لدرجة أن كثيراً من هذه التأثيرات والعناصر مازال موجوداً حتى بعد انحسار وزوال السيطرة العثمانية .

ووفقاً لما سجله بعض الرحالة الأوروبيين آنذاك فإن ثلاثة أرباع سكان منطقة البوسنة والهرسك كانوا من المسلمين فى بداية القرن السابع عشر ، وكان هؤلاء المسلمون أفضل سند للعثمانيين فى حكمهم لهذا الجزء من أوروبا ، بل وكانوا فى مقدمة الجيش العثمانى الغازى ، وبعد انهيار الامبراطورية العثمانية كانوا بمثابة حصن للإسلام فى أوروبا .

وربما كان هذا هو أحد الأسباب الرئيسية لما تعرض ويتعرض له مسلمو البوسنة والهرسك من أعمال لا إنسانية بعد تفتت الاتحاد اليوغسلافى .

ومن تلك الجوانب الإيجابية التى يتم فى الوقت الحالى تسليط الأضواء عليها دون وجل ، أن الأتراك العثمانيين ركزوا على إقامة مؤسسات تعليمية مختلفة خرجت العديد من أجيال المثقفين المسلمين من أهل هذه البلاد . ولابد من التنويه فى هذا المضمار إلى أن تعلم اللغة العربية استحوذ على دور ريادى على أساس أنها لغة الإسلام . وكان الآباء من مسلمى البوسنة والهرسك يعتبرون أن من أهم واجباتهم أن يعلموا أولادهم ولو قليلاً من اللغة العربية حتى يسهل عليهم قراءة القرآن وغيره من الكتب .

ونتيجة لهذه الثقافة الإسلامية ألف الأدباء والعلماء المسلمون من البوسنة والهرسك باللغة العربية كتباً فى مختلف الموضوعات والمجالات ، ومنها علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه والعقائد والشريعة والتصوف ومختلف علوم الدين والتاريخ وأدب الرحلات والشعر وفى علوم اللغة العربية ، ثم الجغرافيا والرياضة والمنطق والوعظ والإدارة الحكيمة وتنظيم الدولة والطهارة والحيوانات وغير ذلك من المجالات .

ومن هؤلاء العلماء المسلمين من البوسنة العالم أحمد شمس الدين البوسنوى السرائى المولود فى بلدة سراى (أى سرايفو) بمنطقة البوسنة والهرسك . وقد نشأ طالباً للعلوم والمعارف ومستفيداً من كل عالم وعارف ، وأكثر من نشاطه فى مجال التحصيل والاستفادة . . ولازم المولى محيى الدين فى مدرسة السيدة مهروماه ببلدة سكادار واشتغل معلماً للوزير محمود باشا المشهور بزال . كما أنه كان عالماً حسن السمت ، سيرته طيبة وسريرته نقية ، سليم الذهن مستقيم الطبع .

وكان منهمكاً فى أعماله ومؤلفاته ومبتعداً عن القيل والقال . وكان يجيد كتابة النثر والمنظوم ، وضليعاً فى كلام العرب وألوان الأدب . وتوفى رحمه الله فى عام ١٥٧٥م . (٩٨٣هـ .) وهو فى عنفوان شبابه يعمل بمدرسة السلطان محمد بمدينة بروسه .

وكتب العالم أحمد شمس الدين رسالتين ، إحداهما فى وصف القلم على عادة بلغاء زمانه ، وأخرى فى وصف السيف . واختار القلم والسيف باعتبارهما رمزين للعلم والشجاعة وباعتبارهما أساسين جوهريين لتشييد الدولة وازدهارها .

ومن رسالته فى وصف القلم : شجرة تخرج من طور سيناء أصلها ثابت وفرعها فى السماء إذا نزل عليها الماء اهتزت وكلما أتت بأثمارها تجددت . يوسف عانقه أخوته عناق الحب وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب ، قدّ قميصه من غير طغيان ، سجن وليس له عدوان . تارة تراه وهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ومرة تلقاه كطائر يطير بجناحيه على قفاه .

ومن رسالته فى وصف السيف : فياسائلى عن أصل ذلك النصل ، استمع لما يتلى عليك فى هذا الفصل ، إنه نص قاطع وبرهان ساطع . ذو النون ذهب مغاضباً فالتقمه الحوت فنادى فى ظلمة فاحمة فنبذناه وأنبتنا عليه شجرة قائمة .

ومن بين هؤلاء العلماء العالم الجليل المشهور باسم حسن بن طورخان كافى الأقحصارى . وهو بصير بمسائل الفقه ، ضليع فى أصوله النحوية والصرفية وله قدم راسخ فى علم أصول الدين ، هذا علاوة على أنه أديب وشاعر . وقد ولد فى عام ١٥٤٢م . (٩٥١هـ .) ببلدة أقحصار (أى بروساتس الحالية) . وكان أبوه من المولدين فى منطقة اسكندر الرومية ثم ارتحل إلى ناحية أقحصاره . وكان مسيحياً هداه الله إلى الإسلام عند

مجئ السلطان محمد خان لفتح هذه المنطقة وعاش فى الإسلام إلى أوائل سلطنة السلطان سليمان خان . ثم رزقه الله بحسن كافى الذى شرع فى تحصيل العلم وهو فى الثانية عشرة من عمره . ولما تيسر له تحصيل مبادئ العلوم فى بلده ارتحل حسن كافى إلى القسطنطينية وأخذ عن المشايخ والعلماء واشتغل عند كثير من الفضلاء إلى أن تتلمذ على يد الشيخ العالم كمال باشا زاده الذى كان يعمل بالتدريس فى بلدة «جتالجة» واستفاد استفادة عظيمة من بحار علمه وأبحاثه . ولما نال حظاً وافراً من العلم ونصيباً كبيراً من جيد الفهم عاد إلى بلدة أقحصار حوالى عام ١٥٧٤م . (٩٨٣هـ .) وعقد لطلبته مجلساً للدرس واشتغل قاضياً بمدينة أقحصار . وفى أثناء الدرس والقضاء شرع فى تأليف العديد من الكتب المتنوعة .

ومن هذه الكتب « رسالة فى تحقيق لفظ جلبى » وهى دراسة فيلولوجية فى مجال اللغة العربية انتهى فيها إلى أن هذا اللفظ يعنى الإنسان العالم الكامل المتدين ، ثم يستغل هذه الفرصة لكى يندد بأصحاب النفوذ السياسى وبحقهم فى الاستحواذ على الخير من وراء مناصبهم . ويطالب باستخدام المعايير الإنسانية عند تقدير الأفراد ، وهكذا نرى أن المؤلف يريد التركيز على رأيه الذى يفيد بأن قيمة الإنسان تقدر على أساس ما قدمه للمجتمع .

وفى مجال البلاغة العربية كتب رسالة « تمحيص التلخيص فى علم البلاغة » ، وهى فى حقيقتها دراسة مختصرة لكتاب القزوينى التلخيص . ثم ألف حسن كافى كتاب « نظام العلماء إلى خاتم الأنبياء » . وفى مجال الدين والشريعة ألف « روضة الجنة فى أصول الاعتقادات » ، وكتب تعليقاً على هذا الكتاب بعنوان « أزهار الروضة » ، ثم ألف حديقة الصلاة التى هى « رأس العبادات » و « ونور اليقين فى أصول الدين » الذى يعد تعليقاً على كتاب عقيدة أهل السنة للتهاوى . كما ألف كتاب « سمت

الوصول إلى علم الأصول » . وفى مجال المنطق كتب « مختصر الكافى فى المنطق » وتعليقاً غير كامل على هذا الكتاب . وهذه الكتب فى معظمها مخطوطات محفوظة فى مكتبات البوسنة تنتظر الناشر الجرئ .

ومن أشهر كتبه على الإطلاق كتاب « أصول الحكم فى نظام العالم » . وهذا الكتاب يحتوى على مقدمة وأربعة أصول وخاتمة . ويتحدث المؤلف فى المقدمة عن أسباب تنظيم هذا العالم بقوله أن الله تعالى لما قدر بقاء العالم ببقاء نوع الإنسان إلى وقت معلوم وبقاء بالتناسل وهو بالمعاشرة والتعامل اقتضت الحاجة وجود أسلوب ينضبط به أمر الإنسان على وجه أحسن فى جميع الأزمان ، ولذا فإن قدماء العلماء وحكماء القدماء رتبوا الناس على أربعة أصناف . صنف للسيف ، والثانى للقلم ، والثالث للحرث والزرع ، والرابع للحرفة والتجارة . وجعلوا التصرف فى الكل ملكاً وأمارة .

ومن العلماء المسلمين أيضاً **العلامة الشيخ علاءالدين على دده السكتوارى البوسنى** ، وهو مولود ببلدة موستار فى منطقة البوسنة اليوغسلافية . وأنهى دراسته الأولى فى مسقط رأسه ثم أكملها فى اسطنبول . وبعد انتهائه من الدراسة انضم إلى أتباع الطريقة الخلوتية الصوفية عند الشيخ مصلح بن نور الدين الخلوتى . وآخذ منه إجازة بالإرشاد واجتهد عنده إلى أن صار من جملة حلفائه ثم ساح فى البلاد لكى يزور المراكز الصوفية المشهورة وكبار مشايخ الطريقة وذلك وفقاً لعادات الصوفيين آنذاك . وأدى فريضة الحج عدة مرات وأقام بمكة فترة من الزمن كتب فيها عدة مؤلفات له .

وبعد وفاة السلطان سليمان فى عام ٩٧٤هـ (١٥٦٦م .) عند قلعة سكتوار أقيم فى مكان وفاته مشهد وتكية للصوفية ، وتم تعيين الشيخ علاء الدين شيخاً للتكية وحارساً للمشهد . ومن أجل هذا حصل على لقب

شيخ المشهد ، وظل يحاضر فى هذه الزاوية العلوم الصوفية والدينية (علوم الظاهر والباطن) . ووزع إجازات الإرشاد على مشايخ مناطق الحدود وهو يعيش عيشة متدينة متواضعة .

وفى هذا المكان كتب فى عام ١٠٠٠ هجرية (١٥٩١ ميلادية) كتابه « مشاكل الفلسفة » . وبعد ذلك بعام توجه إلى مكة وفقاً لأوامر السلطان مراد الثالث لكى يشرف على إصلاح مقام إبراهيم . ومما يذكر أن هذه المهمة قد أوكلت له بناء على اقتراح درويش باشا الموستارى (أى من نفس بلدته) الذى كان آنذاك مستشاراً للسلطان وله تأثير عظيم داخل القصر السلطانى . وفى مكة كتب مؤلفه « تمكين المقام » (بمعنى وضع مقام إبراهيم) فى عام ١٠٠١هـ . (١٥٩٢م .) .

وحينما تحرك محمد باشا ساتورجى لمواجهة فارادين الكبير دعا الشيخ المسن علاء الدين على دده لكى يرافقه ويقوم بتشجيع الجنود على القتال . وتوجه علاء الدين لأداء فريضة الجهاد وتشجيع الغزاة وتذكيرهم . ولدى عودة علاء الدين من هذه الغزوة الفاشلة توقف فى صحراء جويلا أمام مدينة تحمل نفس الاسم واحتسى القهوة واستراح قليلاً أمام خيمة على أفندى سكرتير السردار ، ثم نهض وخرج أمام الخيمة لكى يصلى صلاة العصر . وبعد ذلك بقليل تم العثور عليه ميتاً على السجادة . وكان هذا فى بداية ربيع الأول عام ١٠٠٧هـ . (١٥٩٨م .) .

وتم نقله إلى سيكتوار ، ووفقاً لوصيته الشخصية تم دفن جثمانه عند قبر الشيخ قاسم الذى كان قد لقى مصرعه عند فتح قلعة سيكتوار . ويحكى المؤرخ إبراهيم البجوى أن علاء الدين قال لأصدقائه فى اليوم الذى توفى فيه بعد الرجوع من الغزوة : « كنت أنتظر أن أنال الشهادة فى هذه الغزوة ولكن الله تعالى لم يرد ذلك ولا أعرف السبب » . وتوفى فى يومه ذلك وتحقق ما كان ينتظره ويتوق إليه .

ويستطرد البجوى قائلاً أنه فى أثناء عودتنا فى أحد الأيام ونحن نركب الخيل معاً ونتحدث عن الظروف فى العالم ، وعلى الأخص عن البؤس وعن المتاعب التى كنا نتحملها فى هذه الغزوة ، أبديت ملاحظة بقولى : عجيب أن هذا السردار ليس له حظ . كل هذا الجهد والمجهود وكل هذه المعاناة والمتاعب وكله يذهب هباء . وعلق على دده على ذلك بقوله : « هذا الرجل له أربعة عيوب : الكبرياء والزهو والاستبداد وحب النفس ، وأى شخص له واحدة من هذه الخصال الأربع السيئة لن يعجبه العمل على الإطلاق ولن يبتهج بأى نجاح . وكيف يغزو ويجلب النصر ويبهج الشعب ذلك الشخص الذى يمتلك كل هذه الخصال السلبية الأربعة ؟ » ويستطرد البجوى معلقاً بأن هذه الكلمات الثمينة قطعت قلبه ولذا فإنه يسجلها .

وكان علاء الدين على دده رحمه الله عالماً جليلاً ، وصوفياً ناسكاً زاهداً ، ومتعبداً مستجاب الدعوة يقنع باليسير . وله مؤلفات حسنة منها كتابه « محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر » ، وقد انتهى المؤلف منه فى عام ٩٩٨هـ (١٥٨٩ - ١٥٩٠م .) . والجزء الأول من هذا الكتاب يعد ، فى الحقيقة ، تلخيصاً « لكتاب الأوائل » لعبد الرحمن السيوطى ، وحذف منه علاء الدين أسانيد الأخبار والزوائد والتكرار وأسماء الكتب المنقول عنها ، كما أضاف علاء الدين أصنافاً من الأخبار والآثار المتعلقة بالأوائل والأواخر استخرجها من الكتب المعتبرة من محاضرات التواريخ كتحفة الألباب وتاريخ الخلفاء وسير الملوك وكنز الأسرار ومسالك الممالك وبهجة التواريخ وتاريخ الحكماء والفقهاء والنحاة وأصول التواريخ وتاريخ الجوهر الثمين فى الخلفاء الراشدين وكتاب المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة وكتاب مزهر اللغة وغيرها من الكتب المتداولة .

وفصول القسم الأول مرتبة فى سبعة وثلاثين فصلاً ، وهكذا على

سبيل المثال يتحدث عن الأحاديث المصدرة بالأوائل من أنواع الأخبار النبوية المحمدية وعن بدء المخلوقات وأوائل الكائنات وعن أوائل الألسنة واللغات ، وعن أوائل الكتب الإلهية ونزولها وعن أوائل الخطوط والأقلام وعن أوائل الأشعار والشعراء وعن أوائل الجهاد ومتعلقاته ، وعن أوائل التغنى والحداء وأوائل الصنائع والحرف .

أما الجزء الثانى فيتحدث فيه المؤلف عن الأحداث الأخيرة ، والسيوطى فى مؤلفه لا يتحدث عن ذلك على الإطلاق . وهذا القسم مقسم إلى أربعة فصول تتحدث عن الأواخر المختصة بحضرة القرآن من أواخر السور ، وعن الأواخر المتعلقة بالخلافة والملوك والدول وطبقاتها ، وعن الأواخر المختصة بأنواع الأواخر ، وعن الأواخر المختصة بدخول الجنان وخروج النيران .

ويحتوى هذا الكتاب على كمية كبيرة من الأخبار والأقوال التى تحتاج إلى تمحيص وتأكيد ، إلا أن هذا لا يقلل من قيمة المؤلف وأهميته . كما أن الكتاب مكتوب بلغة جيدة وبأسلوب واضح وجميل . وكل هذا يوضح الثقافة العالية للمؤلف وعلمه فى مختلف المجالات . وقد تم طبع الكتاب مرتين بالقاهرة وعثرت على طبعة لبنانية بالأوفست .

وكتابه الثانى هو « خواتم الحكم » المسمى « حل الرموز فى كشف الكنوز » أو « أسئلة الحكم » ، وهو مكتوب أيضاً باللغة العربية وانتهى منه فى مشهد السلطان سليمان عند سيكتوار فى عام ١٠٠٠ هجرية (١٥٩١ - ١٥٩٢م .) كما يقول المؤلف نفسه فى المقدمة : « والكتاب يحتوى على ثلثمائة وستين سؤالاً من لطائف الأسئلة الحكمية والأجوبة العلمية من الآى الفرقانية والأخبار النبوية . وكل سؤال منها بمنزلة باب من الكتاب وفصل الخطاب يكشف القناع عن وجوه الحقائق الحكمية العلمية ويسفر اللثام عن أعين الدقائق اللدنية » . وكل الإجابات ، تقريباً

مخضبة بالتصوف وأخرجها المؤلف من كتب المحققين من أصحاب الظاهر والباطن كالفتح المكى لابن العربى والاتقان فى علوم القرآن للسيوطى وكنز الأسرار للصنهاجى وكتاب المناسبات للإمام النيسابورى وغيره من كتب الكمل والراسخين .

ويحتوى الكتاب على مناقشتين فلسفيتين صغيرتين عن الأجزاء المكونة للجسم البشرى من وجهة نظر الصوفية . وملحق الكتاب مقسم إلى سبعة أطوار ، ويتحدث عن المشاكل الكونية وعن الفترات الرئيسية فى خلق العالم ، وعن حساب الزمن وعن تحرك الأجسام السماوية ، وكل هذا من وجهة نظر الصوفيين وتحت التأثير المباشر لابن عربى .

وتحلى هامش هذا الكتاب بكتاب آخر عنوانه « الأجوبة العراقية على الأسئلة الإيرانية » لشيخ الإسلام ببغداد شهاب الدين أبى الثناء السيد محمود أفندى الألوسى البغدادى . ويمتدح يوسف صالح محمد الجزماوى ، مصحح الكتابين ، الكتاب بأبيات يقول فيها :

ذا كتاب به نجاح العوالم	ورباح لجاهل ولعالم
كم سؤال طوى بنشر جواب	أوضح الحق بالدليل القائم
طرق العارفين فيه تبدت	واضحات ما شابها لوم لائم
قد كساه (على دده) حسن سبك	مسترق لكل طبع ملائم

ولقد ألف كتابه الثالث « تمكين المقام فى المسجد الحرام » حينما أرسله السلطان مراد الثالث فى عام ١٠٠١ هجرية للإشراف على إصلاح مقام إبراهيم . والكتاب مقسم إلى أربعة أركان (أى فصول) وخاتمة . والركن الأول فى سبب نزول الآيات فيه ، والثانى فيما ورد فى فضل الصلاة فيه ، والركن الثالث فيما ورد فى أسرار المقام ، والركن الرابع فى أوائل المقامات ، والخاتمة فيما قيل فى مدحه .

ومن كتبه الأخرى غير المعروفة : أنوار المشارق ، أصول

السباعيات وترتيب المراتب ، الأصول لأرباب الموصول ، مواقف الآخرة ولطائف الفاخرة ، الرسالة الانتصارية التى يبرز فيها المؤلف ميزات وفضائل الامبراطورية العثمانية .

ومن المؤكد أنه لا يزال هناك العديد من العلماء والأدباء المسلمين اليوغسلاف الذين لم يتم إلقاء الضوء عليهم وعلى مؤلفاتهم المكتوبة باللغة العربية . ونسأل الله العون فى أن نتمكن من تقديمهم وإلقاء الأضواء على مؤلفاتهم حتى يتمكن المتخصصون والمهتمون من تقدير قيمتها العلمية والفنية والأدبية بهدف أن يستفيد القراء العرب من مضمونها ومحتوياتها .

وعلاوة على هؤلاء العلماء والأدباء فمازال هناك العديد من العلماء والأدباء من المسلمين فى البوسنة والهرسك لم يتم إلقاء الضوء عليهم وعلى مؤلفاتهم وإبداعاتهم المكتوبة باللغة العربية . وأتمنى أن تسنح لنا فرصة أخرى لتقديمهم وعرض مؤلفاتهم على القراء حتى يتعرفوا عليها وعلى محتوياتها والاستفادة - إن أمكن - بمضمونها .

وقد أذهلنى أن أقرأ لبعض الباحثين فى جمهوريات الاتحاد اليوغسلافى السابق ما ينم عن تنكرهم لهذه الإبداعات التى كتبها مسلمو البوسنة والهرسك باللغة العربية فى حقبة معينة من تاريخهم ، وينبغى على الدوام البحث عن أسباب تنكر هؤلاء الباحثين لهذا الإبداع العلمى والأدبى البوسنى المكتوب باللغة العربية فى شخصيات هؤلاء الباحثين وفى كفاءاتهم ومقاصدهم من هذا التنكر ذلك لأن البعض من هؤلاء الباحثين قد أقبلوا على البحث فى هذا المضمار بقلوب مفعمة بالتعصب وبأذهان مثقلة بالأحكام المسبقة وبغير خبرة علمية كافية ، ولم يتنبهوا مطلقاً إلى روح العصر وإلى الظروف المتميزة التى كان يحياها الأديب والعالم البوسنى ويعمل فيها ويبدع آنذاك .

وإننى كأى عربى مسلم أرحب بهذه الإبداعات المكتوبة باللغة العربية

بمعرفة مسلمي البوسنة والهرسك وبأقلامهم إلا أنني أرفض رفضاً قاطعاً رأى بعض الباحثين المغرضين الذى يرى بأنه ليس هناك ما يمنع من إدراج هذا اللون من الإبداع فى إطار الأدب العربى أو العلوم العربية . ويستندون فى ذلك إلى ما حدث فى الأندلس وإلى اعتبار الأدب الأندلسى جزءًا لايتجزأ من الأدب العربى ، وهذه قضية أخرى .

والرأى عندى أن هذه الإبداعات العلمية والأدبية كتبها أدباء وعلماء مسلمون من منطقة البوسنة والهرسك باللغة العربية فى ظروف تاريخية معينة ولا يمكن اعتبارها بأى حال من الأحوال أدباً عربياً أو ضمها إلى العلوم العربية ، وإنما هى إبداعات محلية بوسنية مائة بالمائة . وذلك لأنها – فى كثير من الأحوال – تحمل بعض السمات الخاصة بأهل هذه المنطقة . كما أن الموافقة على الرأى المذكور تعد إجحافاً وإهداراً لنشاط هؤلاء الأدباء والعلماء المسلمين من البوسنة والهرسك .

بيد أننا فى ختام هذا البحث لابد وأن ننوه إلى أنه بدأت تظهر دراسات جادة وأبحاث منصفة بأقلام بوسنية وعربية وغربية تضع هذه الإبداعات فى مكانها الطبيعى فى إطار الآداب والعلوم فى البوسنة والهرسك .

الأدب الأعجمى

ويطول الحديث عن التأثيرات الإسلامية العربية على الأدب فى البوسنة والهرسك . وهناك نوع طريف آخر من آداب المسلمين بالبوسنة والهرسك تتجلى فيه التأثيرات الإسلامية العربية على هذا الأدب . ذلك هو أدب « الهاميادو » . وهذه الكلمة تعتبر تحريفاً لكلمة أعجمى .

والأدب الأعجمى فى البوسنة والهرسك عبارة عن أدب مؤلف باللغة الأم أى باللغة المحلية للبلد ، وهى اللغة الصربوكرواتية ، ومكتوب بالحروف العربية . ومن أجناسه الأدبية المشهورة « القصيدة » وهى شعر للمدح أو الرثاء أو شعر دينى ، « والالهيات » وهى شعر دينى خالص ، « والحكايات » وهى قصص دينية أو أسطورية . ومنها كذلك « العرضحال » وهو عبارة عن شكوى أو دعوى أو التماس أو قصيدة سياسية أو رسالة ، « والمحضر » وهو طلب جماعى أو شكوى . وقد استمر هذا الأدب الأعجمى موجوداً منذ منتصف القرن السابع عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر .

ويفسر بعض الباحثين هذه الظاهرة بأن المتعلمين تركوا الكتابة باللغة الأم إلى البسطاء الذين لا يملكون حظاً واسعاً من الثقافة ، وكان هؤلاء البسطاء مشغولين أكثر من أفراد الطبقات الحاكمة بهمومهم ومشاغلهم اليومية ويتحملون عبء الحروب المتكررة على الحدود المجاورة للامبراطورية ونظراً لانشغالهم بهذه الدوامة من الحياة فإن مؤلفاتهم الشعرية كانت نابعة من احتياجاتهم المباشرة فى هذه الحياة وهذه البيئة . ولذا فإن هذه القصائد لا تعكس صراعات عميقة ولا تستند إلى الحركات

الفكرية السائدة فى عصرها . ولغتها تختلط إلى حد كبير بعديد من الكلمات الأجنبية الغربية . وهذا أمر طبيعى ومفهوم إذا أخذنا فى الاعتبار أن الثقافة الشخصية لكتاب هذه القصائد ربما تكون قد أتت من مصادر أجنبية .

ولكن فى بعض الأحيان كان هناك من الشعراء من يثير الدهشة بنقاء لغته وقوة تعبيره الشعرى . وكثير من هذه الأشعار مؤلف على نظام العروض العربى ، أما من حيث مضمونها فغالباً ما تكون أخلاقية وإنسانية ولتعليم الدين ونادراً ما كانت تتسم بطابع سياسى . ومن بينها شكاوى واحتجاجات بالشعر وقصائد وطنية وأساطير دينية .

وقد كان محمد بك قبطانوفيتش لوبوشاك هو أول الأدباء المسلمين الرواد الذين اطلعوا وعرفوا الرأى العام بمؤلفات الأدب الأعجمى . وهو يبدى لنا ملاحظة مهمة تقول أن أغلب الأدباء الذين ألفوا هذا الأدب من الدراويش ورغم أنهم اكتسبوا جل معارفهم وتلقوا كل أدبهم باللغات الأجنبية إلا أنهم لم يتخلوا أو يتنكروا للغتهم الأم بل أحبوها حباً جماً مما حدا بهم إلى استخدام لغتهم الأم هذه فى تنميق أفكارهم وتسجيل المواعظ لبنى وطنهم .

ويقرر النقاد والباحثون فى البوسنة والهرسك أن هذا الأدب يمثل أهم عنصر فى الحفاظ على الخصائص اللغوية وعلى الثقافة آنذاك . وفى الفترة السابقة لسيطرة الأدب الجديد فى البوسنة والهرسك كان الأدب الأعجمى هو المنبع الذى كانت جماهير قراء الأدب وجماهير المستمعين له تنهل منه لكى تطفئ حبها للاستطلاع وتروى ظمأها . وخلال فترة الحكم التركى كان هذا النوع من الأدب هو الحارس على الذاتية الروحية .

وكان الباحث الروسى الكسندر جيلفردنج هو أول باحث أوروبى يلفت النظر فىّ عام ١٨٥٩ إلى هذا اللون من الأدب . ثم بعده بحوالى

نصف قرن كامل جاء اهتمام الباحثين والنقاد فى منطقة البوسنة والهرسك بهذا الأدب على يد جيش كامل وعبر أجيال متعددة . وبالرغم من كل هذا فما زالت الابحاث والدراسات الخاصة بهذا النوع من الأدب قليلة . ولذا يحق لى أن أعتقد وأن أستنتج أن هذه الدراسات لم تقل بعد كلمتها الفاصلة فيما يتعلق بهذا الأدب . هذا علاوة على أنه مازالت توجد كميات كبيرة من مؤلفات هذا الأدب ترقد فى سكون على صفحات المخطوطات والوثائق .

ومع ذلك فهناك من يتعجل الحكم ويرى أن هذا الأدب يتخلف كثيراً من حيث مميزاته الشعرية ومن حيث نوعه ومضامينه ، عن الأدب المكتوب باللغات العربية والتركية والفارسية . ومرجع ذلك أولاً وقبل كل شيء إلى أنه لم يكن يقوم بقرض الشعر وبالكتابة باللغة الشعبية إلا الأشخاص الذين يمتلكون قدراً متوسطاً من الثقافة وقدراً بسيطاً من الكفاءات الإبداعية وكانوا أيضاً على غير علم بالآداب الشرقية الكلاسيكية حتى يتمكنوا من أن يبرعوا فى نقل قيمتها الأدبية وفى استيعابها من خلال إبداعهم باللغة الشعبية . وهناك أسباب أخرى تتمثل فى قلة وضآلة التقاليد الأدبية الذاتية الأصيلة بلغة الشعب وفى الجهل بالإنجازات الأدبية لجيرانهم من الشعوب اليوغسلافية ، وهى إنجازات أدبية كانت من حيث روحها وطبيعتها منغلقة من الناحية الدينية . وكل هذه الأسباب وغيرها جعلت هذا الأدب من حيث أفكاره وموضوعاته ومضامينه يعتمد على الجانب الدينى التعليمى من الآداب الشرقية الموروثة ، وجعلته يرتكن من ناحية أخرى على الشعر الشعبى للمسلمين اليوغسلاف من حيث صيغته ومن حيث تعبيره الأدبى مما جعله يقتصر على كونه حكماً جافة صارمة .

ومن أشهر من كتبوا هذا الأدب : صالح جاتيفيتش ومحمد رشدى ومحمد بك قبطانوفيتش لوبوشاك ويوسف بك تشنجيتش وحمزة بوذيتش وعبد الرحمن سرى سيكيريتسا ومحمد الهوائى وسعيد وهاب إلهامى وغيرهم .

ولا يتم مطلب الكلام عن هذا الأدب إلا بذكر بعض النماذج لمشاهير الآدباء من البوسنة والهرسك الذين كتبوا هذا النوع . وقد وقع اختيارنا على نموذجين من الشعر أولهما للشاعر عبد الرحمن سرى بعنوان « إذا أردت أن تكون صوفياً » :

إذا أردت أن تكون صوفياً
فلابد أن تطهر قلبك
وألا تشرك بالله
لا إله إلا الله .

وأن تندم على ذنبك
وألا تعود إلى المعاصى
وأن تكون عبد الله الحبيب
لا إله إلا الله .

العبودية جمال
وعدم الطاعة ذنب
وطلب المقابل عار
لا إله إلا الله .

النية كلها يعرفها الله
يا أيها المتصوف اترك الرياء
واطلب الرضى
لا إله إلا الله .

يقول الكتاب ما يلى
أنه أسوأ من الحيوان
من لا يلتهب بعشق الله
لا إله إلا الله .

استمع إلى أمر الله
وقم كثيراً بذكر الله
بكل قلبك : يا لله
لا إله إلا الله .

هذه الدنيا ستذهب
وسيأتى الملك لأخذ الروح
وسيكون عوننا هنا
لا إله إلا الله .

انظر إلى سرى
إنه يحب كل المتصوفين
وكل يوم وليلة يقول
لا إله إلا الله .

والمعلومات التى بين أيدينا عن الشاعر عبد الرحمن سرى (١٧٨٥ – ١٨٤٧م .) ضئيلة للغاية ، فقد ولد الشيخ عبد الرحمن فى بلدة فوينيتسا بمنطقة البوسنة والهرسك . وكان أبوه يدعى محمد ، وجده يدعى فضل الله ، وكلاهما كانا يشتغلان بالقضاء فى مدينة فوينيتسا . ويقال أنه فى زمن جده فضل الله تم نقل مركز القضاء من بلده كريشيف إلى فوينيتسا هذه . وقد تعلم عبد الرحمن فى المدرسة الدينية الإسلامية ببلدته . ولكنه علاوة على ذلك استمع إلى كثير من العلوم على يد الشيخ حسين زوكيتش ، الذى كان في ذلك الحين رئيس تكية فى بلدة جيفتشيتش على بعد ساعتين سيراً على الأقدام .

وحيث أن الشيخ حسين زوكيتش كان كثيراً ما يفد إلى بلدته فوينيتسا فقد تعرف على القاضى محمد ، ونشأت بينهما صداقة وطيدة مما حدا بالقاضى إلى أن يوكل للشيخ حسين مهمة تربية ابنه وتعليمه . فأدخل الشيخ

حسين تلميذه عبد الرحمن فى الطريقة النقشبندية ولقبه سرى وكان تابعه الوحيد . وحسب أوامر الشيخ حسين تزوج عبد الرحمن سرى وأسس تكية على أرضه فى قرية أوجلافاك بالقرب من بلدة فوينيتسا ، وبفضل الشيخ حسين أصبحت هذه التكية من أشهر التكيات فى هذه المناطق .

والنموذج الثانى بعنوان « نصائح للابن » من تأليف الشاعر يوسف تشنجيتش الذى يقول :

إذا أردت أن تكون مؤمناً
فلابد أن تطهر قلبك
وأن تقوم بذكر الله
وأن تندم على ذنوبك
وأن تلتزم بالشريعة
وألا ترتكب الذنوب
وأن تكون عبد الله العزيز
هكذا يكتب يوسف تشنجيتش
ويقول ويبكى
لأنه وعدك
بأن يقول لك الحق ياعبده .

وقد ظهرت هذه القصيدة فى حوالى عام ١٨٦٦م . وسرعان ما أصبحت شائعة بين المسلمين فى البوسنة والهرسك ، وتم طبعها ونشرها عدة مرات نظراً لمضمونها الدينى التعليمى .

وكان الأدباء الذين يكتبون الأدب الأعجمى يستخدمون من الحروف العربية ما يقابل حروف لغتهم المحلية-الصربوكرواتية – أو اللغة البوسنية كما كانوا يطلقون عليها آنذاك . غير أننا نلاحظ أن الصواب

لم يحالف واضعى هذا الجدول بالنسبة لما يقابل بعض حروف لغتهم من اللغة العربية .

وبعد فهذه لمحة موجزة عن الأدب الأعجمى فى البوسنة والهرسك قصدنا بها تسليط الأضواء على التأثيرات العربية والإسلامية على الثقافة والأدب فى هذه الجمهورية . ونتمنى أن نتمكن فيما بعد من نشر بعض من نصوص هذا الأدب وذلك استكمالاً للصورة وتحفيزاً للمهتمين بتحقيق التراث بأن يهتموا به ويتعمقوا فى دراسته .

محمد بك قبطانوفيتش لوبوشاك

رائد النهضة الأدبية بين المسلمين

فى نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضى ظهر أول جيل من الأدباء المسلمين الذين بدأوا يكتبون بلغتهم الشعبية . وكان على رأسهم الكاتب محمد قبطانوفيتش لوبوشاك الذى يعد الباعث الروحى ورائد النهضة الأدبية بين المسلمين فى البوسنة والهرسك خلال هذه الفترة المتغيرة والحاسمة من تاريخهم . ويرتبط نشاطه الأدبى فى المقام الأول بالعمل على تخليص المسلمين من التأثيرات السلبية وتشجيعهم على التحلى بالأخلاق الإسلامية وبث روح الاستقلالية فيهم مع التركيز على القيم السلافية الخاصة بمنطقتهم .

.. والكاتب محمد قبطانوفيتش مولود فى قرية « فيتينى » بمنطقة البوسنة والهرسك فى عام ١٨٣٩م . وأنهى دراسته الأولية فى مسقط رأسه ثم واصل دراسته فى المدرسة « الرشيدية » (أى المدرسة الإعدادية) فى موستار حيث تعلم اللغات التركية والعربية والفارسية . واستكمل تعليمه بعد ذلك فى المدرسة الإسلامية الثانوية بقرية « لوبوشكو » . وإبان إقامته بمدينة « تريينى » فى منتصف السبعينيات تصادق مع نائب القنصل النمساوى الذى أثار فى نفسه الاهتمام الأدبى بجمع الإبداعات الشعبية ، وعلى الأخص الأمثال الشعبية .

وخلال فترة الحكم العثمانى لهذه المناطق مارس محمد قبطانوفيتش مختلف المهام الإدارية ، وتولى عدة مناصب بارزة فى الجيش وفى الحياة

المدنية وحصل على عديد من الأوسمة نظير خدماته ونشاطاته . وقام فى أثناء فترة عمله الرسمى بجولة فى أنحاء العالم زار فيها إيطاليا والنمسا والمجر ثم اليونان ومصر وتركيا وبلغاريا ورومانيا . وساهمت هذه الرحلات فى توسيع مداركه وآفاقه وتنمية معارفه الثقافية والأدبية ، ولاشك أنها أثرت – إلى حد ما – على اختياراته السياسية .

وقد أتيحت الفرصة لمحمد قبطانوفيتش ، بإعتباره ممثلاً للشعب فى البرلمان العثمانى ، لأن يتأكد من حتمية انهيار الإدارة العثمانية آنذاك ومن سلبية رجال الشرق فى مواجهة الحضارة الغربية النامية ، ولذا فقد أسرع بالتكيف مع الظروف الجديدة الناشئة عن الحكم النمساوى المجرى بهدف الإستفادة من المكاسب الثقافية والحضارية والدعوة لها والعمل على نشرها بين المسلمين فى البوسنة والهرسك . وشارك نواب الشعب من المناطق المجاورة فى القيام بالعديد من الأنشطة التثقيفية والتعليمية الهادفة إلى إكتساب القيم المحلية وتدعيمها .

ولذا فإن الظهور الفعال والمؤثر لهذا الأديب يعد حاسماً فى سياق الأحداث التاريخية الجارية آنذاك . فقد احتلت الامبراطورية النمساوية المجرية منطقة البوسنة والهرسك فى عام ١٨٧٨ ، وكان هذا حدثاً جليلاً حاسماً أشعر المسلمين بالضياع وأثار بينهم الاضطراب ، وسبب – لفترة من الوقت – توقف الأنشطة الأدبية والثقافية التى كانت قد بدأت تزدهر فى فترة الحكم العثمانى لهذه المنطقة . وفى مثل هذا الوضع النفسى والسياسى والاجتماعى الذى ساد هذه المنطقة انغلق المسلمون على أنفسهم فى مواجهة المستجدات والتأثيرات الخارجية ، ومرت حياتهم الروحية والثقافية بعملية تردد درامية .

وسرعان ما بدأ تنظيم التعليم العام والخاص للمسلمين وأخذت الحياة الثقافية والأدبية تمر بعملية تحول ونضوج من الجمود إلى الحيوية

والنشاط ، ومن العزلة الأدبية والثقافية إلى التفتح والانفتاح على آداب الشعوب المجاورة وعلى الإبداعات الشعبية الأصيلة المعبرة عن شخصية الشعب . وتجلت آنذاك أهمية الأنشطة الأدبية وقوة الكلمة المكتوبة وتأثيرها العميق على القراء بهدف أن تعيد الإنسان إلى ذاته ورشده وأن توقظه من سباته وتشفى ظمأه الروحى الثقافى ، وأن تشعره فى النهاية بقوته الذاتية من أجل مجابهة الاحتلال النمساوى الغاشم .

ويزيد من أهمية النشاط الأدبى لمحمد قبطانوفيتش ودوره الريادى فى هذا المضمار أنه استعرض وأوجز وركز فى مؤلفاته على تجارب وانجازات الإبداع الأدبى للمسلمين قبل الاحتلال ، وكذلك على الروح الشعبية الإسلامية . وسعى فى الوقت نفسه إلى شق مسارات جديدة للإبداع ، وإلى الاستفادة من العنصر السلافى الجنوبى الذى يتمتع به المسلمون فى هذه المنطقة ، وإلى التعاون مع الشعوب الأخرى المجاورة المتحدثة بلغتهم .

وفى هذه الظروف الخاصة والمتميزة بالنسبة للمسلمين فى منطقة البوسنة والهرسك أصدر محمد قبطانوفيتش فى عام ١٨٨٤ كتابه الأول « رسالة الأخلاق » وهو درس فى المسلك الجميل والمسلك القبيح . وكتب المؤلف على غلاف الكتاب أنه أعد هذه الرسالة للشباب المسلم فى البوسنة والهرسك وزينها بالأمثال الشعبية المحلية والعربية المجلس التعليمى الإسلامى لمنطقة سرايفو ، ووافق عليها رئيس العلماء (أى رئيس المسلمين فى هذه المنطقة) ، وطُبعت فى سرايفو فى عام ١٣٠٠ هـ . (١٨٨٣م .) على نفقة صندوق العلوم لمنطقة سرايفو . وبلغ عدد صفحات الرسالة اثنتين وثلاثين صفحة .

ولم تتم كتابة اسم المؤلف على غلاف الكتاب وكأنه بدون مؤلف ، ولكن من المؤكد أن الكتاب أعده للنشر محمد بك قبطانوفيتش واستند

فى ذلك إلى كتب مماثلة جرى طبعها باللغة التركية من قبل . وتأكدت هذه المعلومة بعد تقرير استخدام رسالة الأخلاق ككتاب مدرسى فى الكتاتيب الإسلامية فى تلك المنطقة .

ويشرح المؤلف فى مقدمة كتابه الغرض الذى هدف إليه والمضمون الذى سعى إليه قائلاً : « يتميز الإنسان عن الحيوان بالمعرفة والعقل والفكر ونطق الكلام . ولا يصل العقل البشرى إلى الكمال إلا بتعلم الأمور غير المعروفة من الأشخاص المتعلمين ومن الكتب ، ولا يتم سمو البشرية إلا بتحلى الإنسان بالنبل .

وبشكل متتابع تم عرض المضمون الأساسى لهذه الرسالة من خلال مجموعة من الدروس والمواعظ والتعليقات ، وهى كلها مرتبطة بأفكار محددة ذات طابع إسلامى وأخلاقى وتثقيفى تعليمى ، وتتسم بالإنسانية والنبل . وكل كلمة فى الرسالة وكل حرف منها يهدف إلى رفع الروح المعنوية وإلى الوصول بالقراء إلى الكمال الخلقى .

ولا يمكننا على الإطلاق أن نعتبر « رسالة الأخلاق » نقاشاً نظرياً محضاً ، بل هى على العكس من ذلك تعد مرجعاً عملياً للمتطلبات المتعلقة بحسن تربية الأطفال والصغار بوجه عام . وقد عرض الكاتب الدروس فى هذه الرسالة بأسلوب عملى واقعى واضح ومباشر ، وبروح عقلانية تتفق مع مضمون وروح المثل الشعبى . وقام المؤلف بتبسيط تعريفات الفضائل والدروس المستفادة منها مستنداً فى ذلك إلى قواعد الأخلاق التقليدية والإنسانية العامة ، ووضع لنا على هذا النحو تصوراً عاماً للنبل والإنسانية والأدب .

وفى هذا الإطار الشامل من الأخلاق السامية يمكننا أن نؤكد أيضاً أن الكاتب لم يهدف من رسالته إلى توضيح ما يصح وما لا يصح من المواقف والأمور ، وإنما سعى فى المقام الأول إلى أن تصبح الدروس

والعبر الناجمة عن السلوك الجميل جزءًا لا يتجزأ من وعى الصغير وقاعدة صلبة تقوم عليها عاداته فى الحياة . ولا شك أن محمد قبطانوفيتش تعمد استخدام الأمثال الشعبية لأنها تؤثر على الصغار تأثيراً تربوياً مقنعاً . وهدفه النهائى من كل هذا هو أن ينمى عندهم الإحساس بالحب نحو الأشياء الجميلة ، وأن يعمق فى نفوسهم الإحساس بالكراهية تجاه كل ما لا يصح . وهذا بالطبع يعكس الحس التربوى المتعاظم لدى محمد قبطانوفيتش .

وتشتمل « رسالة الأخلاق » على أربعة وثلاثين مفهوماً سجل الكاتب أسماءها باللغتين المحلية والتركية وهى : العبادة والعلم والرعاية والكذب والنميمة والنفاق والغيبة والإضرار والتكبر والحسد والتسكع والحيلة وقلة الحياء والسخرية والسباب والكلام القبيح والسرقة والعجز عن الكلام والتحقير والحقد والضغينة والصداقة والوفاء وحسن القرين والعجلة والعناد والنظافة والسخاء والبخل وتقديم العون والشفقة وحفظ الصحة والألفة والأدب والاحترام وحقوق الأخوة والعفة والحمية ورعاية حقوق الألفة .

وقد أجمع النقاد آراءهم على أنه لا يوجد فى هذه المفاهيم ما هو زائد أو غير ضرورى ، ويمكن فحسب ملاحظة اختفاء بعض المفاهيم التى تشغل اهتمام المربى والمعلم فى زماننا الحالى والتى تحتل مكاناً هاماً فى تربية الصغار فى وقتنا الراهن . ومما لا شك فيه أن بعض هذه المفاهيم كان موجوداً آنذاك إلا أن محمد قبطانوفيتش تغاضى عنه لأسباب تكتيكية وتربوية بحتة ،، ويعلل ذلك فى نهاية رسالته بقوله : « ويمكن أيضاً إضافة نصائح جيدة عن الطباع الحسنة وعن الكمال ، إلا أن هذا سيكون عسيراً على الصغار أكثر من اللازم فى تعلمه وحفظه » .

ومما لا ريب فيه أن هذا دليل آخر على تمتع الكاتب بالحس التربوى الرفيع ، وذلك لأن رجال التربية يشيرون على الدوام فى الوقت الحالى

إلى العواقب السلبية التى تنجم عن اثقال عبء الصغار بالدروس والمواعظ .

ولم يفقد العديد من المفاهيم المذكورة فى « رسالة الأخلاق » فعاليته حتى فى عصرنا الحالى ، بل ومازال يحتل المرتبة الأولى فى قائمة اهتمامات التربويين . والاختلاف بين عصرها وعصرنا يتمثل فحسب فى تغيير ترتيب الأولويات بالنسبة لبعض هذه المفاهيم . إلا أنه من الواضح بالنسبة لأى قارئ أن كل هذه النصائح والدروس والمفاهيم ترتبط ببعضها وتتشابك فيما بينها ، وهى كلها لا تخدم إلا هدفاً تربوياً وأخلاقياً واحداً وهو بناء شخصية الطفل ، وذلك لأنه عن طريق التربية والتعليم يتحول الصغير إلى إنسان نبيل صادق ، قوى فى خلقه وجسده ، مزود بالثقافة الواسعة ومتسم بالفضائل السامية .

ومن الطبيعى أن هذا هو الإنسان النموذجى الذى كان المجتمع آنذاك فى حاجة إليه . ولن نبالغ إذا قلنا أنه نموذج مطلوب أيضاً فى المجتمعات الحالية . وكل هذا يؤكد أن « رسالة الأخلاق » تتضمن قيماً إسلامية تتسم بصفة الدوام ، وهذا المضمون جعل هذه الرسالة تدخل فى نطاق التراث الإسلامى الثقافى التربوى لمنطقة البوسنة والهرسك .

ومن حديثه عن العبادة ، وهو موضوعه الأول فى « رسالة الأخلاق » ، يمكن استنتاج أن الإنسان ليس مخلوقاً سلبياً يطيع طاعة عمياء وينتظر من الله جل شأنه حلولا لكل شيء . بل على العكس يعتبره مؤلفها مبدعاً صانعاً لسعادته . ان الله – كما يؤكد المؤلف – خالق كل شيء ، وعلى الإنسان أن يحمده على ذلك وأن يعبده ، يتحتم عليه أيضاً أن يفعل الخير على الدوام بمنطق العقل والقانون .

ويلى العبادة مباشرة مفهوم العلم . وكما نوهنا فقد ركز الكاتب فى مقدمة رسالته على المعرفة بإعتبارها الشيء الوحيد الذى يستحق ويحق

للإنسان أن يمتلكه . واعتبر قبطانوفيتش أن المعرفة هى إحدى الصفات التى يتميز بها الإنسان عن الحيوان .

ورغم أن المؤلف فى ترتيبه للمفاهيم فى « رسالة الأخلاق » يولى العبادة المكان الأول ، إلا أنه يمنح أهمية كبيرة للعلم فيقول : « إن الإنسان يحتاج إلى العلم أكثر من أى شىء آخر » . أى أنه يعتبر العلم قبل كل شىء وفوق كل شىء .

واحتفاظ المرء بعلمه لنفسه فحسب ولنفعه الشخصى فقط يعنى تحويله إلى رأسمال ميت . ولكى لا يحدث ذلك فقد عرف المؤلف جوهر العلم ومعناه ووظيفته بنصيحته التالية : اكتسب العلم بغرض أن تعرف وأن تفعل الخير ، وتعلمه للآخرين ، وبعبارة أخرى فهو يقصد أنه ينبغى وضع العلم فى خدمة الإنسان والخير ، ولابد من الإلتزام بنقله وتعليمه للآخرين .

وركز المؤلف ، فى أكثر من مرة فى رسالته ، على احترام شخصية الإنسان . وفى هذا المضمار تبرز ، فى المقام الأول ، نصيحته للأولاد باحترام الوالدين والمدرس ومعلم الحرفة باعتبارهم من زراع الخير وصناعه . ويلفت النظر بشكل خاص فى هذه الرسالة الاحترام الكبير الذى يوليه المؤلف للمدرس والأهمية البالغة التى يمنحها لدوره .

وفى حديثه المفصل عن دور الوالدين والمدرس يخلص المؤلف إلى أن حق المدرس أكثر قدماً من حقوق الوالدين وذلك ببساطة لأن المدرس يعلم التلميذ وتعليمه لا يقود إلا إلى الكمال . والتلميذ يرى فى مدرسه صديقاً وزميلاً مخلصاً ، وفى المقابل يرى المدرس فى كل تلميذ رجلاً من رجال المستقبل . وهذا التقدير الكبير لشخصية المدرس وهذا التبجيل لعلمه التربوى ، وهو أمر ندر حدوثه فى مجال الأدب آنذاك ، يؤكد أن المؤلف كان على إدراك ووعى بذلك العنصر التربوى الذى يقول أنه

لا يمكن توقع نجاح ملحوظ إذا كان هناك ولو قليل من النتوءات فى العلاقة بين المدرس وتلميذه .

وقد وضع قبطانوفيتش معلم الحرفة والمهنة فى مرتبة مساوية للمدرس ، وهذا يعد اعترافاً منه باحترامه له وتقديره لدوره الهام فى التعلم المهني حينما يعلم الصغار مهارة العمل باليد ، ويعد أيضاً فى الآونة نفسها تعبيراً من المؤلف عن احترامه للعمل اليدوى بوجه عام . ومما لا شك فيه أن مثل هذه التربية الصحيحة للصغار تساعد على تقييم الأعمال اليدوية والحرف بنفس المعايير التى يقاس بها النشاط الثقافى والأدبى وغيره من الأنشطة .

وكانت الشعوب بالبوسنة والهرسك قد تعرضت لمختلف المحن فى الفترة التى أعد فيها قبطانوفيتش ونشر « رسالة الأخلاق » . وفى مثل هذه الظروف ساءت أحوال الطب والعلاج والوعى الصحى . وفى مثل هذا الوضع من التخلف الثقافى كان من المحتم توقع رواج الأوهام والخرافات وما ينجم عنها من عواقب . وعلى سبيل المثال بدلاً من استخدام الأدوية والعقاقير الطبية المناسبة كان يتم من أجل الحفاظ على الصحة وعلاج الأمراض اللجوء إلى الخرافات وإلى مختلف ألوان البدع والإعتقادات والوسائل التى لا تمت بأية صلة إلى الطب وليست لها أية قيمة علمية وعملية . بل على العكس تعرض صحة الإنسان للخطر فى أغلب الأحوال .

وبسبب هذه الملابسات عالج قبطانوفيتش فى رسالته موضوع حفظ الصحة بشيء من التفصيل والاسهاب بل واعتذر عن عدم امكانيته ذكر المزيد من التفاصيل نظراً لضيق مساحة الكتاب . والمهم أنه نوه إلى عدم اعترافه إلا بالأدوية كوسيلة مضمونة للحفاظ على الصحة . وأضاف أنه لا يعترف إلا بالأدوية التى يقوم بإعدادها الصيادلة المتخصصون وكل

ما عدا ذلك فهو مرفوض . ولا يمكن فى هذا المضمار إنكار الحقيقة القائلة بأن النظرة الواعية لمحمد قبطانوفيتش بشأن الحفاظ على الصحة والواردة بـ « رسالة الأخلاق » قد أثرت تأثيراً إيجابياً طيباً على نشر الوعى الصحى فى منطقة البوسنة .

ومن المشكلات المهمة التى عالجها قبطانوفيتش فى رسالته الأخلاقية الإسلامية عبارات السب ، وهى مشكلة لها أهمية خاصة بالنسبة للمجتمع آنذاك حيث تكرر استخدامها . وبذلك ارتبطت ارتباطاً عضوياً بالقاموس اليومى للمواطن واكتسبت نوعاً من الشرعية والحق المدنى ، بل إن بعض الأدباء عمد إلى استخدامها وادراجها فى أعماله الأدبية . ووصل الأمر إلى حد أن الصغار فقدوا الاحساس بقباحة عبارات السب وأنها تحط من كبرياء الإنسان .

ولا شك أن معالجته لمثل هذه المشاكل تزيد من قيمة رسالته التى حذر فيها منذ سبع ومائة من السنين تحذيراً مكثفاً من تلك الظواهر السلبية التى نخرت فى عظام المجتمع آنذاك ، وأثر بذلك تأثيراً إيجابياً على تربية الأجيال التالية ، ولاسيما أن المواقف التربوية التي تطرحها هذه الرسالة الإسلامية تهدف أولاً وقبل كل شيء إلى جعل كل مواطن إنساناً كاملاً .

لقد كان الأديب محمد قبطانوفيتش الوحيد بين مسلمى البوسنة والهرسك الذى لم يستسلم لليأس وإنما دعا إخوانه إلى العمل وإلى التحرك وبذل الجهد ، وتمكن عن طريق القدوة الصالحة والكلمة المقنعة أن يبين لهم الطريق الصحيح الذى ينبغى أن يسلكوه .

ومن المؤكد أن « رسالة الأخلاق » تعد كتاباً مدرسياً مفيداً ومرجعاً تربوياً تعليمياً مهماً فى الأخلاق الإسلامية فى البوسنة والهرسك . وقام هذا الكتاب بمهمة ووظيفة نبيلتين وساهم فى تربية الصغار وفى تقويم الكبار . واستحق الكتاب ، بشكله هذا أن يكون موجوداً في كل منزل بوسنى ، كما استحق مؤلفه المزيد من التكريم والتبجيل .

والكتاب الثانى المهم الذى يمثل علامة مضيئة أخرى على طريق البعث الروحى والنهضة الأدبية ينتهج المنهج التعليمى الأخلاقى نفسه. إنه كتاب « الكنز الشعبى » الذى صدرت الطبعة الأولى منه فى عام ١٨٨٧م. على نفقة المؤلف. ويشتمل الجزء الأكبر من الكتاب على مختارات من الأمثال الشعبية والحكم المأثورة مصحوبة فى بعض الأماكن بتوضيحات وتنويهات، ويتضمن بعض الطرائف الشعبية التى انبثقت عنها الأمثال الشعبية باعتبارها خلاصة مأثورة. ويحتوى الكتاب كذلك بعضاً من القصائد الشعبية من الأدب « الهاميـادو » (الأدب الأعجمى) وهو أدب مكتوب بحروف عربية وباللغة المحلية، ويليها مجموعة من الأمثال العربية والتركية والفارسية المترجمة.

وفى مقدمة كتاب « الكنز الشعبى » يذكر المؤلف بأسلوب تواضع أدباء الشرق الدوافع الجمالية والثقافية والأدبية والاجتماعية الكامنة وراء إصداره لمثل هذا الكتاب، والأهداف الحميمة التى أراد أن يحققها بنشر مثل هذا العمل الذى ألفه إكراماً لبنى جنسه ولوطنه الحبيب.

ويحكى لنا المؤلف فى مقدمة هذا الكتاب حكاية طريفة عن النملة التى أصرت بالرغم من صغرها على الذهاب فى رحلة إلى الكعبة الشريفة مع علمها الأكيد بأنه لا يمكنها الوصول إلى هناك، ولكنها لاترغب فى شئ إلا فى أن توجد على هذا الطريق المقدس. ويعقب المؤلف على هذه الحكاية بقوله : « وهذا تقريباً هو نفس حالى مع هذا الكتاب »، فأنا أيضاً أعلم تمام العلم أننى لم أبلغ بعد الدرجة التى يمكننى معها أن أكتب وأنشر شيئاً مهماً، ولكن رغبتى فقط هى أن أوجد على الساحة الأدبية ولذا فقد توجهت لجمع هذا الكنز الشعبى.

إن هذه الحكاية الرمزية التى أوردها المؤلف عن عمد فى مقدمة كتابه هذا توضح كل شيء وتقوض كل دعائم النقاش والجدال اللاحق عن أهمية

محمد قبطانوفيتش كأديب وعن القيمة الإبداعية لمؤلفاته الأدبية وذلك لأنه لم يزعم على الإطلاق فى كتاباته أنه أديب . وكان على الدوام مدركاً تمام الإدراك لأهمية الأعمال الأدبية والثقافية التى قام بها بالنسبة لأدب وثقافة الشعب الذى ينتمى إليه . أما اعتبار بعض النقاد اللاحقين أن هذه الأعمال ليست على قدر كبير من الإبداع الأدبى فهذا جحود كبير فى حق هذا الكاتب .

والحقيقة أنه بالنسبة لتاريخ الإبداع الأدبى للمسلمين وللأعمال الأدبية التى أبدعتها أجيال أدباء المسلمين التالية للأديب محمد قبطانوفيتش فإن كتاب « الكنز الشعبى » باعتباره أول مؤلف أدبى خالص يتم نشره باللغة الأم يمثل قائمة كاملة من الدوافع الفكرية والأخلاقية والثقافية والأدبية والاجتماعية . وقد أراد المؤلف بكتابه هذا أن يقدم فى المقام الأول مثالاً جميلاً ودفاعاً قوياً للمسلمين من أجل كتابة وإصدار الكتب بلغتهم الأم . وهدفه نابع من معرفته بالأمثال الشعبية بأفكارها المكثفة الموجزة التى صاغها الشعب ، الأفكار التى يمكن أن توجه الإنسان والأجيال فى حياتهم وأعمالهم . ويوضح المؤلف هدفه بطريقة أكثر صراحة فيقول : إذا ما تصرف الجميع حسبما تعلمنا أمثالنا وتوجهنا فمما لا شك فيه أن كل شىء سيكون جميلاً وطيباً » .

وهذه الكلمات تبين بجلاء سيطرة الخط الأخلاقى التهذيبى على هذا الكتاب بغرض خدمة بنى وطنه وتنمية حبهم للإبداعات الشعبية بلغتهم الأم . والأعمال اللاحقة للأدباء المسلمين ، التى اشتملت على أهداف تعليمية وتثقيفية ، كانت نتيجة طبيعية لهذا الكنز الشعبى . وفى نهاية الأمر فقد كان هذا اللون من الأدب يسعى إلى توجيه المسلمين فى عهدهم الجديد من الحكم النمساوى المجرى وإلى إرشادهم إلى سبل تقدمهم وتطورهم الروحى .

وفى عام ١٨٩٦م . أصدر محمد قبطانوفيتش كتابه الثانى بعنوان

« الكنز الشرقى » وهو يشتمل على مجموعة (حوالى ٤٤٩٢) من الأمثال والأقوال المأثورة والحكم العربية والتركية والفارسية استقاها من كتب المبدعين العرب أمثال : الغزالى ، الفيروزى ، العبادى ، الفارابى ، فخر الرازى ، الزمخشرى ، أحمد الميدانى ، ابن الجوزى ، ابن رشد وغيرهم من الكتاب الأتراك والفرس .

والمادة مرتبة وفقاً لأفكارها ومضامينها وكذلك وفقاً للأبجدية . وبالإضافة إلى ذلك يحتوى الكتاب على ثمانين مثالاً من الأمثال التى تبدأ بكلمة « من » ، وعدد كبير من الأمثال الأخيرة يتبع الأمثال الشعبية الخاصة بمنطقة البوسنة والهرسك .

وكما يقول بنفسه فقد أراد قبطانوفيتش بكتابه هذا أن يتعرف اليوغسلاف على الآداب الشرقية ، وبالإضافة إلى ذلك يتم تقديم صورة لشعوب الشرق وعرض ظروفها بقصد تحطيم أوهام بنى وطنه بشأن الثقافة الروحية ووجهات النظر الأخلاقية للشرق الإسلامى .

والأسلوب الحر الذى انتهجه المؤلف فى عرض هذه المادة ، وهو الأسلوب نفسه الذى انتهجه فى كتابه « الكنز الشعبى » ، ينطلق من مبدأ أن الثروة الشعبية لأى شعب من الشعوب هى ملكية إنسانية عامة مشتركة . والأهم من ذلك أن تصل المادة إلى هدفها العملى ألا وهو تربية أفراد الشعب عن طريق الأمثال والأقوال المأثورة والحكم التى تعد ثمرة للخبرات الحياتية وللفلسفة العملية . وبعبارة أخرى موجزة : قطف زهرة من كل بستان . ويعقب قبطانوفيتش على هذا قائلاً : « وليس من السىء أننى نقلت وغرست فى بستاننا هذه الزهور المختلفة . وليزين شعبنا العزيز نفسه بهذه الزهور » .

وقد لاقى كتاب « الكنز الشرقى » ترحيباً وقبولاً من جانب النقاد

باعتباره أول كتاب من هذا النوع : ووصف أحد النقاد قبطانوفيتش بأنه أول باحث أدبى من المسلمين يجلب العصر الحديث إلى بنى وطنه ، وبأنه حامل الراية والمناضل فى الكفاح الحى من أجل الثقافة والتقدم ، وبأنه الزعيم الروحى للمسلمين الحقيقيين مركزاً على نشاطاته من أجل تدعيم الكتابة باللغة الأم ، وعلى حرصه على عدم الفصل بين أخوة الدم واللغة فى الوطن الواحد بسبب اختلاف الأديان . ووصفت إحدى المجلات الكتاب بأنه نجمة جديدة فى سماء الأدب وعلامة مهمة فى التاريخ الأدبى لهذه المنطقة ، وبأنه سيكون له تأثيره البالغ على الأجيال القادمة من الأدباء وتطورها .

لقد شجع هذا الكتاب على التفكير بشكل عملى فى أن الترجمة من الآداب الشرقية تعد مرحلة من مراحل تطور الإبداع الأدبى للمسلمين فى البوسنة والهرسك ، وفى أن المسلمين بإمكانهم القيام بدور الوسيط بين الثقافتين الغربية والشرقية . وفى المرحلة التالية استمر هذا الهدف موجوداً بشكل مستتر وبالتوازى مع المبادرات الرامية إلى خلق إبداع أدبى بلغة الشعب متشبع بالأفكار الإسلامية وبمضامين من حياة المسلمين فى البوسنة والهرسك .

وبنظرة شاملة عامة إلى كل الأنشطة الأدبية التى قام بها الأديب محمد قبطانوفيتش خلال فترة الحكم النمساوى المجرى فإنه بإمكاننا أن نلاحظ الخط التهذيبى التثقيفى المستمر الذى ينبع من اهتمامه بتربية الشباب على أساس أنهم يمثلون العنصر الجوهرى الذى يقوم عليه تقدم أى شعب من الشعوب . وأكبر دليل على ذلك هو إعداده لرسالة فى الأخلاق الإسلامية .

والحقيقة أن اهتمام قبطانوفيتش بأخلاق الشباب هو فى الواقع جزء من اهتمامه الأشمل ببناء شخصية الفرد وانسجامها وتكيفها مع مختلف

المطالب التى تفرضها الحياة على الإنسان . وهذا يفسر على نحو ما تحيزه الدائم للألوان الأدبية الشفاهية التى تجسد حكم الحياة بأكبر شكل من الإيجاز ، أى تحيزه إلى الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة والحكم . كما يفسر سعيه المستمر إلى الوجود فى رحاب أشجار الحضارة الإسلامية مع الاستفادة من تجارب وخبرات الحضارات الأخرى .

عثمان - عزيز
(ثنـــائى أدبى فريـــد)

عثمان - عزيز هو الاسم الرمزى لثنائى أدبى فريد نشأ فى مدينة موستار والاسم الحقيقـى لهذيـن الأديبيـن هو عثمـان نورى حاجيـتش (١٨٦٩ - ١٩٣٧م.) وايفان عزيز ميليتشفيتش (١٨٦٨- ١٩٥٠م.). ويمثل تعاونهما فى الإبداع الأدبى واتفاقهما الفكرى ورابطة القلم بينهما نموذجاً فريداً فى الأدب بالبوسنة والهرسك وربما فى الأدب الأوروبى كذلك . وهـذان الكاتبـان النبيـلان جمعـا بحمـاس رومـانسى و«دون كيشوتى» ، بالمعنى الجميل لهذه الكلمة ، معارفهما وأحاسيسهما وأخضعا نفسيهما لهذا الاسم المستعار « عثمان - عزيز » ومضيا فى طريقهما صوب الأبدية . وقد ظل اسمهما مسجلاً فى الأدب بحروف من ذهب بسبب إصدارهما لأول رواية فى البوسنـة والهـرسك فى عام ١٨٩٥ وبسبب مزجهما للأساليب الرومانسية والواقعية والطبيعية فى تصوير مدينة موستار وأهلها فى فترة من أخطر فترات تاريخها .

والكاتب عثمان نورى يجيد اللغة العربية وله الكثير من الترجمات من العربية ومن أهمها ترجمته لكتاب عن محمد عليه الصلاة والسلام تأليف أبو الفدا وقد صدر فى سرايفو فى عام ١٩٠٣ ، كما اشترك كذلك فى ترجمة قصص ألف ليلة وليلة . ومن كتبه الدينية المشهورة « الإسلام والثقافة » (فى زغرب ١٨٩٤) و « محمد والقرآن » الذى جرى طبعه مرتين (فى عامى ١٩٣١ و١٩٦٨) .

أما الكاتب إيفان عزيز فقد درس الحقوق فى جامعة فيينا وكان محرراً

ومؤسساً لبعض المجلات القانونية فى زغرب . وقد اشترك مع عثمان نورى فى إصدار روايتى « بلا أمل » (فى عام ١٨٩٥) و « بلا هدف » (فى عام ١٨٩٧) ، ومجموعة قصصية عن الحياة فى البوسنة والهرسك فى عام ١٨٩٨ . وفى هذه القصص كان هذان الكاتبان لا يحاولان إحياء بقايا الأساليب الرومانسية بل اجتهدا فى أن يرفعا صوتيهما بقدر الإمكان من أجل إصلاح بيئتهما .

ورواية « بلا أمل » تصور محنة الشعب واحتقاره للسلطات الجديدة . ويسيطر على هذه الرواية التكنيك الواقعى ، الأسود والأبيض ، وهو يتشابك مع أيديولوجية الكاتبين ومع اتجاههما الأخلاقى التعليمى . وتكتظ الرواية بمختلف الأحداث والمصائر وبينما نجد أصحاب السلطة النمساويين والمجريين فى جانب ، نجد فى الجانب الآخر أفراد الشعب وهم يتناقلون الحكايات الهامسة عن ثوار الهرسك . ومن ناحية أخرى نجد « عطل أغا » يقود أفراد عائلته وأصدقاءه ويوجههم صوب الزمن القديم ، بينما « عمر أفندى » يتقبل الأوضاع الجديدة والعهد الجديد فى تنبه وتيقظ وبقدر كبير من التفهم .

وفى هذه الرواية يستعرض الكاتبان أهل المدينة والأغوات والبكوات السابقين وفقراء الفلاحين الذين يختبئون فى المناطق الصخرية بالهرسك تجنباً للسلطات الجديدة وخوفاً من جبروت أفرادها ، ثم بعد ذلك يمضون ويتكيفون مع التيار كما يعرفون ويقدرون . ويضع المؤلفان مجابهة متعمدة بين « عطل أغا » المكتئب وبين « عمر أفندى » فيما يتعلق بوجهات نظرهما فى الدنيا وفى الحياة ، فعمر أفندى رجل مستعد لقبول الحلول الوسط مع السلطات الجديدة وهو يدعو لتعليم المسلمين وتأهيلهم ويؤيد الأساليب الجديدة فى الكتابة مادام لا يوجد أى مخرج آخر سوى ذلك . أما « عطل أغا » فهو رجل متعصب لدينه ورجعى ولذا فهو على الدوام مكتئب النفس مضطرب البال ومصاب بعدم المبالاة ، وهو يرفض

رفضاً قاطعاً أن يذهب ابنه إلى المدارس وأن يخوض فيما لم يخضه أبوه . وبمرور الزمن يصاب الابن بخيبة أمل ويكثر من الشراب ولعب القمار ويمضى فى الطريق الذى يقود إلى الهلاك الحتمى ويصل به الأمر إلى حد الحكم عليه بعقوبة الأشغال الشاقة .

وهناك علاقة ود واضحة بين المؤلفين وبين القارئ فهما يعتبرانه أخاً لهما وأنه هو الإنسان الذى يعملان من أجله . ويحكيان للقارئ فى قصصهما عن حياة الناس ، كبارهم وصغارهم ، فى مختلف المواقف والظروف . وهما يمتدحان سكان مدينة موستار - وهى بلدتهما - ويعتقدان أنهم أكثر الناس حكمة فى العالم ويرفعانهم إلى مصاف النجوم ثم يهبطان بهم بطريقة كوميدية ساخرة ويوجهان إليهم أمر الانتقادات وألذعها .

ويستعرض المؤلفان فى رواية « بلا هدف » معظم المشاكل التى كانت تجابه المسلمين فى تلك المنطقة آنذاك . وكما نعلم فقد كانت هذه المنطقة تابعة لحكم الأتراك العثمانيين لفترة تربو على خمسمائة عام ثم أصبحت تابعة لحكم الامبراطورية النمساوية . وهناك بلا شك فارق كبير بين الحضارتين والثقافتين ، ومن هنا نشأ صراع روحى فريد بين الإسلام كدين وبين موجة الثقافة الغربية التى أخذت تمتد إلى هذه المنطقة . ويقوم المؤلفان بكل صراحة وجلاء بتعرية المجتمع وأفراده والتعمق فى أغوار مشاكلهم بهدف البحث عن الدواء الناجع . وقد وجد المؤلفان أن الجيل الحالى من الشباب والذى يمثله الشاب عادل تعفنت أعماقه وفسدت جذوره وذلك نتيجة لنشأته فى بيئة فاسدة غير صالحة وتعلمه فى مدارس لا تخرج إلا كتائب من الماجنين والفسقة ودعاة الظلام يقفون حاجزاً ومانعاً أمام كل تقدم ونهضة لبنى وطنهم ، وليس لهم من هدف فى النهاية إلا إهلاك وتحطيم شعوبهم . وليس هناك أمل فى إصلاح هذا الجيل الفاسد وليس هناك أى نفع أو خير يرجى منه .

ولكن لا يأس مع الحياة ، ومن أجل هذا يستعرض المؤلفان حلولاً لمشكلات مجتمعهما ، ومن هذه الحلول التطبيق السليم للإسلام ذلك لأن المسلمين انذاك كانوا يجهلون أسس ومضمون الإسلام ولا يعرفون أخلاق الإسلام وفضائله . والسبب فى ذلك راجع فى الأساس إلى القائمين على أمر الإسلام فى هذه المنطقة وإلى من يعلمونه للناس خطأ لأنهم أيضاً يجهلون الإسلام وتعاليمه . ويوحى المؤلفان فى روايتهما إلى القائمين على تعليم الدين الإسلامى للشعب بأن « تعليم الشعب أمر عسير ولكنه ممتع » وأنه يلزم لذلك الكثير من الجهد والوقت ولكن هذا الأمر لا ينبغى أن يوقف السعى بل يتحتم أن يزيد من حماس العاملين فى مجال التنوير والتثقيف . ومن الطريف أن يطلب المؤلفان فى روايتهما هذه الصادرة فى أواخر القرن التاسع عشر من المسلمين ألا يقبلوا من الثقافة الغربية إلا كل ما هو طيب وجيد ، وهذا الحل وحده هو الذى بإمكانه أن ينقذ وينتشل مسلمى البوسنة والهرسك مما هم فيه من ضلال وجهل .

ومن القضايا المهمة التى أثيرت على صفحات هذه الرواية قضية العلاقة بين الإسلام وطلب العلم . ويؤكد المؤلفان على لسان أحد الأبطال أن الإسلام يأمر ويحض على طلب العلم والمعرفة أينما كانا ، وأن جماعة الشر هى التى تدس على الإسلام رفضه للعلم والتعليم وذلك لأنها تريد أن يظل أفراد الشعب فى حالة من الظلام والجهل . وفى هذا المضمار يدعو المؤلفان المسلمين إلى العمل بمزيد من الحماس والتضحية من أجل إسعاد الشعب ، وسيكون عملهم وجهدهم هذا أمام العالم كله دليلاً واضحاً وشهادة بينة على أن الإسلام هو دين الحضارة والثقافة والتقدم . والعمل من أجل إسعاد الشعب يعنى أن يبذل المرء كل ما فى وسعه للنهوض به ثقافياً والعمل على إحساسه بالرضى وتمتعه بالرفاهية وضمان أمانه وتطوره النامى .

ومن أهم القضايا المثارة فى هذه الرواية كذلك قضية الإسلام والقومية

وهى قضية ذات طبيعة خاصة نظراً لتعدد القوميات والديانات فى هذه المنطقة . وبناء على المناقشة المستفيضة بين شخصيات هذه الرواية حول هذا الموضوع يمكننا أن نقرر بأن الكاتبين يعتقدان أن الإسلام لا يمنع أحداً من التمسك بقوميته ، أى أن يكون مسلماً فرنسياً أو ألمانياً أو سويدياً حسب ماضيه ودمه ولغته ، وذلك لأن الإسلام ليس ديناً محصوراً ضيقاً .

وفى توضيحهما لأفكارهما التنويرية التثقيفية يتعرض الكاتبان فى كثير من الأحيان للحديث باستفاضة عن العرب وعن لغتهم ودينهم وثقافتهم وحضارتهم ، وهما يتحدثان من منطلق الدفاع عن الإسلام ضد كل ما هو مدسوس عليه من الجهلة ومن المتاجرين به . ويردان الحق إلى أصحابه حينما يعترفان فى معرض المقارنة بين الآداب الأجنبية والأدب العربى بأن كل هذه المعارف مأخوذة عن العرب .

الدغــل الأخضــر

تعد رواية « الدغل الأخضر » ، الصادرة في عام ١٨٩٨ ، من أشهر الروايات التى أبدعها الكاتب البوسنى أدهم مولى عبديتش (١٨٦٤ - ١٩٥٤) . وإذا تم الربط بين أحداث هذه الرواية وبين وقائع حياة مؤلفها فسيحصل المرء على انطباع لايجد منه فكاكاً بأن هذه الرواية ليست إلا تجربة واقعية صادقة حدثت للمؤلف وخاضها بتفاصيلها الدقيقة . وهذا يضفى على هذه الرواية أهمية خاصة .

وإذا تصفحنا الأوراق الخاصة بالسيرة الذاتية للأديب أدهم مولى عبديتش فسنجد فيها أنه مولود فى بلدة ماجلاى بجمهورية البوسنة التى كانت واقعة تحت الحكم العثمانى آنذاك . وقد التحق فى مسقط رأسه « بالكتاب » ثم بالمدرسة الرشيدية وهى نوع من المدارس الثانوية للعاملين فى مجال القضاء . وبها درس أدهم القرآن ونحو وصرف اللغتين التركية والعربية . وبعد ذلك أنهى دراسته بمدرسة المعلمين . ومارس فى سرايفو مختلف الأعمال فى مجال التدريس والتفتيش .

واشترك فى عام ١٨٩١ فى تحرير صحيفة « البشنق » أى البوسنى وهى الصحيفة السياسية التى أسسها الأديب محمد بك قبطانوفيتش لوبوشاك من أجل المسلمين . وعلاوة على ذلك كان أدهم يحرر ويشترك فى تحرير العديد من الصحف والمجلات . ثم تعاون مع زملائه من الأدباء المسلمين فى إصدار مجلة « بيهار » (أى الكأس) ، وهى أول مجلة أدبية للمسلمين ، وترأس تحريرها لمدة ست سنوات . وفى عام ١٩٠٣ اشترك فى تأسيس جمعية « الغيرة » وهى أول جمعية ثقافية إسلامية ،

وفيما بعد ترأس تحرير الصحيفة الصادرة بنفس الاسم . ومنذ عام ١٩٢٣ وحتى عام ١٩٢٨ وهو يعمل عضواً بالبرلمان . واستمر فى الاشتراك فى إصدار وتحرير الصحف الهادفة إلى تنوير المسلمين وتثقيفهم .

وكتب الأديب أدهم الرواية والقصة وبعض النصوص المسرحية كما كتب العديد من المقاولات التربوية والدراسات . وهو يعد أول كاتب من المسلمين يكتب أدب الرحلات فى صحيفة « البشنق » فى عام ١٨٩٣ . ومن أشهر أعماله الأدبية : قصص فكاهية (فى ١٨٩٣) ، رواية « الدغل الأخضر » (فى ١٨٩٨) ، مجموعة قصصية بعنوان « على شاطىء البوسنة » (فى ١٩٠٠) ، رواية « الأزمنة الجديدة » (فى عام ١٩١٤) وغيرها .

ويمكن القول بأن الأعمال الأدبية لأدهم مولى عبديتش ليست إلا انعكاساً للظروف الأدبية المحلية ، وإبداعاته النثرية تنبع من تقاليد الحكايات الشعبية للمسلمين ومن ملاحظات الأديب الشخصية بشأن الحياة العصرية ، وفى كتاباته يقتصر على الموضوعات الراهنة للتطور الاجتماعى والثقافى للمسلمين فى البوسنة والهرسك ولا يعالج غيرها . ومن هنا فإن أعماله الأدبية تجمع بين الماضى والحاضر وبين التقاليد العريقة والواقع الراهن للمسلمين فى منطقة البوسنة والهرسك إبان وقوعها تحت حكم الامبراطورية النمساوية المجرية . إلا أنه كان يتعايش مع كل هذا تعايشاً شخصياً وكأنه جزء لايتجزأ من حياته ومصيره . وكتب أدهم عن هذا الاحتلال فى سيرته الذاتية : « السماء تظلم والحياة تتوقف ويأتى نبأ عن قدوم النمساويين ويكون وقعه كوقع حدوث ثقب فى سفينة فتأخذ فى الغرق وكان سكانها فى ذروة بهجتهم . وقبل ذلك كان هناك إحساس بوجود كابوس فى الجو ، وتملك القلق كل شخص ناضج وتم التخمين بحلول حدث جم » .

ورواية « الدغل الأخضر » تتحدث عن احتلال الجيش النمساوى ،

وهى تجربة خاضها المؤلف شخصياً فأصبحت بذلك تجربة ذاتية موضوعية ، تجربة محزنة فى جوهرها وذات مدى بعيد باعتبارها تحولاً وانتقالاً من حضارة قديمة إلى حضارة حديثة واكتشافاً لأفق روحى جديد . وقد استطاع المؤلف أن يعالج هذه التجربة معالجة غاية فى الواقعية فى روايته وأن يطورها تطويراً فنياً مؤثراً .

ومن المؤكد أن الأديب أدهم كان يهدف بأعماله الأدبية إلى أن يقدم لبنى وطنه من المسلمين توجيهات غير مباشرة تتعلق بشئون الحياة وبالأحداث الجارية خلال العهد النمساوى المجرى الجديد فى البوسنة حيث تعاقبت الأجيال وتغير الناس وتبدل أسلوب الحياة واختلفت النظرة إلى المستقبل . وركز الكاتب فى أعماله الأدبية على ضرورة حسن التصرف والتكيف مع الظروف والأحوال الجديدة وبذل المزيد من الجهد من أجل ألا يصاب الوضع الثقافى الاقتصادى والاجتماعى للمرء بتخلف فى مواجهة إصلاح الأمور والعادات . وهى كلها أمور كانت تتمشى تماماً مع خط الأيديولوجية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية التى كانت تدعو لها المجلات والصحف الأدبية بهدف الحفاظ على الوضع الاجتماعى وعلى ممتلكات المسلمين فى البوسنة والهرسك وتأمين حياتهم واستمرار تقدمهم .

وتحكى رواية « الدغل الأخضر » عن وقائع احتلال الجيش النمساوى لمدينة ماجلاى من خلال قصة عن عائلة عمر أفندى الذى ترك وراءه زوجته وأولاده الثلاثة : محمد وأحمد وعلى . ويذكر النقاد أن المؤلف فى وصفه لزوجة عمر أفندى وأبنائها سجل العديد من المعلومات عن عائلته الشخصية ، بينما يؤكدون أن شخصية الابن الأصغر ، على ، ما هى إلا شخصية المؤلف نفسه .

وقد اتخذ الأديب أدهم من بعض تفصيلات حياته وذكرياته مادة

موضوعية لأحداث روايته وربما أوجزها فى أفكار طورها إلى مواقف ونظريات تتشابك فى عمله الأدبى كله . وهذا يدلنا على صدق المؤلف وعلى خوضه لهذه المواقف فى الحياة وعلى معرفته لأبطال الرواية ولأوهامهم وآمالهم ولعثراتهم ونجاحاتهم . ويبدو لنا فى بعض الأحيان أنه يريد أن يقدم موعظة معينة أو أنه يدعو لفكرة من الأفكار . ومن الجلى أن المؤلف قد خاض غمار تجربة الاحتلال النمساوى لمدينة ماجلاى بشكل مأساوى وكأنها مصيبة كبيرة أصابت شعبه ويمكن أن تصيب أى شعب وأى بلد . كما أن المؤلف أبرز من جوانب سيرته الذاتية تقديسه للعمل وللتعليم والتعلم فنجد أن عليا – الذى يقوم بدور المؤلف – هو الأول دائماً على قرنائه فى العلم وأنه كان أول من تعلم لغة المحتل وأول من رحل عن بلدته طلباً للاستزادة من العلم .

ومن الطريف أنه من الشخصيات المهمة فى هذه الرواية شخصية عربية لم يحدد المؤلف له اسماً ، وكان يملك مقهى صغيراً يسمى بمقهى العربى . وقد حضر هذا العربى إلى بلدة ما جلاى مع سيده الذى أتى به من مكة ، وبعد وفاته أصبح العربى حراً وفتح هذا المقهى الذى كان الشباب يستمتعون فيه بأوقاتهم . ورغم فقر هذا العربى فقد حطم كل ما فى مقهاه من معدات وأدوات وذهب مع أحمد ، الشخصية الرئيسية فى الرواية ، لكى يكافح مع شعب مدينة ماجلاى ضد المحتل النمساوى . واشترك العربى فى هذا النضال ببسالة وشجاعة ، وكان على الدوام فى المقدمة إلى جانب الراية المرفوعة رغم أن المعارك كانت عنيفة . وفى الختام فقد العربى حياته فى كفاحه البطولى المستميت ضد المحتل الشرس ورغم هرب الكثيرين من أهل البلدة نفسها .

وقد كانت هناك محاولات عديدة لدراسة ظاهرة ظهور شخصية العربى فى هذه الرواية . ويمكننا القول أنه إذا كان النقاد قد أثبتوا الكثير من جوانب السيرة الذاتية للمؤلف فى روايته هذه إلا أنهم لم يتمكنوا

من إثبات شخصية العربى فى الواقع . وأنه ليصعب فى الوقت الحالى التثبت من هذه الشخصية نظراً لمضى زمن طويل على هذه الأحداث . ولكن إذا نظرنا نظرة متأنية إلى تاريخ حياة المؤلف وإلى أعماله الأدبية أمكننا أن نستشف احترامه للعرب وللغتهم وقرآنهم وإسلامهم وإلى كل ما يمت لهم بصلة . ومن ثم يمكننا أن نستنتج أن ظهور شخصية العربى بدون اسم معين فى روايته هذه يحمل فى طياته رمزاً للكفاح البطولى المستمر ضد المحتل النمساوى المجرى . وقد أثبت العربى ذلك بأفعاله فقد كان قلباً وروحاً فى جانب الشعب وكافح معه ورافق بطل الرواية كظله الذى لا ينفصل ، وحاربا معاً بشراسة وشجاعة ضد المحتل إلى أن ضحى العربى بحياته فى النهاية من أجل استقلال بلدته ماجلاى .

وقد حاول الأديب أدهم فى روايته الأخيرة « الأزمنة الجديدة » أن يقدم بعض الحلول فيما يتعلق بمشاكل الأرض وزراعتها ، وهو بذلك يواصل خطه التعليمى البراجماتى . فهو فى هذه الرواية يدعو إلى الاهتمام بزراعة الأرض وفلاحتها بطريقة حديثة وذلك عن طريق إحضار الخبراء المتعلمين المتخصصين فى مجال الزراعة ، الذين سيطبقون أحدث الأساليب التكنولوجية فى زراعة الأرض . وفى هذا المضمار يقول المؤلف على لسان أحد أبطاله : إذا لم تفلح الأرض وتزرعها كما يجب فإنها كرأس المال ستبحث لنفسها عن سيد آخر يقدرها ويستحقها . وواضح هنا التركيز على أن يصبح صاحب الأرض بلا أرضه إذا لم يزرعها بطريقة فنية حديثة ، وقد ساعد على ذلك وجود إشاعات عن احتمال صدور قانون الإصلاح الزراعى فى حوالى عام ١٩٠٠ .

وفى عام ١٩٧٣ تم من خلال سلسلة « التراث الثقافى » نشر الأعمال الكاملة للأديب أدهم ومن بينها رواية « الدغل الأخضر » التى أثارت الانتباه لا فحسب بطموحاتها الأدبية الكبيرة ، وإنما تلفت النظر

أيضاً بشهادتها الواقعية الأصيلة عن أسلوب الحياة فى البوسنة وعن الوعى التقليدى لسكانها وعن عواقب مجىء النمساويين إليها .

وفى عام ١٩٩٢ نظمت الجمعية الثقافية للمسلمين المعروفة باسم « البعث » فى ماجلاى أمسية أدبية مخصصة لذكرى الأديب أدهم مولى عبديتش ولأعماله الأدبية . وكان المقصود من تنظيم مثل هذه الأمسية هو رد بعض من الدين لهذا الأديب الذى فعل كل ما فى وسعه من أجل تنبيه وتنوير وتثقيف بنى وطنه بكل الوسائل الأدبية المتاحة آنذاك ، ومن أهمها تلك الآثار الأدبية التى خلفها والتى قامت فى حينها بدور لا يستهان به فى هذا المضمار .

وجرى الحديث فى هذه الأمسية الأدبية عن أعمال الأديب أدهم وعن نشاطاته المتعددة فى فترة الانتقال من القرن الماضى إلى القرن الحالى ، وجرت الإشارة إلى أنه كان شاهداً على انهيار امبراطورية وقيام أخرى وعلى انبعاث الروح الحديثة فى الحياة التقليدية لجمهورية البوسنة والهرسك . وركز المتحدثون فى هذه الأمسية على المجال الواسع لأنشطة الكاتب أدهم بدءاً بالقيام بالعمل التثقيفى المثابر وعلى الأخص بين المسلمين وبتعليم الفقراء والموهوبين وانتهاء بإصدار بعض الصحف والمجلات والاشتراك فى تحريرها .

آيات قرآنية فى رواية بوسنية

يعجب المرء حينما يقرأ فى بداية رواية صادرة فى البوسنة والهرسك ومكتوب باللغة الصربوكرواتية البسملة ثم فقرات مختلفة من الآيات القرآنية الكريمة . إنها رواية « الدرويش والموت » التى ألفها الأديب المعروف ميشا (وهى كلمة تدليل لاسم محمد) سليموفيتش (١٩١٠ - ١٩٨٢) . وقد أحدثت هذه الرواية الرائعة دوياً هائلاً اجتاح الأوساط الأدبية فى البوسنة والهرسك وخارجها فى المنطقة المتحدثة باللغة الصربوكرواتية ، بل وتعداها إلى أقطار أخرى وتلقاها النقاد والقراء ، على حد سواء بحماس منقطع النظير على الرغم من أنها رواية لم تألفها الأوساط الأدبية هناك . فهى رواية تقع أحداثها فى جو إسلامى دينى متميز ، ويتفلسف أبطالها بمعان دينية ليس من الصعب تقصى منابعها فى الآيات القرآنية . ومن أجل هذا وصفت بأنها رواية إسلامية بوسنية .

والشخصية المحورية فى رواية « الدرويش والموت » هو الشيخ أحمد نور الدين ، وهو الذى يروى لنا أحداثها . وهذا الشيخ درويش منذ عشرين عاماً ، وهو شيخ لتكية الطريقة المولوية وهى من أكثر الطرق اتباعاً . وشرف التكية متمثل فى شخصية الشيخ أحمد وبه أصبحت قلعة للدين الإسلامى ، وبدت وكأنها تحمى البلدة من ألوان الشرور المعلومة والمجهولة .

ولم يكن الشيخ أحمد مختالاً بسبب وظيفته الدينية الرفيعة ، ويمقتضاها كان يرى أنه من الحتم عليه أن يحمى نفسه وغيره من الذنوب ،

وأنه لن يتمكن من التخلى عن هذه الحماية لأنه فيم يكون التدين إذا لم تكن هناك خطايا وصعاب يتحتم التغلب عليها ؟

وتعلم الشيخ أحمد فى صغره أن يطيع وأن يتحمل المشاق وأن يكرس حياته كلها من أجل الدين . ولم يكن هناك من يفضله فيما يتعلق بالتمسك بالدين الإسلامى ، وذلك لأنه كان يعرف على الدوام ما ينبغى أن يفعله . وكانت طريقة الدراويش تملى عليه طريقة سيره وتصرفاته . وكان على علم بأن أصول الدين ليست باليسيرة ، ومع ذلك فلم يكن هناك فى تصرفاته وشئونه ما يتنافى معها . وكانت له أسرة لا يرتبط بها سوى بقرابة الدم وبذكريات مضت وبطفولة ظل يجتهد طيلة حياته فى محو آثارها .

وتم إلقاء القبض على أخيه هارون الذى يصغره بخمسة عشر عاماً ، ويتم إيداعه فى سجن القلعة . وترتبك حياة الشيخ أحمد نتيجة لذلك وتتملكه الحيرة ، فليس بإمكانه أن يسمى ما حدث عدلاً أو ظلماً . وتبدأ رحلة عذابه النفسى وذلك لأنه يمقت الظلم ولا يطيق تحمله ويراه علامة على ضعف الحيلة وسوء التدبير ، بل إنه يعتبره أحد السبل التى تدفع الناس إلى إرتكاب الشرور والآثام .

وحينما أذاق رجال السلطة أخاه سوء العذاب أحس بهذا السوط يلهب ظهره ويدميه . وبعد إعماله لفكره أدرك أن معيار رجال السلطة فى الحكم على الأمور كان قاسياً وشديداً وذلك لأنه يعرف أخاه معرفة جيدة ويعلم أنه ليس على إستعداد لإرتكاب المخالفات . ومع ذلك فهو لا يدافع عنه بالقدر الكافى من الدفاع . ولكنه أيضاً لا يؤيد رجال السلطة فى مسلكهم القاسى تجاه أخيه . وتهيأ له أن الجميع يريدون إلقاء هذا العبء الفادح على كاهله لكى يجبروه ويدفعوه إلى الإفصاح عن موقفه وتحديده .

وتملكت الحيرة الشيخ أحمد نور الدين وتنازعته مختلف الأفكار . وأدرك تمام الإدراك أن انحيازه إلى أحد الطرفين – أى انحيازه إلى أخيه أو إلى رجال السلطة – لا يعنى إلا هلاكه .

ومن الطريف أن الشيخ أحمد يروى لنا هذه القصة من وجهة نظره الشخصية وبالتالى فهو ليس مراقباً موضوعياً محايداً ، وإنما يراقب الأمور من زاوية شاملة متحركة لا تستقر على حال وأصبح موقف الشيخ أحمد هو موقف الإنسان الذى تعرض وجوده وكيانه للخطر . ولذا فإن أهمية القيم تتفاوت وتتباين أمام ناظريه ، وتنحصر دائرة اهتمامه بالضرورة فى تلك المشاكل التى تهم حياة الإنسان عموماً ، أى فى مشاكل الوجود الإنسانى كله . ومن هنا ، كانت هذه الزاوية تعلو فوق الزمان والمكان وفوق كل التحديدات فى تصويرها للكفاح الأبدى المتواصل بين الخير والشر ، بين الحقيقة والكذب ، بين السلبية والإيجابية ، بين كل ما هو أبدى وكل ما هو عابر .

ويعرف الشيخ أحمد من صديقه حسن بالسبب الرئيسى للقبض على أخيه وإيداعه السجن . لقد كان أخوه يعرف أكثر مما يجب . ومن سوء حظ أخيه أنه اكتشف لدى القاضى الذى كان يعمل عنده كاتباً موثوقاً به ملفات ومستندات سرية تثبت أن السلطات تقسو فى معاقبة الأشخاص الذين يفضحونها ويفشون ما يعرفه جميع الناس ويخشون إعلانه . وكانت تعد لهم مسبقاً المحاضر والتحقيقات واعترافاتهم المختلفة بجرائم لم ترتكب ومطلوب إثبات ارتكابهم لها . وكان رجال التحقيق يعرفون سلفاً ما سيدلى به المتهم وما سيعترف به وما سيؤدى إلى إعدامه . ويبدو أن شقيقه قد أطلع أحداً على هذه الملفات السرية وربما ذكر له مضمونها أو ربما ضبط متلبساً والملفات والمستندات معه . ومن المؤكد أن السلطات قد خشيت افتضاح سرها وذيوع أمرها فأسرعت بالزج به فى غيابات السجن .

ويكتشف الشيخ أحمد مقدار وهمه وجهله بالعالم الذى يعيش فيه وبالأشخاص الذين يدور فى دائرتهم ، ولذا تتملكه الكآبة والضيق . ويسعى الشيخ أحمد إلى إخراج أخيه من السجن ولكنه يفاجأ بمعرفة أن شقيقه قد أعدم منذ ثلاثة أيام ، فيهتز كيانه كله وتتبدل شخصيته تبدلاً كاملاً نتيجة معرفته بكل هذه الحقائق الكامنة وراء إعدام أخيه . وتبيّن بشاعة وقوة الشر الذى يقدر على كل شيء ويحوم فوق حياة الناس لكى يقتنصها . ودفعه ذلك إلى التأمل والتفكير فى علاقة السلطة بالناس .

وتيقن أن السلطة تتربص بالناس وتقلل من إمكاناتهم فى السيطرة على الحياة بكل همومها ومشاكلها . وشرع الشيخ أحمد يفكر فى سخافة الحياة وفى الفزع الذى يتملك الإنسان ويستولى على جوانحه وسيطر الخوف والفزع على أفكاره وقراراته . وكل هذا بسبب المصير المفجع المفاجيء الذى تعرض له أخوه . ودفعه هذا إلى الإنطواء على نفسه والابتعاد عن الناس . وأحس بأن الزمن أقوى منه ، وبأنه مفروض على الإنسان – سواء أراد أم لم يرد – أن يفقد كل شئ . وفطن إلى أن كل شئ فى هذه الحياة وهذا الزمان يوحى للمرء بأنه يملك ذاته وبأنه حر فيما يفعل ، إلا أن الحقيقة أنه يعيش طوال حياته أسيراً لقوى الظلام التى تثير فى نفسه الإحساس بالذل والاستياء . ويعتصر الألم نفسه لمرارة هذه الحقائق ، فمن المحتم على الإنسان أن يتخلى عن كل ما يحبه ويهواه لأن الخسارة والاحباط لا مفر من حدوثهما . ولابد أن يتخلى المرء عن الحب حتى لا يفقده وحتى لا يحطمه الآخرون ، ومن الحتم كذلك التخلى عن أية ارتباطات بسبب احتمالات الحزن والحسرة .

وصارت أفكاره وعواطفه مشوهة ووعيه قاتماً ، وحاصرته الوحدة ، وأحس بالضياع لأنه اكتشف أنه يخون مثالياته ومبادئه . لقد كان يحلم بالثورة حتى ينتقم لأخيه ولذا طالب بالسلطة وبالفعل حصل عليها . وحينما أحس بقوتها ونفوذها سرعان ما اصطبغ بلونها ووقع فى فخاخها

إلى أن تجسدت فى شخصيته فوقع بيده على قرار بإعدام صديقه الوحيد ورفيق حياته حسن .

وفى مواجهة مع النفس أحس القاضى أحمد بمدى انحداره المريع وتقززه من مسلكه ومن العالم والحياة والزمان . إلا أن صديقه حسن ينجح بمحض الصدفة فى الهرب من سجنه ، ويعلم القاضى أحمد بذلك ويتغاضى عن الأمر فيأتى عليه هو الآخر الدور فى ملاقاة الموت . ويحل النزع الأخير وتتحول اللحظات الأخيرة من حياته إلى حشرجة وإلى صرخة بلا معنى ويتوقف ذهنه عن التفكير وتتحدث غريزته من داخله عن حبها وتشبثها بالحياة .

وطوال قراءتك لهذه الرواية لا تفلت من الإحساس بأنك أمام تجربة حقيقية واقعية لهذا الأديب من البوسنة . وهذا هو ما أثاره النقاد أكثر من مرة . ذلك أن الأديب ميشا سليموفيتش كان من خلال عرضه لشخصية أحمد نورالدين وقضيته المتعلقة بإعدام أخيه يعرض جانباً واقعياً من سيرته الذاتية . فقد تم إعدام شقيق سليموفيتش بمعرفة قوات التحرير اليوغسلافية المسماه « البارتيزان » بتهمة سرقته لبعض الأشياء الخاصة بهذه القوات . وكان ميشا يعلم تمام العلم ببراءة أخيه من هذه التهمة .

ويذكر الأديب سليموفيتش أن هذا الحدث الغريب المفجع كان نقطة تحول خطيرة فى حياة جميع أفراد عائلة سليموفيتش وفى حياته هو بشكل خاص . واشتد وقع الصدمة المفاجئة على نفسه لدرجة أنه فكر كثيراً فى استمرار تأييده للثورة ضد الاحتلال ، غير أنه – بعد تفكير عميق – استمر فى وقوفه إلى جانب الثورة اليوغسلافية التى أخذت تلتهم أولادها .

وتملكت الأديب سليموفيتش الرغبة فى أن يسجل بالكتابة قصة أخيه ومأساته إلا أن الكلمات كانت تهرب منه وتخونه . ومن ثم قرر أن ينتقى أحداثاً تاريخية قديمة لكى يعبر بها عن فجيعة أخيه دون أن يتمكن أحد

من المقارنة بين الحقيقة وبين الفن لأنه كان يخشى هذه المقارنة ويخاف من عواقبها .

ومن هنا خطرت بباله فكرة هذا الدرويش الذى يقف وحيداً فى مواجهة جميع الشرور ويعيش حياة مزدوجة ويتألم من أجل هذه الحياة حتى رأى تفاهة هذه الحياة وتفاهة الموت على حد سواء . وظل عشرين عاماً يحمل فى صدره فكرة هذا الدرويش ويتأمل تفاصيلها ويعمقها بالكثير من طاقته الثقافية والعاطفية . وشعر بعد إنتهائه من كتابتها بتعب شديد جعله يعانى من الإكتئاب ومن الإنطواء ويتجنب الناس ويخشاهم .

والرواية مفعمة بالرموز الفلسفية والنفسية التى تشير أساساً إلى هموم الإنسان وعذابه المصيرى فى غزو الحياة والسيطرة عليها . إنها رواية التحليل العميق لطاحونة السلطة ودوامة النفوذ التى يكون الإنسان فى بعض الأحيان ضحية لها ، وفى أحيان أخرى يشترك هو نفسه فى تشغيلها وطحنها للآخرين .

وهى رواية الفكر والتفكير بلا طموحات فلسفية كبيرة ، وهى رواية المعضلات الأخلاقية أيضاً . كما أنها تعد امتحاناً عسيراً للنقاد ولجماهير القراء الذين يسعون إلى تفسير معانيها الحقيقية وإلى فك رموزها الخفية . وقد وصفها بعض النقاد بأنها رواية إسلامية بسبب بيئتها الإسلامية الخالصة وبسبب كل ما تشتمل عليه من أفكار دينية إسلامية ، وبسبب وجود آيات قرآنية فى حوار الشيخ أحمد مع نفسه ، وبسبب اشتمالها على اقتباسات واضحة من المعانى القرآنية .

وقد وجدت فى سيرة الأديب سليموفيتش ما يفسر معرفته لهذه الآيات القرآنية . فهو مولود فى عام ١٩١٠ عن عائلة مسلمة فى مدينة توذلا بمنطقة البوسنة والهرسك التى يكثر بها عدد المسلمين . وفى حوالى الرابعة من عمره إلتحق سليموفيتش بـ « الكتّاب » ، وكان مدرسه هو

الحاج صالح أفندى الذى ترك فى نفسه انطباعاً طيباً للغاية ، فقد كان يترك لهم مطلق الحرية فى الحضور والإنصراف وهو أمر يثير بهجة صغار التلاميذ ، ثم أنه لم يكن يغضب منهم على الإطلاق ، ولا يقطب جبينه فى وجوههم ، وكان يتركهم يثيرون الضجيج ويتقافزون بينما هو يضحك لهم بكل صبر مستمتعاً بسرورهم ، لكنه رغم ذلك لم يحظ منهم بالاحترام .

وفى المقابل كان مدرس الدين الإسلامى فى « الكتّاب » قاسياً عليهم مما زاد من صعوبة تعلم سليمو فيتش للحروف العربية ، الأمر الذى جعله فيما بعد لا يحب اللغة العربية وحروفها ، غير أنه حينما وقعت فى يده بمحض الصدفة ترجمة للقرآن الكريم تعجب أشد التعجب وتساءل عن الأسباب التى دعت مدرس الدين إلى أن يخفى عنهم مثل هذا النص الرائع .

واستمع سليموفيتش فى طفولته إلى نوعين من الحكايات . النوع الأول هو حكايات جدته ثم حكايات أمه فى شبابها . ومن الطريف التنويه بأن أمه كانت مسلمة شديدة التمسك بدينها وتلتزم بصلواتها ، لكنها للأسف كانت فى بيتها وحيدة فى هذا المضمار فلم يكن زوجها يجاريها فى ذلك . ومن هنا كان سليموفيتش يشعر بأن أمه تعيش فى وحدة عجيبة .

وقد حصل الأدب فى البوسنة والهرسك بهذه الرواية التى تجرى وقائعها فى بيئة إسلامية ويشتمل حوارها على آيات قرآنية – على كتاب فريد وعلى خبرة إبداعية ملهمة من حيث إحساسها وصياغتها . وكان لدى مؤلف هذه الرواية الرغبة والشجاعة لأن يهبط من برجه العاجى المأمون الذى يقوم فيه بالتأمل الروحى ومطالعة كتب التاريخ ، إلى الأرض حيث يدرس المشاكل البشرية الجوهرية والراهنة على الدوام والمتعلقة بالحياة والموت وبالحب وبالكراهية وبالوفاء والخيانة وبالشر وبالخير . وهى مشاكل فطرية مغروسة فى نفس الإنسان ولم يجد لكثير منها أى حل .

وليس من نافلة القول التنويه إلى أن ميشا سليموفيتش أنهى دراسته بكلية الآداب بجامعة بلغراد . ثم اشترك فى حرب التحرير الشعبية ليوغسلافيا ، وكانت السنوات الأربع التى قضاها فى هذه الحرب بمثابة إعداد أدبى مكثف لنشاطه الإبداعى بعد الاستقلال . ومنذ عام ١٩٤٦ وهو يعيش ويعمل فى سرايفو مدرساً بالمدرسة العليا للتربية ، ثم مدرساً بكلية الفلسفة حيث درس مذهب الواقعية فى الآداب اليوغسلافية .

وبالتدريج أخذ سليموفيتش يحتل مكانته الأدبية فى منطقة البوسنة والهرسك خاصة منذ صدور مجلة « برازدا » الأدبية فى عام ١٩٤٨ م . وشرع ينشر أقاصيصه الأولى التى تعالج موضوعات حرب التحرير والثورة . وبالرغم من أن الأسلوب الواقعى كان هو الأسلوب السائد فى الفترة من عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٥٠ فقد تميزت أقاصيصه بإهتمامه الشديد بالتعبير الفنى وبالحالة النفسية وبهيكل القصة وبجمال أسلوبها . وكان واضحاً آنذاك أن هذا الأديب قد اختار السبيل الذى سبقه إليه أول حائز من البوسنة والهرسك على جائزة نوبل للأدب فى عام ١٩٦١ ، وهو الأديب إيفو أندريتش الذى كان مغرماً بمنطقة البوسنة والهرسك .

وبعد استقلال يوغسلافيا سابقاً ساهم سليموفيتش فى نشاط لجنة تحديد جرائم الاحتلال . ثم تم تعيينه عضواً باللجنة التى كان ينبغى أن تتأكد وتحقق فى الاتهامات المنسوبة لبعض الفنانين . وقرر أعضاء هذه اللجنة بما فيهم سليموفيتش أن هؤلاء الفنانين أبرياء . وإثر ذلك تمت إقالة إثنين من أعضاء اللجنة من عملهما ، وطولب سليموفيتش بالرحيل . وهكذا ظل منذ عام ١٩٥٣ بلا عمل ولمدة أربع سنوات متتالية دون أن يعرف أسباباً محددة للإستغناء عنه ، ودون أن يقول أو يفسر له أحد شيئاً ، ولم يستطع سليموفيتش أن يتحدث مع أى إنسان بشأن هذا الموضوع . وقد وصف الأديب سليموفيتش هذا الموقف فى رواية « القلعة » حيث

لا يستطيع المرء أن ينطق ببنت شفة والناس يمرون من أمامه كنسمة هـــواء .

وحاول سليموفيتش البحث عن عمل فى أى مكان دون جدوى ، ولم ينجح فى الحصول على أى عمل بالرغم من أنه كان يطلب العمل فى كل مكان وحتى فى الأرياف وذلك لأنه رب أسرة وزوجته لا تعمل . وكان على استعداد لقبول أية وظيفة من أجل هذه الأسرة حتى ولو كان عملاً بدنياً . وبعد لأي قبله مدير المسرح القومى فى سرايفو للعمل بالمكافأة معداً دراميا بالمسرح ، فأحس لأول مرة معنى الأمان بحصول المرء على مبلغ من المال فى أول كل شهر ، حتى لو كان ضئيلاً .

ولكنه ظل محدود الدخل يعمل ويمارس كل شىء وأى شىء . وكان يحس بالمهانة لكنه لم يسمح لنفسه بل ولم يستطع أن يسمح لها بالتركيز على محافظته على كبريائه . وأخذ يعد سيناريوهات الأفلام وهو عمل جديد عليه لا يعرف عنه شيئاً ، ويعترف هو شخصياً برداءة هذه السيناريوهات وأنه لم يتقن على الاطلاق هذا العمل . غير أنه حصل بمهرجان « بولا » على جائزة عن سيناريو فيلم « الأرض الغربية » الذى أعده بناء على فكرة إحدى أقاصيصه .

وتحسنت أحواله وتوالت عليه الوظائف فعمل مديراً فنياً لشركة « بوسنة فيلم » السينمائية ثم رئيساً لدار النشر « سفيتلوست » بسرايفو ثم انتقل إلى بلغراد وتوفى بها كأديب محترف فى عام ١٩٨٢ . ومنذ عام ١٩٥٨ وهو يكرس نفسه للعمل الأدبى وقد بلغ من العمر ثمانية وأربعين عاماً لكنه كان يعمل بإصرار شديد ، وفى هذه الأثناء درس اللغة وإمكانات التعبير مما ساعده على حسن صياغة أقاصيصه ومؤلفاته وسيطرته على الأساليب المختلفة للتعبير .

ومن مؤلفاته المشهورة . الرجل المستاء (١٩٤٧) ، الكتيبة الأولى (١٩٥٠) ، السكون (١٩٦١) ، الأرض الغريبة (١٩٦٢) ، الضباب وضوء القمر (١٩٦٥) ، الدرويش والموت (١٩٦٦) ، الفتاة ذات الشعر الأحمر (١٩٧٠) ، القلعة (١٩٧٠) ، الجزيرة (١٩٧٦) ، وروايته التى لم يكملها « الدائرة » .

ويحلو للنقاد أن يعقدوا العديد من المقارنات والمشابهات بين الأديبين ميشا سليموفيتش وإيفو أندريتش على أساس أن كليهما من منطقة البوسنة والهرسك . وتقود هذه المقارنات النقاد إلى الاستنتاج بوجود جوانب تشابه عديدة بين بطلى رواية « الدرويش والموت » لسليموفيتش ورواية « الفناء الملعون » لأندريتش . وبينما مؤلفات سليموفيتش ترتبط ارتباطاً تاريخياً وأدبياً بعصر وبعالم محدد ، ألا وهو عالم البوسنة والهرسك ، نجد مؤلفات أندريتش تقف موقفاً وسطاً بين الأسطورة والحقيقة التاريخية . ودائماً ما يركز سليموفيتش على الجانب الأخلاقى فى العالم والعصر ، وبذلك تكون الصورة ذات قيمة كبيرة بالنسبة لجميع العصور ، وهى صورة خالية من الحقائق التاريخية . كما أن سليموفيتش يحتم وجود مسافة معينة بين حقائق العصر والبيئة ، وبين شخصيات مؤلفاته . أما أندريتش فيرسم لأبطاله صورة دقيقة فى تفاصيلها ، ويحاول بالوثائق تقريب صورتهم من الأصل . ومن أهم مميزات سليموفيتش أنه لا يهتم كثيراً بالأشخاص وبالأحداث التى تشكل تاريخ منطقة البوسنة والهرسك وإنما يحاول أن يستنبط من الحقائق الحية عن الأشخاص حكايات رمزية ذات مغزى أخلاقى .

ومن جوانب التقارب بين الأديبين أن سليموفيتش يقترب غاية الاقتراب من أندريتش فى موقفه الأساسى الذى يتمثل فى احترامه للالتزامات العائلية . وهذا هو ما يفصل بين سليموفيتش وبين معاصريه

من الأدبـــاء الذيـن لا يحــترمـون علــى الإطـــلاق هـــذه الإلتزامـات العائلية .

أما فيما يتعلق بالاختلافات بين الأديبين ، فأهمها أن سليموفيتش لم يكتب على الإطلاق رواية تاريخية تستند إلى الوثائق التاريخية كما فعل أندريتش فى رواية « تاريخ مدينة ترافنيك » التى تعتمد فى أساسها على الوثائق التاريخية وأقوال شهود العيان .

رحلة إلهامى إلى الموت

من المؤكد أن رواية « رحلة إلهامى إلى الموت » تعد من أشهر بل ومن أفضل الأعمال الروائية للكاتب البوسنى رشاد قاضيتش . ومن الجلى أنه كتبها على دفعة واحدة . وهى تبين ، على أفضل صورة ، إمكانات هذا الأديب وقدراته الإبداعية بحيث أن المرء يحزن أشد الحزن لأنه لم يكرس كل حياته للرواية وللعمل الروائى .

وهذه الرواية تعد قصة حقيقية عن عبدالوهاب بن عبدالوهاب الجيبتشاوى إلهامى الذى عاش حياة العادل . وكان رجلاً فاضلاً من رجال الدين ، ويعمل إماماً وخطيباً لمسجد فرهاد باشا . وعلاوة على ذلك كان صوفياً متحمساً وشاعراً شجاعاً . وكان يؤلف باللغتين التركية والعربية ، وبلغته الأم التى كانت تسمى آنذاك بـ « البوسنية » . وبالإضافة إلى كتاباته الدينية الملحوظة فقد ترك عدداً كبيراً من القصائد التى يعد بمقتضاها من أغزر الشعراء المسلمين إنتاجاً فى عصره .

وقد ولد إلهامى وعاش فى مدينة جيبتشه فى فترة متخمة بالطغيان والظلم والرذائل التى كانت منطقة البوسنة ترتجف تحت وطأتها وتنزف دماؤها . وكان الجلالى ، حاكم البوسنة قاسى الطباع ولا يتردد فى اتخاذ قراراته وعديم الشفق . وكان من رأيه أنه لا يفلُ الحديد إلا الحديد . وهذا هو ما فعله . فقد بدأ يستدعى الأعيان المشتبه فى أمرهم والقائمين بالعصيان . وانتهى الأمر بأولئك الذين أسعدهم الحظ بالنفى ، أما الباقون فقد انتهوا إعداماً بسيف الجلاد أو شنقاً بالحبل الحريرى .

ودب الخوف فى البوسنة وفى أحشاء الناس . وحينما سئم الجميع من الظلم ظهر إلهامى الذى ثارت مشاعره بسبب مصير بلاده وأهل بلده ورفع صوته ضد أولئك الذين اعتبرهم مسئولين عن المصير السيئ لمسقط رأسه . وأنشد قصيدته المعروفة باسم « حل زمان غريب » . ورغم أن إلهامى المحب للعدالة كان مسلماً صادقاً وصوفياً إلا أنه كانت لديه الشجاعة لأن يندد تنديداً علناً بالطغيان ولأن يقول الحقيقة .

وقصيدة الاحتجاج هذه التى كتبها إلهامى وضعت بصمتها على قدره المؤسف . فقد استدعاه الوالى البوسنى وكان هذا ، فى الآونة نفسها ووفقاً للتقاليد السارية ، يعنى صدور حكم بالإعدام عليه . وكان إلهامى يعلم ماذا ينتظره منذ أن وصله خبر استدعائه . واستدعاه رئيس مدينة ماجلاى وأبلغه بذلك وهو فى غاية التأثر وأفهمه أنه لا يستطيع مساعدته وأن عليه أن يتحرك بنفسه فهو لا يريد أن يطارده أحد لأنه ليس قاتلاً أو قاطع طريق .

وتملك الناس الفزع حينما وصل إلى جيبتشه نبأ استدعاء إلهامى إلى مدينة ترافنيك . وفى أثناء مروره عبر السوق كانوا ينظرون إليه كما يتم النظر إلى أولئك الذين يتم اقتيادهم إلى ساحة الإعدام . لم يقترب منه أى إنسان ولم يخاطبه أحد . وتظاهر الناس فى السوق بأنهم لا يرونه رغم أنهم جميعاً يشاهدونه ويتابعونه بنظراتهم ، ولكنهم كانوا ينظرون إليه خلسة من الدكاكين والمقاهى .

وكان قلب إلهامى يستشعر سبب استدعاء الجلالى له ويحدس ما ينتظره فى ترافنيك ولم يتعشم أى خير . وعزم على الذهاب إلى الجلالى . وبعدما أخذ أهبته ترك المدينة فى عجلة ولم يلتفت وراءه ولم يسمح لمشاعره بأن تصرعه .

وفى طريقه إلى الجلالى التقى بقطاع الطرق الذين سرعان ما تركوه

لشأنه حينما علموا أنه ذاهب إلى الوالى الذى استدعاه ، فقد فهموا ماذا ينتظره هناك . وحاول قطاع الطرق أن يقنعوه بالبقاء معهم لكى يشاركهم أعمالهم أو على الأقل لكى يبقى على رأسه بين كتفيه . ولكنه رفض وانتقد تصرفاتهم وأفعالهم وكذلك أفعال الجلالى ، وتنبأ لهم وللجلالى بالندم أشد الندم على تلك الأفعال .

وسبقته أخباره إلى قرية فراندوك ، وساد الصمت الجميع لما دخل مقهى الخان الحافل بالناس . وكانوا قد حكوا عن رؤيتهم له فى الطريق التجار وسائقو العربات الذين قدموا إلى الخان . وهناك شخصان من نفس بلدته أسهبا فى الحديث من عندياتهما .

وأحسن حمزة أغا صاحب الخان استقبال إلهامى لأنه كان يعرفه من قبل . وخلال حديثهما حاول حمزة أغا أن يثنيه عن الذهاب إلى الجلالى لأنه لا أحد يجبره على ذلك . واستنكر إلهامى على نفسه أن يختفى أو يهرب من حتفه فلم تكن تهمه نفسه لأنه أودعها أمانة لدى الله علاوة على أنه سدد كل ديونه فى الدنيا . والتمس إلهامى من حمزة أن يسأل ، فى حالة عدم عودته ، عن قبره وأن يضع شاهداً فوقه حتى يعرف الناس مكان القبر .

وخلال هذه الرحلة الفريدة يلتقى إلهامى بكثيرين آخرين وخلال تحاوره معهم كان يتضح لنا مقدار شجاعة إلهامى ونبل أخلاقه وعدم خوفه من الموت بل ولهفته للالتقاء به . وكان إلهامى يريد أن يضع ، بأسرع ما يمكن ، نهاية لهذه الرحلة الشاقة التى لاقى خلالها معاناة وسقوطاً ونهوضاً وسمواً .

ودخل ترافنيك ، مدينة الوالى ، فوجدها ساكنة صامتة . فمنذ أن جاء الجلالى وسكان مدينة ترافنيك يغلقون منازلهم قبل المغرب ، ولم يكن يهبط إلى السوق إلا المضطر ، بل ولم يكن أحد يخرج من داره . فالخوف

يزحف على ترافنيك نهاراً وليلاً . ويمر الناس بالقرب من قصر الوالى فى وجل وفى عجلة وبعينين مسددتين إلى الأرض . ويتم همساً داخل المنازل والمحلات ذكر أسماء من جاءوا بهم ثانية واقتادوهم ، وسرد أسماء من انطلقت من أجل إعدامهم المدافع اليوم أو بالأمس ، وأسماء أعيان البوسنة الذين احتسوا « الشربات » المسموم . ورغم كل هذه فقد كانت الأخبار الجديدة تصل تباعاً من القلعة ولم يكن من الممكن إخفاء شيء .

واتجه إلهامى مباشرة إلى قصر الوالى وسرعان ما تم إرساله إلى القلعة لكى يبيت فيها .

وحينما التقى بالجلالى طلب منه أن يتلو عليه القصيدة التى استدعى من أجلها . ثم سأله فيما كان يفكر حينما كان يكتب هذه القصيدة وماذا أراد أن يقول من خلال أبياتها . وأجاب إلهامى في شجاعة بأنه فكر فى الشر والبلاء حينما كتب هذه القصيدة . لقد أنهكت أهل البوسنة الحروب وفيها ضاع ويضيع كثير من أبنائها وتهلكهم الأوبئة والجهالة تسود وأبيدت العدالة والفقر فظهر التمرد وأعمال قطع الطرق بينما ازدهر الطغيان والارتشاء وسوء الأخلاق . أما أولئك الذين ينبغى أن يكونوا فى المقدمة وأن يحددوا ماهية العدالة ويعملوا على نشرها بدءاً برجال الامبراطور والأعيان وانتهاءً بالعلماء ، فهم يتحدثون بشئ ويفعلون شيئاً مغايراً ويفكرون فى أنفسهم فحسب وكل منهم يسرع صوب وجهته دون الالتفات إلى الآخرين . وتحولت البوسنة كلها إلى جرح دامى لا يلتئم .

واستشاط الجلالى غضباً وقال له : أنت يا إلهامى انقضضت على الامبراطورية وقصيدتك الثائرة تنتقل من مدينة إلى أخرى ومن فم إلى فم ، وهى أشد بتراً وخطورة من كل سيف . وبالنسبة للامبراطورية وللسلطان فأنت خطير للغاية مثل أولئك الذين جئت من أجلهم إلى هنا ! بل إنك أشد خطورة لأنك نقى ولا تطلب شيئاً لنفسك ولأن الناس يصدقوك .

وعليك أن تندم يا إلهامى ، وقل ذلك جهاراً وبياناً بحيث يسمعك الجميع . قم بسحق القصيدة بمثلها ، إنكرها وحافظ على رأسك وإلا فسيتم إعدامك . سأحزن من أجل ذلك ولكن الامبراطورية والسلطان فوق كل شيء بالنسبة لى ولا توجد هنا رحمة تجاه أى إنسان .

ولم يهب إلهامى ولم يجبن وفى رده أكد على أنه لا فائدة للامبراطورية بدون طمأنينة وسعادة أبنائها . والناس أهم من السلطان ومن الامبراطورية ، ولن ينبت شيء طيب وسط الدماء . والإنسان هو أكمل ما خلقه الله وويل لمن يمتهنه .

ويستمر هذا الحوار الممتع الذى أُجاد الكاتب فى إدارته . ويجيب الجلالى : يا إلهامى ، لقد حكمت على نفسك بنفسك . إننى حزين من أجلك . إنك أكثر نقاء وشجاعة من جميع أولئك الذين التقيت بهم ولذا فأنا أشفق عليك ولو ترفقت بك لخدعت نفسى ولأصبحت أنت قدوة سيئة لكثيرين ولذا فإنك لن تفلت من الموت .

وفى الختام طلب منه إلهامى أن يكون أكثر رحمة تجاه الناس لأن الشخص الذى لا يملك رحمة تجاه الآخرين لا يستطيع أن يطلبها لنفسه والرحمة مطلوبة للجميع ، وطالبه بقضاء ليلة واحدة مع أولئك التعساء الموجودين بسجن القلعة . كما طلب منه أن يتذكره ويتذكر كلماته حينما يحضره الموت .

وسرعان ما ذاع نبأ إعدام إلهامى وكأن الرياح قد نشرته وتقبله الناس فى خوف وحزن . وزاره حمزة أغا وأقام له شاهداً كما طلب .

وبعد عام تقريباً تسلم الجلالى فرماناً بعزله من ولاية البوسنة ، وفى الليلة نفسها ساءت حالته الصحية ووافته المنية . وانتشرت الشائعات على الفور ، فمن الناس من يقول أنه تناول السم ومنهم من يقول أنها لعنة إلهامى حلَّت به .

ويلاحظ بوجه عام أن الكاتب البوسنى رشاد قاضيتش يكتب عن آلام الإنسان وكروبه وهمومه ومصائبه ، ويصور أبدع تصوير الظلم الذى سحق المسلمين فى البوسنة والهرسك بل وتعداهم إلى غيرهم من أتباع الديانات الأخرى تاركاً آثاره البشعة وفى كل مرة تكون الآثار أشد عنفاً وقسوة . ولكن لابد على الفور من التنويه على أن رشاد قاضيتش ككاتب إسلامى لا يترك شخصياته تضيع بين التردد واليأس أو تنتهى فى مآسى سوداء بعد أن فقدت آمالها وروحانياتها وإنما يقودها إلى بر الأمان .

وقد استلهم رشاد قاضيتش أحداث رواياته من الماضى كما فعل من سبقوه من الأدباء ، ولكن النقاد يعتبرونه من الأدباء القلائل الذين تحدثوا بأصدق أسلوب عن روح المسلم فى البوسنة والهرسك ، تلك الروح التى انشغلت بفكرة الموت والحياة الأبدية وكادت أن تنفصل عن الواقع .

ويتميز أسلوب قاضيتش بالحوار الممتاز والتعبيرات التلقائية والابتعاد عن القوالب المعروفة فى الآداب العالمية ، ويتمسك بأسلوبه الخاص المتميز فى الكتابة بطريقة يسيرة على الفهم وبلغة شعبية حبيبة إلى أذن القارئ .

ومن أعماله المشهورة رواية « الرسالة الأخيرة لباشيسكى » ، وبطلها هو مولى مصطفى باشيسكى وهو كاتب عمومى متواضع من مدينة سرايفو وعاش فى الفترة من النصف الثانى من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر . ورغم أنه لم يكن عالماً إلا أنه كان أكثر نضجاً وحكمة من معارضيه . وكان طوال حياته يسجل بنشاط مختلف الأحداث ويعلق عليها ، ثم جمعها فى كتابه المشهور « الحوليات » التى تعد من أروع ما كتب فى الأدب بالبوسنة والهرسك فى هذا المضمار . ويستعرض هذا الكاتب أمام القارئ مجموعة من الشخصيات المتباينة ابتداء من الصوفية الذين وهبوا أنفسهم للأمور الروحية ومروراً بأصحاب النفوذ الذين فقدوا الإحساس وانتهاء بالقتلة والعتاة .

وروايته الأخرى « الحاج لويو » تعالج حدثاً من أضخم الأحداث ، إن لم يكن أضخمها على الإطلاق ، فى التاريخ الحديث لمنطقة البوسنة والهرسك وخاصة فى تاريخ المسلمين بهذه المنطقة ، ألا وهو الاحتلال النمساوى المجرى للبوسنة والهرسك فى عام ١٩٧٨ . وكان هذا الحدث نقطة تحول بارزة فى حياة جميع المسلمين انذاك .

وتعد هذه الرواية فى حقيقتها تأريخاً دقيقاً لهذا الحدث ، وتبدأ بوصف الاستعدادات السياسية والعسكرية لاحتلال هذه المنطقة بواسطة الامبراطورية النمساوية المجرية وكيف خاض شعب هذه المنطقة دوامة الحرب وكيف شرع أفراده العزل فى مقاومة المحتل المتفوق عليهم عدداً وعدة أضعاف المرات .

وسجل أحد النقاد البوسنيين فى معرض كتابته عن رواية « الحاج لويو » أن هذا الموقف الدرامى العصيب اكتسب فى هذه الرواية سمواً ملحمياً وبيّن للعالم أجمع القلب الكبير الذى يحمله بين جنباته هذا الشعب الصغير فى منطقة البوسنة والهرسك. ونقل الأديب رشاد قاضيتش بقلمه المبدع ولغته السلسة وكلماته المعبرة هذا الحدث الخطير من الواقع المؤلم إلى صفحات روايته الأدبية وقدم له التفسيرات اللازمة ودعم كلامه بالوثائق . وهكذا عادت الحياة إلى عام ١٨٧٨ على صفحات هذه الرواية وعلى يد الأديب البوسنى المسلم رشاد قاضيتش .

ومن الطريف أن الأديب رشاد يكتب الشعر الإسلامى أيضاً . فقد كتب قصيدة « المولد الشريف » وهى من قصائد المدح النبوى الشريف ، وحصل بها على أول جائزة فى المسابقة التى أجرتها المشيخة الإسلامية بيوغسلافيا . وقد لاقت هذه القصيدة قبولاً شعبياً طيباً بالبوسنة وطبعت حتى الآن عشر طبعات كما تم تسجيلها على اسطوانة . وهكذا دخلت هذه القصيدة كل منزل بوسنى مسلم وكل مسجد ووجدت فى جميع المناسبات والاحتفالات .

ثم كتب قصيدة أخرى عن شخصية « الغازى خسرو بك » وعن أعماله الخيرية التى ظلت حتى يومنا هذا وبعد مرور ما يقرب من ٤٥٠ عاماً من إقامتها شاهداً على ما قام به هذا الرجل المسلم الذى لا يزال يُذكر بالخير حتى الآن . وقد حظيت هذه القصيدة أيضاً بعده طبعات .

وصاغ الأديب والشاعر رشاد قاضيتش أيضاً قصيدة عن « حياة السيدة فاطمة » بنت النبى عليه الصلاة والسلام . وصاغها بأسلوب عصرى قريب إلى القلب والأذن . ولابد فى هذا المجال من التنويه إلى ما قام به رشاد قاضيتش ، بالاشتراك مع الأديب « عليا ناميتاك » ، من جمع القصائد الدينية لمسلمى البوسنة والهرسك ونشرها . وقد تم نشر مختارات من هذه القصائد ونبذة عن حياة مؤلفيها .

وبعد فهذه هى لمحة وجيزة عن رواية « رحلة إلهامى إلى الموت » للأديب البوسنى المسلم رشاد قاضيتش الذى لفت الأنظار إليه بكتاباته العديدة ، وقد أكدت معرفته الجيدة ببيئته التى استلهم منها موضوعاته ، كما توضح ثراء قاموسه اللغوى ، وتشير إلى السحر الذى يتميز به حواره البسيط الممتاز .

انتحـــار أديب

اكتسب الأديب برانكو تشوبيتش بأعمالـه الأدبيـة الجليلـة صـورة مشرقة فى كتابات النقاد ودراساتهم ، فهو كاتب تعددت مواهبه الأدبية إذ أنه أبدع فى مختلف الأجناس الأدبية من ملحمة شعرية وقصة قصيرة ورواية ومسرحية وقصص للنشء وشعر للصغار . وهو أديب اشتهر بغـزارة إنتاجـه فقد احتـوت الطبعـة الأخيـرة لمؤلفاتـه الكاملـة علـى خمسة عشر كتاباً . ومن أجل هذا الإنتاج الأدبى الغزير حصل على العديد من الجوائز الأدبية ، وذلك علاوة على حصوله على الكثير من الأوسمة والنياشين خلال حرب التحرير الشعبية اليوغسلافية .

وبالرغم من هذه الصورة المشرقة للأديب برانكـــو تشوبيـــتش (١٩١٥ - ١٩٨٤) ولأعماله الأدبية إلا أنه فى أواخر أيام حياته كان يشعر بحالة عجيبة من التشاؤم واليأس ، الأمر الذى دفعه ، فى لحظة ضعف قاتلة ، إلى الانتحار وإلى إنهاء حياته بيده . ورغم ما قيل وكتب عن هذه النرجسية القاتلة وعن تلك الحالة من الاكتئاب التى دفعت هذا الأديب إلى الانتحار فإننى أعتقد أن هناك الكثير مما لم يذكر ولم يكتب عن أسباب انتحاره وعن دوافعه إلى ذلك . ولا شك أن الفترة القادمة ستفصح عن المزيد من الأسباب والأسرار الأمر الذى سيزيد من شهرة هذا الأديب وذيوع مؤلفاته بحيث يطغى على غيره من الأدباء وهو ما كان يتوق إليه فى حياته .

ويدفعنـى إلـى هذا الاعتقاد تلك الكلمـات والخـطب والتعليقـــات والانتقادات التى ذكرت ونشرت بعد وفاة هذا الأديب . وكان من الطبيعى

أن يتم التركيز على الخطوط الإيجابية والخصائص المميزة لهذا الأديب ، ولكن الغريب أن تقال فى احتفال عام لتأبين هذا الأديب وفى مكان رسمى ، وهو ما يشبه المجلس الأعلى للثقافة عندنا ، كلمات تربط بين انتحار الأديب وبين الظروف الاجتماعية التى كانت سائدة فى يوغسلافيا آنذاك . بل أن مجموعة من الأدباء ذوى الثقافة العالية نشروا على نفقتهم الخاصة بمناسبة مرور عام على وفاة تشوبيتش كتاباً مخصصاً لتفسير أسباب انتحار هذا الأديب . ولم يتم حظر هذا الكتاب رغم أنه كان يحوى الكثير من الكلمات والأشعار التى تعرب عن عدم الرضى عن الأحوال العامة فى يوغسلافيا .

ولا شك أن أفضل رثاء لأى أديب هو نشر المقالات والأبحاث والدراسات عنه والتعريف بمؤلفاته وأعماله الأدبية ، وهذا هو ما سنحاول القيام به من خلال السطور التالية .

والأديب برانكو تشوبيتش مولود فى قرية هاشانى بمنطقة البوسنة والهرسك فى عام ١٩١٥ . وبعد إنهائه للدراسة بمدرسة المعلمين التحق بقسم الفلسفة والتربية بكلية الآداب فى بلغراد وانتهى من هذه الدراسة فى عام ١٩٤٠ . ومنذ عام ١٩٣٦ وهو يكتب فى صحيفة « بوليتيكا » ببلغراد . وخلال حرب التحرير الشعبية كان قومسيراً سياسياً ومحرراً بصحيفة « بوربا » .

وقد شبه النقاد هذا الأديب بالأديب الروسى المعروف « أنطون تشيخوف » وخاصة بسبب قصصه التى يعرض فيها لشرائح من الحياة مفعمة بالحزن وبالرقة وكذلك بالفكاهة والسخرية ، ولم يتحدث بمثل هذا القدر من الدفء عن أبطاله المحزنين المضحكين إلا بعض الأدباء المشهورين من أمثال تشيخوف وبيرانديلو .

ومن الخطوط العريضة الهامة التى تتسم بها شخصية برانكو

تشوبيتش هي دعوته المثالية ، عن طريق قصصه ، إلى الإخاء بين جميع شعوب وسكان منطقة البوسنة والهرسك التي يكثر فيها المسلمون إضافة إلى أتباع الديانات الأخرى . وهو يوسع من نطاق دعوته هذه فيدعو إلى الإخاء بين شعوب العالم والتفاهم الإنساني . وهكذا فإنه يقول في إحدى قصصه : كلما أفكر في السلام والصداقة بين الشعوب في العالم فأنا لا أتخيل الرايات أو الاجتماعات أو الخطب الحماسية ، وإنما أرى ببساطة على كل فرع من فروع شجرة عجوزين يلعبان على مهل وفي اطمئنان لعبة « لا تغضب يا رجل » .

وبعد ظهور الأقاصيص الأولى لتشوبيتش أشار النقاد إليه باعتباره خليفة للأديب بيتاركوتشيتش المعروفة بأسلوبه الكوميدي الساخر ، وذلك في المقام الأول لأنهما من بلدة واحدة ، والاثنان من منطقة البوسنة والهرسك . وفي شبابه المبكر قرأ تشوبيتش الشعر الشعبي وتعلق بمؤلفات من سبقوه من الأدباء . وهو يعترف بتأثير بعض هؤلاء الأدباء عليه فيقول : كنت أحب الأديب تسانكر الحالم الذي لا يستسلم ، وكاهله ينوء بالأعباء الثقال . وقد أثر عليّ تسانكر بصفاته هذه وجذبني إليه بحبه الحزين للإنسان الذي يكافح ويعاني . وكان الأديب كوتشيتش الثائر في شبابه قريباً إلى نفسي من حيث شخصياته التي كان يصفها ، وكنت أعرفها حق المعرفة ، ولذلك فقد أحسست إحساساً عميقاً بثورته المتميزة ، وبثقته بنفسه وهو يقول : ثق بنفسك وبعقلك إذا كان لديك عقل . وقد ظللت واقفاً كالمذهول أمام الأديب كرليجا (من أشهر أدباء كرواتيا) كما يقف الحمل أمام الثعلب وهو كالبركان يحطم كل ما هو غير إنساني حولنا وفي نفوسنا . أما إيفو أندريتش فقد ظل ، بالرغم من كل شيء ، أقربهم إلى نفسي . وربما من أجل هذا بالذات يصعب عليّ أن أحدد أسباب ذلك . إنني أحب هدوءه المستقل الذي يقترب به من الناس ومن الحياة ، كما أحب صمته الكبير الواضح وكلماته الطيبة عن الإنسان ، عن أي إنسان ،

وأحب السكينة التى يقودنا إليها فى النهاية . وأحب قوله « وراء كل أمنية يأتى الموت ووراء كل بسمة يأتى السكون » .

واعتراف هذا الأديب بتأثيرات الأدباء الآخرين عليه يثير فى ذهنى قضية مهمة راهنة ألا وهى وحدة الفكر فى المناطق اليوغسلافية بالرغم من الحدود والحواجز التى تحصر كل أديب فى حدود منطقته الإقليمية الضيقة .

ويعترف تشوبيتش بتأثره بالأديبين الروسيين جوجول وجوركى الذين كان تأثيرهما حاسماً عليه بسبب إنسانيته المثابرة المناضلة التى لا تكل ، وبتشيخوف وزورشتشنك ، وبمارك توين وهاشيك وسرفانتيس وبابيل بفكاهتهم الفريدة .

ومما تتحتم ملاحظته أن الأديب برانكو تشوبيتش قد كتب قصصه الأولى فى الوقت الذى كان يتم فيه فى المناطق التابعة ليوغسلافيا سابقاً تأليف ما يسمى بالأدب الاجتماعى الذى كانت مهمته الأولى تصوير الحقائق المتعلقة بما يسود المجتمع من علاقات غير عادلة . وقد كان من المعتقد آنذاك أن هذه المهمة ضرورية وحتمية من أجل التقدم الاجتماعى . وكان كل أديب يمتلك ضميراً فى صدره وجذوراً فى حياة القرى أو المدن يشعر بأن أول نداء فى نفسه عليه أن يلبيه هو أن يسجل شهادات حقيقية عن العصر الذى يعيش فيه وعن المجتمع الذى ينتمى إليه . وكان تشوبيتش يحمل فى صدره وصية أمه بأن يقدم شهادة صادقة وصورة واقعية عن الوضع المحزن لسكان بلدته ، وهى البلدة الواقعة تحت سفح الجبل الذى يحمل اسم جرميتش .

ومن هنا خرجت إلى النورمجموعته القصصية الأولى حاملة عنوان « أسفل جبل جرميتش » (فى عام ١٩٣٨) ، وهى عبارة عن يوميات من سيرته الذاتية ، وهى يوميات متواصلة مثيرة للعواطف وحافلة

بالمعلومات المتعلقة بطفولته وبتعليمه وبعائلته وبأمه ، إنه كتاب جامع لمختلف الموضوعات . وتظهر البوسنة هنا وكأنها ميدان قتال كئيب يجرى فيه صراع مستمر مع الحياة التى لا تجد إلا خيوطاً رقيقة تمسك بها ، وهى أيضاً مكان شاسع يبرز فيه البؤس البشرى ولكن تتجلى فيه أيضاً العظمة البشرية الحقيقية فى أبهى صورها . وينصب تركيز المؤلف فى هذه المجموعة القصصية على موضوعين أساسيين ، فهو يتحدث عن الحياة الكئيبة الحزينة للقرى الجبلية فى منطقة البوسنة ، ويحكى عن الأزمان المقبضة التى يجرى فيها استغلال الفلاح العاجز الذى يتعرض بلا رحمة لمصائب هو ليس على استعداد لحملها أو التكيف معها . وموضوعه الثانى عن متشرد يتجول فى قرى ومدن البوسنة .

والساحر فى إحدى قصصه يسافر لفترة مديدة عبر المدن الصغيرة والقرى بالقطارات والسيارات الخانقة المكتظة وعبر الطرق المقفرة والأسواق الصاخبة . وخلال رحلاته يقوم بمهاراته السحرية وخدعه الجذابة المتنوعة . والحقيقة أن حياته كلها مؤلفة من الخدع . وهو يقوم بهذا التجوال الأبدى من أجل مجموعة من الخدع يحبها ويؤمن بها . وهذا الساحر المهرج ينتقل عبر مدن البوسنة النائية والخالية من الحياة ويشعر بحقيقة أن زمنه قد ولى وأن عليه أن يأتى بمسليات جديدة تثير اهتمام المشاهدين والمتفرجين .

وفى قصصه الأولى كان تشوبيتش أكثر عاطفية ورقة من بيتار كوتشيتش الذى تعد قصصه أكثر حلاوة وإيجازاً وحدّة والذى تحمل قصصه فى طياتها القوة البدائية للطبيعة الجبلية . وقد عالج تشوبيتش اعترافاته فيما يتعلق بتجارب الطفولة باعتباره شاعراً عاطفياً حساساً يحمل فى قلبه الكثير من الأحزان والآلام نتيجة لمعايشته للمصائب والكوارث . إنه يحزن ويتألم مشاركاً الفلاحين من بلدته ومنطقته أفراحهم وأتراحهم . إلا أن تشوبيتش فى قصصه ليس مناضلاً اجتماعياً يشرح

ثورة الفلاحين الخاضعين المنهوبين وثورة الأشخاص الذين قدر لهم أن يقاسوا ويعانوا وهم يسيرون فى الطرق الباردة الموحلة . انه يشهد بآلام ومعاناة الفلاحين وأولئك الأشخاص الذين تركهم المجتمع لقسوة مصيرهم السئ . ولا شك أن محور هذه المجموعة القصصية هو الحزن البسيط الخافت الذى يملأ القلب بالحنين والشفقة ويجعل العيون تحفل بالتفكير والحساسية .

ومن أطرف ما كتبه تشوبيتش تلك المجموعة القصصية عن نصر الدين خوجة الرومى وهو البديل لشخصية حجا العربى . وفى هذه المجموعة القصصية تتكشف أكثر فأكثر الموهبة الروائية العظيمة لدى تشوبيتش الذى أخذ يستلهم موضوعات وأفكار أعماله من المصادر الشعبية النقية . وهو هنا يصور شخصية نصر الدين خوجة حسبما يتصورها خياله وقلبه الشاعريان . ونصر الدين ، فى تصور تشوبيتش ، يعد رجلاً نبيلاً بشكل بدائى وفاعلاً للخير ومحباً للإنسان بالإضافة إلى أنه شخص حالم وخيالى ومثالى . وهو ليس متعصباً من الناحية الدينية وأخوه فى الوطن عزيز عليه أياً كانت ديانته ، وهو يعطف على الفقراء أياً كانت ملتهم . وهذا التسامح أمر مهم للغاية ومطلوب فى مجتمعهم هذا الذى توجد فيه قوميات كثيرة وأتباع لكل الديانات .

وفى هذه الأقاصيص عن نصر الدين خوجة الرومى يحكى لنا تشوبيتش عن الحياة المعاصرة وكأنه ينسج قصة أسطورية عريقة ، وفيها يعالج المُلح المشهورة عن نصر الدين بحرية شاعرية كاملة وبخيال لمّاح حتى يصل إلى فكرة مواجهة نصر الدين للبؤس وللمعاناة الإنسانية . وبعد أن تأكد نصر الدين من عجزه عن تنظيم الحياة حوله بمقتضى القوانين العادلة بهدف إنقاذ الإنسان من البؤس ومن المعاناة يترك العنان لخياله لكى يحلم ببلد سعيد مجهول وبعيد .

ومن العجيب أن هذه المجموعة القصصية لاقت الانتقادات بسبب مثاليتها « الدون كيشوتية » وذلك فى وقت اشتداد حدة الصراع الطبقى فى يوغسلافيا حينذاك خاصة وأنه كانت تتحدد فى ذلك الحين بشكل حاسم المهام الأساسية للثورة التى توشك أن تقع . إلا أن هذه المجموعة كانت ، من ناحية أخرى ، تحوى الطاقات الشاعرية لأسلوب تشوبيتش الروائى ولعاطفته الدافئة ولحبه للإنسان . وهذه الشاعرية لديه تنبع من قراءته للأساطير الشعبية ولمؤلفات سرفانيتس وإيفو أندريتش .

وتختلف القصص الموجودة بمجموعته القصصية الثانية التى تحمل عنوان « المناضلون والإرهابيون » (فى عام ١٩٣٩) عن مثيلاتها الموجودة بالمجموعة القصصية السابقة « أسفل جبل جرميتش » ، وفيها أضاف أموراً جديدة وزاد أسلوبه نضارة وحيوية . والشخصيتان الرئيسيتان فى هذه المجموعة هما الشخصية الأسطورية نصر الدين خوجة الرومى والفلاح مارتين . وتوجد بين الشخصيتين تشابهات واختلافات متميزة . فهما يتشابهان فى سعة الصدر وفى الدفء الإنسانى وفى حلمهما عن الحياة الساحرة الجميلة ، الحياة الأفضل والأكثر سعادة وبركة ، الحياة التى يختفى فيها الفقر والجوع . إنهما يتخيلان حياة أخرى غير موجودة ، حياة ليست إلا أمنية جوفاء وخيالاً زائفاً . وتسيطر على هذه المجموعة القصصية التدفقات الشعرية لليقظة وللخيال رغم أن الموضوع الأساسى فيها هو حياة الفلاحين بشقائها وبؤسها .

ويلفت النظر فى مجموعته القصصية الثالثة بعنوان « رجال الجبل » (فى عام ١٩٤٠) أن الشخصية الأساسية فى كل قصة من قصص هذه المجموعة عادة ما يكون رجلاً عجوزاً أو امرأة عجوز أو الإثنين معاً . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن وجودهما متعمق الجذور لفترة طويلة فى حياة القرية ، وهذا هو ما جعل الكاتب يعتقد أن الخبرة الناضجة والتجارب الحياتية هى الأنسب كموضوعات لأقاصيصه ، خاصة وأن

هذا الأمر موجود أيضاً فى الأساطير الشعبية . ومن النادر أن يظهر شاب فى هذه القصص والأندر من ذلك أن تتم فيها معالجة موضوع الحب ، ويعيش الناس فى هذه القصص فى وحدة أكثر من عيشهم فى جماعة ، وهم يعيشون فى عزلة حتى وهم فى جماعة وذلك بالرغم من أن هذه القصص تبرز أن أصعب شيء على نفس الفلاح ألا يجد بجانبه أحداً يفتح له قلبه ويسر له بهمومه . وأبطال هذه القصص يتحدثون مع أنفسهم ، ولكن حينما نتعمق فى موضوع الحوار فإننا نجده مخضباً ومصبوغاً بالحالة النفسية للفلاحين وبلغتهم الدارجة وبوصفهم للطبيعة .

وتقف القرية والمدينة فى مواجهة مشتركة فى هذه المجموعة القصصية كما هو الحال فى قصص الأدباء السابقين الذين كتبوا عن الفلاحين . وفى قصة « قوة جوران » يبرز بشكل جلى إيمان المؤلف بقوة الفلاح وكذلك إيمانه بتفوق هذه القوة على قوة رجل المدينة . فالفلاح جوران هبط من تلال جرميتش إلى المدينة وسرعان ما تملكه الارتباك والاضطراب ، وكان عليه أن يبتعد عن طريق أى إنسان . وشعر بالذهول والضياع بسبب زحام وضجيج المدينة التى عانى فيها من الذل والتشتت . ويثور غضبه ويعود إلى قريته الجبلية والمعتمة وتعود له قوته ويقسم بأنه سيظل على أرضه القوية حتى بعد أن تزول المدنية من عليها .

ولم يصف المؤلف فى هذه المجموعة القصصية ما يقع فى القرية من أحداث مفجعة مثل الصراع المهلك للفلاحين ، سكان الجبال ، فى مواجهة الظواهر الطبيعية الثائرة . وبالرغم من ذلك فإن إحدى أفضل قصصه ، التى بمقتضاها حصلت هذه المجموعة القصصية الثالثة على عنوان « رجال الجبل » تدل على أن جبل جرميتش لم يكن فحسب عرضاً بالألوان أو تجربة عاطفية بل إنه جبل فظ يبتلع حياة الإنسان . فها هو الفلاح العجوز قد فقد اثنين من أولاده فى ليلة شتاء حينما ثارت العاصفة

فى الجبل ، ولا يستطيع أن يستسلم لحقيقة أنه لن يرى ولديه أبداً بعد ذلك . إنه يقبع منتظراً معجزة تعيد له ولديه ، وفى هذه الأثناء يسيطر عليه تصديقه للحكايات والأساطير المتعلقة بالعودة المفاجئة للضائعين والتائهين فى مختلف الحوادث والمصائب .

وكان تشوبيتش يميل لأن يرى فى الناس خيارهم قبل أشرارهم نظراً لحساسيته تجاه أصحاب المصائب وتجاه من يعانون . والشاعر القروى المازح « جورو » فى هذه المجموعة القصصية يمثل تجسيداً للجوانب المضيئة فى الطبيعة البشرية . والقروى « جورو » يؤمن بقوة الطيبة والخير فى العالم بقلبه الساذج البسيط ، وكان هذا الإيمان موجوداً أيضاً فى قلب الأديب الشاب برانكو تشوبيتش الحساس ذى المشاعر المرهفة . وبالإضافة إلى تصويره لمصائب ولبؤس الفلاحين فقد كان ميالاً إلى الزهو والحماس إلى القارئ بأسلوب سلس مبسط كما كان الرواة والقصاصون الشعبيون ينقلون مثل هذا الحماس إلى مستمعيهم حينما كانوا يرتجلون تأليف حكايات خرافية ساذجة وبريئة عن الحياة وعن الناس .

وفى تلك الفترة التى تمكن فيها الغزو الفاشى من اجتياح يوغسلافيا كان تشوبيتش منضماً إلى كتيبة من التلاميذ المناضلين الموجودين بمدينة ماريبور فى منطقة سلوفينيا ، وكانت هذه الكتيبة تقاتل المحتل الألمانى بمختلف السبل والإمكانات المتاحة . ولما عاد تشوبيتش إلى قريته تم القبض عليه واقتيد إلى مكان مخصص لتجميع أهل البلدة تمهيداً لإعدامهم . وقد أنقذهم من الإعدام مدرسه السابق الذى كان من المتعاونين مع المحتل . وعلى إثر ذلك سرعان ما انضم تشوبيتش إلى كتائب المناضلين من البارتيزان . ويحكى تشوبيتش عن هذا الحدث فى مقدمة ديوانه « الميلاد الملتهب للوطن » بقوله أنه كان يشاهد رأى العين أفراد البارتيزان وهم يكافحون ويستبسلون فى بطولة ويلقون مصرعهم فى

شجاعة إلى أن يتحقق النصر فى النهاية . وأراد تشوبيتش أن يسجل ذلك فأخذ يقرض الشعر عن كفاحهم واستبسالهم وانتصارهم . وقد نشر هذا الديوان لأول مرة عام ١٩٤٤ فى المنطقة المحررة من كرواتيا .

ويروى تشوبيتش فى قصة « السارق » التى يتحدث فيها عن سيرته الذاتية أنه بدأ يكتب لكى يحافظ على الكثير من الحقائق والأمور ، والأهم من ذلك لكى ينساها . وبالفعل لولا ما سجله تشوبيتش لما كان هناك ذكر للأشخاص الذين عاش وقضى معهم أكثر الأيام شدة وصعوبة وأشدها حسماً لا بالنسبة لحياته هو فحسب بل ولتاريخ يوغسلافيا كله . وبعد أن حول تشوبيتش تجاربه وخبراته فى الحياة إلى كلمات ذات أجنحة سمح لها بالطيران إلى جهات الكون الأربعة ، وبذلك تخلص من هذه التجارب إلى الأبد . وكان تشوبيتش يريد بذلك أن يحتفظ بذكرى عن أهل بلده الذين كانوا يعيشون حياة بائسة شاقة على أرض فقيرة بعيداً عن منجزات الحضارة وهم يهربون فى الأغلب إلى الأحلام القاتمة أو إلى صفحات التاريخ الباهتة . ولكنه أراد فى الوقت نفسه أن ينسى اللحظات التى آلمته كأديب وآلمت أهل بلده .

واستناداً إلى ما تعلمه من الأديبين بيتار كوتشيتش وإيفان تسانكر من عدم الرضى بالحياة البائسة لأهل بلده ومن إدراكه لمحاولات إيفو أندريتش التوصل إلى بعض المبادىء المسالمة الحكيمة فى عالم يسوده البرود والمعاداة والاستغلال الاجتماعى فقد أفاض تشوبيتش منذ سنين من خلال قصصه الأولى فى سرد الكثير من الأمور والحكايات التى كان الناس من حوله يشعرون بأنها هَم على قلوبهم وعبء على صدورهم . وكان يسود أسلوبه القصصى الكثير من النغمات الحزينة بحيث انه كان من العسير التنبؤ بأن هذا الكاتب سيقف بفكاهيته فى الصفوف الأولى لكتّاب هذا اللون من الأدب .

وقد أفصح تشوبيتش عن رأيه فى الأدب فى كلمات وجهها إلى قرائه من الناشئة ذكر فيها أن مهمة كل أدب حقيقى هو أن يضفى على الإنسان صفة النبل وأن يجعل الحياة أكثر جمالاً وأعمق مضموناً . والأدب فى رأيه مدعو إلى أن يلهم الإنسان وأن يحفزه لأداء الأعمال العظيمة والمآثر البطولية . وقد تأكد هذا الرأى فى مؤلفات تشوبيتش بما وجده النقاد فيها من نغمة تربوية واضحة . وقد حاول تشوبيتش أن يؤثر دوماً بمؤلفاته الأدبية تأثيراً إيجابياً فى المجالين الاجتماعى والأدبى . ولا شك أن أدبه يخدم بنجاح شديد هذا الهدف العملى . ونجح هذا الأديب الكبير فى أن يبدع مؤلفات أدبية مهمة لا من حيث قيمتها الجمالية فحسب بل وأيضاً من حيث قيمتها الأدبية والاجتماعية .

وكان أول عمل روائى لتشوبيتش هو رواية « الانهيار » (فى عام ١٩٥٢) . وفيها عالج موضوعاً ملحمياً ضخماً من حرب التحرير الشعبية فى يوغسلافيا . وهو موضوع مكتظ بالمشاكل المعقدة المتشابكة . وقد أخذ على عاتقه فى هذه الرواية أن يصور ثورة الفلاحين فى أحد الأماكن المتخلفة بمنطقة البوسنة . وكانت الثورة فحسب هى القادرة على حل تلك العقد التى تشابكت فى حياة هذه المنطقة ، وهى عقد تقوم على الأوهام والخرافات بسبب عدم التسامح الدينى والقومى وبسبب الكراهية المتعصبة . وتتابع هذه الرواية عملية نمو الثورة فى جميع مراحلها ومساراتها وتطوراتها المتباينة .

والحقيقة التى لا نستطيع إغفالها أن القيمة الكبيرة لهذه الرواية تتمثل فى قدرة تشوبيتش الموهوبة على وصف تخلف الفلاحين بواسطة القوى الاجتماعية المستغلة والمستعبدة . وقد استغل قدرته الروائية الخبيرة من أجل التعمق فى نفسية الفلاحين البدائيين وفهم أوضاعهم فى بدايات الثورة ، ومن أجل معرفة أسباب خلافاتهم ودوافع ترددهم . كما أن الرواية تقدم صورة للحالة النفسية لأفراد الشعب ولتلك القيادات التى

تحركه والتى تصل إمكاناتها فى وقت الحرب إلى حد البطولة والأعمال العظيمة .

وفى هذه الرواية أوضح تشوبيتش أن الثورة فى أساسها لم تكن حرباً ضد العدو وأتباعه فحسب بل وحرباً أيضاً ضد التخلف وضد اليأس وضد طباع الذئاب . وتمكن تشوبيتش من أن يصور الأمور المعوقة للثورة ومنها تلك الأوهام التى كانت تثير الانقسام وتهدد ببذر بذور الخلاف بين الفلاحين الخائفين . كما صور انحسار التيار المعارض للثورة . ومن المؤكد أن أكبر نجاح لهذه الرواية هو تقديمها لصورة حقيقية عن ثورة الفلاحين . وهى صورة نابعة من الحياة مباشرة . وقد توصل إلى هذا النجاح عن طريق عرضه لمختلف مراحل غليان الثورة وبالتصوير الطبيعى للأحداث التى تنجم عن أوضاع القرية المتميزة وبالتطوير المتشابك لموضوع الرواية ، التى تحتل فيها القرية مكاناً قيادياً بسبب دورها العظيم فى تدعيم الثورة وانجاحها .

وبإعتبار تشوبيتش من أفراد البارتيزان المناضلين فقد تمثل بشعراء الملاحم وأخذ يتغنى بالنضال البطولى لآلاف الأبطال والمناضلين المجهولين من أجل الحياة ويتغنى بجهودهم المبذولة من أجل خلق حياة جديدة ستختلف فيها الأمور وتصبح أفضل من سابقتها . ولكن فى الفترة التالية للحرب حقق تشوبيتش نجاحاً عظيماً فى مجال الفكاهة ، وشرع يوجه ضرباته الفكاهية وملحه الطريفة إلى مختلف نقاط الضعف فى المجتمع مثل البطولة الزائفة والسعى إلى الوصول إلى العائد السريع والفائدة السهلة والرغبة فى العيش بسهولة وبلا كد أو تعب ، ومثل تعمق جذور البيروقراطية والابتعاد عن جماهير الشعب من جانب أولئك الأشخاص الذين كانوا حتى الأمس ينتمون إليه إنتماءً كاملاً ، ومثل عدم حسن التصرف فى ظروف الحياة الجديدة وعدم القدرة على إدراك أنه لا يتم حل مشكلات الحياة ومعضلاتها بالأعمال البطولية وإنما بالعقل

والحكمة وما إلى ذلك من نقاط ضعف . وكان تشوبيتش فى ذلك الحين فى مفترق الطرق بين الفكاهة والسخرية . وبعض قصصه الساخرة مازالت حتى اليوم تحتفظ بحيويتها وفعاليتها ، ومن المرجح أنها ستحتفظ بهما إلى ما بعد ذلك . والمجتمع يحتاج إلى الكاتب الساخر احتياجاً شديداً باعتباره داعية للتقدم . إلا أن ظروفاً خارجية أخرى أجبرت تشوبيتش على الاتجاه إلى مجال الفكاهة بحيث أصبح أشهر أديب فى هذا المضمار .

ووجد تشوبيتش فى الفكاهة سنده ومتنفسه باعتباره أديباً للفقراء والبؤساء والتعساء ، وباعتباره كذلك شاعراً لأفراد الشعب البسطاء فقد أفاض فى استخدام الفكاهة محولاً إياها إلى سلاح للفقراء يصوبه تجاه هؤلاء الأفراد الذين يبتعدون عن الشعب . ولم يسلم صغار الأشخاص من هذه الفكاهة فقد أخذ يسخر من أحداثهم ومصائبهم دون أن يخفى حزنه عليهم ومواساته لهم .

وفى روايتى « لا تحزن أيها الحرس البرونزى » و « الهجوم الثامن » أخذ تشوبيتش يسخر من أهل بلده ومن رفاقه فى النضال الذين كانوا يتعسرون فى تكيفهم مع العهد الجديد ويظلون رغماً عنهم على وفائهم للطباع والتقاليد القديمة ولارتيابهم فى كل ما يعرض عليهم . وهنا تحل الشفقة محل الكوميديا ويتمزق الرداء المقدس للكلمات الكبيرة وتظهر من جديد الحياة اليومية البسيطة التى تتطلب طاقات جديدة .

وحينما يرسم تشوبيتش لوحاته فإنه يصبح فى الحقيقة مثل صانع الفسيفساء يجمعها من كثير من الأجزاء الصغيرة . وأفضل قصصه هى التى لا تزيد على ثلاث أو أربع صفحات وكل كلمة بها فى مكانها ، والطرفة أو صورة الشخصية خالية من الخطوط الفكرية الزائدة .

وتشوبيتش ، مثله مثل كبار الأدباء ، ليس أديباً إقليمياً ، ويوجد فى بلدته الكثير من الأمور المتميزة الخاصة بمنطقة البوسنة مثل الحياة

المشتركة للأشخاص ذوى الديانات المختلفة وتقاليدهم وقومياتهم وطباعهم ، ولكن يوجد بها على الدوام شيء إنسانى عام .

وامتلك تشوبيتش قدرة فائقة على اكتشاف الموضوعات والشخصيات دون كلل أو ملل . ونجح فى مؤلفاته فى الربط الناجح بين الفكاهة والعاطفية وبين الواقع والأحلام ، وبين الحزن الواقعى الرومانسى والوصف التصويرى ، وبين الألحان الموسيقية والتسجيلية والأسطورية . وإنه ليصعب للغاية وضع حد فاصل ، فى مؤلفاته ، بين المحزن والفكاهى ، وبين الفكاهة والجد ، وعلى الأخص بين الأدب المخصص للنشء والأدب المخصص للكبار من القراء .

بيد أن هذه القدرة على تأليف الموضوعات وابتداع الشخصيات والمواقف دفعت ، فى أغلب الأحوال ، تشوبيتش إلى الكتابة السهلة السريعة دون مراعاة الانتقاء والتمحيص . وكان يكرر نفسه فى الموضوعات التى يحولها إلى شكل أدبى آخر ، أى أن يحول القصيدة إلى قصة أو أن يحول قصة للنشء ليجعل منها قصة للكبار ، أو أن يحول القصة إلى سيناريو فيلم وما إلى ذلك . ولا ريب أن سهولة الكتابة وتسرعه فيها دفعته إلى الكتابة بأسلوب « ريبورتاجى » وأضعفت من تعمقه فى نفسيات شخصياته وجعلته يهبط أحياناً بفكاهته إلى مستوى رجل الشارع العادى .

إيفو أندريتش

يقوم النشاط الأدبى على عناصر عديدة وعوامل شتى ، وقد نتعرف على بعضها ولكن ليس بمقدورنا أن نطلع عليها كلها أو نتبينها جميعها . وأزعم – ولعلى أكون محقاً فى ذلك – أن لكل أديب جانباً آخر ، وربما جوانب أخرى ، يجهله الكثيرون وقد لا يعرفه إلا القليلون . ومن المرجح أن هذا الجانب الآخر يشكل فى كثير من الأحيان العامل الجوهرى المؤثر فى ممارسة الأديب لعملية الكتابة وفى كتاباته نفسها . وهذا الجانب الآخر من حياة أى أديب يعتبر فى أغلب الأحوال مفتاحاً للأمور الغامضة فى مؤلفاته وللرموز الملتبسة على الفهم فى كتاباته وللقضايا المستعصية على الإدراك فى أعماله الأدبية .

ويمكننا دون أدنى تردد أن نؤكد وجود نوع من العلاقة السرية الخفية بين الأديب وبين بيئته التى ينتمى إليها ويعيش على أرضها ويتنسم نسيمها وبالتالى يتأثر بها ، ومن ثم توجد تأثيرات لهذه البيئة – بمعناها الشامل – على ذلك الأديب الذى يعيش بين جنباتها ويتطبع بطبائعها . ومما لا شك فيه أن كل هذا يؤثر على الأديب وعلى قلمه وينعكس على كتاباته . فلكل بيئة من البيئات سماتها وخصائصها ومزاياها التى تنفرد وتتميز بها عن سواها من البيئات . وتلك السمات والخصائص هى التى توجه الحياة الأدبية للكاتب وتؤثر فى مسارها وسيرها ، وتبعاً لإختلاف وتمايز هذه السمات المادية والمعنوية تتباين العلاقة بين الأديب وبيئته . وإذا أردنا توضيحاً لهذه العلاقة الخفية بين الأديب وبيئته فلابد وأن نسلط الأضواء على الجانب الآخر من حياة الأديب وأن نبرز ما خفى من أسرارها

وجوانبها وتفصيلاتها صغيرة كانت أم كبيرة ، وبعد ذلك نقوم بالربط بينها وبين أعماله الأدبية .

وحينما ولد الأديب المعروف إيفو أندريتش (١٨٩٢ – ١٩٧٥) بقرية دولاتس فى جمهورية البوسنة والهرسك كان والده عاملاً حرفياً بسيطاً يقوم بصنع الطواحين اليدوية للبن ، بيد أنه سرعان ما اختفت اختفاءً تدريجياً هذه الحرفة تحت وطأة الظروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة الناجمة عن الاحتلال النمساوى المجرى لهذه المنطقة . وسرعان ما تكيف والده مع الظروف والأوضاع الجديدة وإلتحق بإحدى الوظائف المكتبية وظل يكد ويكدح بكل ما أوتى من قوة لكى يقيم أوده ، وكان هذا هو السبب فى وفاته المبكرة . وانطبع هذا الشريط من الذكريات المؤلمة فى ذهن أندريتش الصغير ، ومن ثم فعند بلوغه أصبح – أسوة بأبيه – يتكيف مع كل الظروف والأوضاع مبتعداً عن السياسة ودروبها الشائكة .

وعند وفاة والده لم يكن إيفو أندريتش قد تجاوز السنتين من عمره فقام أقاربه بمدينة فيشيجراد برعايته إلى أن أتم دراسته الإبتدائية . وحاصره الفقر وأحاط به ، ولم يكن هناك القدر الكافى من أى شىء فى منزله . ولم يكن يملك كتاباً واحداً بإستثناء بعض الكتب المدرسية . ولم يتغير أبداً طريقه فى الذهاب من المنزل إلى المدرسة ، وكان يعرف تمام المعرفة الأشخاص الذين سيلتقى بهم عند كل ناصية ، ويعرف الأماكن التى سيضطر فيها إلى التوقف .

ففى أيام الصيف وكذلك فى أيام الشتاء ، ما بين لسعة الشمس وقطرات المطر ، كان يلتزم بالتوقف أمام واجهة إحدى المكتبات حيث يتم بها عرض مختلف أنواع الكتب التى لم يكن يفهم تمام الفهم كل عناوينها . ولا ريب أن هذه الواجهة للكتب تركت فى نفسه أثراً بالغاً وإمتد أثرها حينما بلغ من العمر أشده .

وفى المساء حينما كانت تضاء أضواء هذه الواجهة بكتبها كانت تجذب انتباهه وتشد نظره . وحينذاك والأضواء مسلطة بهذا الشكل الرائع على الكتب كان يبدو له أنها أكثر جمالاً وبهجة وأن عناوينها أكثر سحراً وجاذبية ، ومن شدة هيامه بها كان يراها فى أحلامه . وفى كثير من الأحيان ، فيما بعد حينما أصبح شيئاً مذكوراً فى الحياة ، كان يضبط نفسه متلبساً بالوقوف أمام هذه الواجهة القديمة بكتبها العزيزة على نفسه ويطيل النظر إلى عناوينها العجيبة الغامضة وتبهره أغلفتها الرائعة فيظل يحملق فى حب استطلاع وانبهار إلى جميع الكتب المرصوصة فى هذه الواجهة . إلا أنه فى قرارة نفسه كان يشعر بألم مرير يعتريه من أشد الآلام التى حملها بين جنباته كذكرى من تلك الأيام الخوالى ، ذلك لأنها كانت تزيد من إحساسه بالفقر ، أى الافتقار إلى إمكانية الوصول إلى ذلك الذى يتمناه المرء ويشتاق إليه أشد الاشتياق . وخلال مشوار حياته لم يكن الفقر يمثل عبئاً خاصاً فى أعماق نفسه ولكنه آنذاك ولأول مرة أحس به إحساساً عميقاً بكل قلبه وعقله . لقد كان الفقر حاجزاً لا يمكنه تجاوزه يفصل بينه وبين هذه الكتب الحبيبة إلى روحه ، ورويداً رويداً أخذ يدرك الفرق بين معنى الامتلاك من عدمه .

ويبدأ خياله ينشط ويلتهب أمام هذا الحاجز الخيالى ، وفى هذه اللحظة المصيرية شرع فى الكتابة لأول مرة . ولم تكن الكتابة بالقلم أو على الورق ، وإنما داخل نفسه وفى أفكاره وخياله . وذلك لأنه كان يقدم لنفسه تفسيرات وإيضاحات وشروحاً لهذه العناوين العجيبة الغامضة التى كان يحفظها عن ظهر قلب رغم أنه لم يكن يفهم معناها ، وكان يؤلف فى خياله محتويات هذه الكتب . وفى الحقيقة كان يحاول جاهداً أن يثير فى أعماق نفسه سحر وبهاء هذه الحياة التى كان يحياها وتخفى عنه تلك الكتب . وهنا نبعت وتوالت أفكاره الأولى ، وهنا تولدت - ربما فى عقله الباطن - فكرة أن يشتغل بالكتابة . من هنا أيضاً نشأت أقاصيصه الأولى غير المكتوبة ورواياته غير المسجلة .

ومضى به الزمان واختفت هذه الواجهة من مكانها منذ فترة بعيدة ولكنها بالرغم من ذلك تعيش فى ذاكرته ومازال يتذكرها بوضوح ويرى نفسه وهو واقف فى خشوع وإعجاب أمامها . ورغم أنه منذ ذلك الحين وحتى الآن تصفح بيده الكثير من الكتب ومكث مع بعضها أياماً وليالى ، وكثير من هذه الكتب أصبح من أفضل أصدقائه وكتب بعضاً منها ، إلا أن هذه الواجهة المكتظة بالكتب المحفورة فى ذاكرته من أيام صباه البعيدة مازالت تعيش بلا انقطاع داخل نفسه وتتبعه أينما كان .

واشتغل إيفو أندريتش فى كنف أمه بقطع الأشجار حتى يلبى احتياجاته ويفى بحاجات أمه بعد وفاة عائل الأسرة ، إلا أنه لم يستمر فى هذا العمل لفترة طويلة نظراً لما تملكه من احساس بالتشاؤم والحزن . وسرعان ما تحسنت أحواله عندما أصبح شاباً وأخذ يسعى وراء العلم وأنهى دراسته الثانوية فى سرايفو ثم واصل سيره الحثيث نحو الحصول على التعليم العالى . وبصعوبة بالغة تمكن من إتمام دراسته فى كليات الآداب بزغرب (بكرواتيا) وفى فيينا (بالنمسا) وفى كراكوف (ببولندا) حيث تخصص فى علوم التاريخ وفى اللغات السلافية . وتوج كفاحه فى مجال التعليم بحصوله على درجة الدكتوراه فى عام ١٩٢٣ من جامعة جراتس ، وكان موضوع رسالة الدكتوراه « الحياة الفكرية فى البوسنة والهرسك فى عهد الأتراك » .

ومن المؤكد أن الحرب العالمية الأولى من العناصر الحاسمة التى أثرت على شباب إيفو أندريتش إذ أنها أصابته بالكثير من المحن ، إلا أنها أفادته أيضاً أيما إفادة كما اعترف بذلك . اعتبرت السلطات النمساوية المجرية المحتلة أن اتصاله بالشباب المتمرد الثائر يعد استفزازاً لها . وتم فى أحد الأيام القبض عليه . وكان هذا أمراً خطيراً للغاية آنذاك ، فلم يكن حتى ذلك الحين يتم القبض إلا على المجرمين واللصوص . ومن المعلوم من هم الأشخاص الذين يمكن القبض عليهم وأسباب ذلك . وبدا

لإيفو أندريتش آنذاك أن مجرد التواجد فى السجن ليس إلا نهاية لكل شىء ونهاية الحياة بأسرها . ولم يكن على السجين إلا أن ينتظر فحسب الوقت الذى سيأتى فيه السجانون لكى يقتادوه إلى غرفة الإعدام .

وحينما وجد نفسه فى الزنزانة لم يفكر إلا فى الموت . وهو لايزال يتذكر الزنزانة رقم ١١٥ وخوفه الذى لا يوصف . وإقتاده السجان فى ممر طويل حسب أنه لم ير فى حياته ممراً أطول منه ، لقد بدا له أنه ممر بلا نهاية . وفجأة توقف السجان أمام أحد الأبواب وصاح بشىء ما باللغة الألمانية . وصياحه جهورى وكأنه يقف أمام عدد غفير من الناس رغم أنه لم يكن هناك أحد سواه وسوى سجينه إيفو أندريتش . وانفتح باب الزنزانة ودخل إيفو وصفق السجان الباب وراءه وأصبح وحيداً ليس له من رفيق إلا خوفه الكبير . وفى الزنزانة ومع الوحدة والخوف أخذ إيفو ينظر فجأة إلى يديه ويتأملها ويتعرف عليها . وتأكد فى البداية ، وهو غاية فى التعجب ، أنه لم يكن يعرف جيداً يديه ولا كفيه ولا أصابعه ولا أظافره . وراح يطيل النظر إلى يديه ويسرح بفكره ويشرد ويهيم بذهنه أثناء النظر إلا أن بصره يعود ويحدق ثانية فى اليدين وفى الأصابع . ولم يكن وقتذاك يفكر إلا فى الشمس ويتساءل عبر الظلام الذى يحيط به فى هذه الزنزانة : هل الشمس موجودة أم لا ؟ .

وكانت فرحته عظيمة فى هذه الحياة المحصورة بين الجدران الأربعة للزنزانة والمحاطة من كل ناحية بالحيرة والخوف حينما وجد نفسه أمام المحقق الذى كان شاباً نمساوياً من أهل مدينة فيينا . وخلال حديث المحقق مع أندريتش ذكر له شيئاً لم يكن بمقدور أندريتش أن يصدقه فى البداية ، إلا أن هذا الشىء غيّر فيما بعد حياته تغييراً جذرياً . فقد ذكر له بأنه سيسمح له بأن يطلب من بيته بعض الملابس الأكثر دفئاً وبطانية وبعض الكتب . وطلب أندريتش من الرسول الذى سيحمل رسالته أن يجمع له كل الكتب التى يجدها على مكتبه . وبالفعل أرسلت له صاحبة

المسكن بطانية وشرابات وبضع تفاحات جميلة وحلته الجديدة وكتاباً واحداً .

وتذكر أندريتش أنه فى اليوم السابق للقبض عليه رتب غرفته ووضع كل شيء فى مكانه لأنه يحب النظام . وهكذا لم يكن موجوداً على مكتبه إلا كتاب واحد هو ذلك الكتاب الوحيد الذى وصل إلى يديه . وبعد حصوله على هذا الكتاب الوحيد الذى وصل إلى يديه . وبعد حصوله على هذا الكتاب الوحيد أحس فجأة بإختفاء خوفه الذى لا يوصف ، وبدا له أنه قد أخذ يواصل الحياة من جديد . وكان هذا الكتاب للفيلسوف الدانيماركى « سورين كيركيجارد » والأديب الفرنسى « جيل فيرن » . ومن الطبيعى أن يقرأ أندريتش هذا الكتاب عشرات المرات فى سجنه هذا الذى إمتدت إقامته به لمدة عام كامل ، ومن المنطقى أنه تأثر به إيما تأثير .

وهكذا نرى أن أندريتش قد جابه بكل صبر وشجاعة تلك المحن التى واجهته فى شبابه ، وكان يدافع عن نفسه وعن روحه ويحميها من الدمار بالعمل المستمر الدؤوب وبالقراءة والدراسة واكتساب صنوف المعرفة . وقد سجل أندريتش أحداث هذه الفترة وأهميتها بالنسبة لحياته الأدبية ولكتاباته وآرائه فى بعض هذه الأحداث فى كتابين هما : إكس بونتو (فى ١٩١٨) والقلق (فى ١٩٢٠) .

وديوان « إكس بونتو » نسبة إلى ديوان « رسائل إكس بونتو » للشاعر اللاتينى أوفيدا الذى تغنى بها فى منفاه بمدينة بونتو على شاطيء البحر الأسود . وقد كتب هذا الديوان فى فترة اعتقاله ويتضمن تعبيراً عن آلام النفس والقلق فى السجن والوحدة . إنه بالفعل حديث الروح .

والإحساس بالوحدة إحساس مسيطر على أشعار إيفو أندريتش الأولى ولنقرأ منها الأبيات التالية :

إننى لا أعرف إلى أين تذهب أيامى هذه
ولا إلى أين تذهب ليالى هذه
لا أعـرف ...

*** * ***

من سيقول لى الليلة : ماذا تعنى بالنسبة لى
الوجوه والأمور وذكريات الأيام الخوالى
وإلى أين تمضى أيامى هذه ؟
ولمـاذا يدق قلبى كل هذا الدق ؟
إلى أين ؟ ولمـاذا ... ؟

وفـى ذلك الحيـن كانت أشعـار الأمريكـى « والت وايتمـان » (١٨١٩ - ١٨٩٢) تكشف أمام شباب الشعراء الجديد من الموضوعات ومن العوالم الشعرية ومن لغة الشعر . وفـى هذه السنوات كان أندريتش يقوم بترجمة مؤلفات الأدباء سترندبرج ووايتمان ومؤلفات الشعـراء السلوفينيين . وكان الشعراء يبحثون فى أشعارهم ، كما فعل وايتمان ، عن مفتاح الكون والمستقبل . إلا أن المستقبل كان يمنح الجيل الشاب آمالاً مظلمة . وكانت صورة الموت تحوم فى الجو الذى يحمل بين ذراته تنبؤات عن مآسى بشرية ضخمة . وكان الشاعر الشاب أندريتش ينطوى على نفسه ويعرب فى أشعاره عن الحالات النفسية الكئيبة المقبضة . وأخذ هذا الجو الشاعرى الذى يحمل الضباب والتشاؤم والقلق يسيطر على الأدب باللغة الصربوكرواتية .

والجزء الأول من أشعار ديوان « إكس بونتو » كتبه أندريتش فى السجن ، أما الجزأين الثانى والثالث فقد كتبهما بعد إسترداده لحريتـه النسبية ، أى كانت إقامته محددة ، ومعرض لرقابة السلطات وعدم ثقة الناس من حوله . « ها أنـذا منذ أحـد وعشريـن يوماً حر وبمفـردى

باستمرار .. وبلا انقطاع أتأمل التغير والتفتح ، ومع ذلك لا يمكننى أن أتجنب التفكير فى الناس » .

والوحدة التى كانت تؤرق أندريتش فى السجن تعد محتملة بالنسبة له فى هذه الحرية النسبية . انه يتقبلها كمحنة من محن حياته الشخصية ، ويعبر عن ذلك بقوله : « كل مأساة حياتى الحالية يمكن حصرها فى كلمة واحدة : الوحدة » . وفى رأيه أن الصمت هو الملجأ من كل الاضطرابات النفسية فيقول : « أنا الذى أعيش بمفردى أستمع هذه الليلة للسكون فوق المزارع . والمحنة التى سلبت منى كل شىء منحتنى هذا السكون حتى يكون حامياً لى فى مواجهة الناس . وفى هذا السكون كل شىء ملكى : إيمانى الذى جرى انقاذه من كل هذه الهزائم وسرورى الوحيد وأملى » . ويقول فى مكان آخر : « أخذت أركز أفكارى وأنا محاصر بعالم غريب عنى ويتملكنى قليل من حسن النية وأحسست أننى وحيد ومهجور ، وحيد تحت السماء الكبيرة اللامبالية خارج كل مجتمع كما كنت أعيش على الدوام ، لا تحمينى أية امتيازات طبقية ، بلا مهنة وبلا مستقبل وبلا أقارب وبلا أصدقاء يمكن أن يساعدونى . وحيد ومطارد وعليل ، ولكن حسن أننى على هذه الحال .

وفى المجموعتين الثانية والثالثة من هذه الكتابات يتم شفاء أندريتش من فكرة الانتحار التى نشأت تحت تأثير الضربات المؤلمة الناجمة عن حرمانه من الحرية وما زالت روحه الحساسة تمزقها أحاسيسه الداخلية السوداء واضطراباته النفسية المؤلمة ، ولكن تعزيه فكرة أن الأرض كلها مسكونة ومليئة بالأشكال والمخلوقات وببذور الحياة ، وأن الحياة أكثر قوة ومقاومة من الموت .

ويمكن القول أن إيفو أندريتش قد برز فى مجال الأدب بثلاث قصائد نشرتها له مجلة « حورية البوسنة » ، وهى تتضمن قصائد كلها نبرة

تشاؤمية . فهو لم يكن بعد قد بلغ من العمر عشرين عاماً وها هو يشكو من حياته . إلا أن هذه الشكاية من الحياة كانت خطأ مشتركاً لدى كثير من الشعراء الجدد الموجودين فى ذلك الحين وكان يتم أيضاً نشر أشعارهم بنفس المجلة تحت عنوان « من شعر الشباب » . وقد أعيد طبع هذه القصائد ضمن كتاب « الشعر الكرواتى للشباب » فى زغرب فى عام ١٩١٤ وحوى كذلك قصائد لزملائه من الشعراء الجدد . وتم التقديم لكل شاعر بإعطاء نبذة موجزة عن سيرته وعن أعماله مع رسم صورة كاريكاتيرية للشاعر بهدف تقريب شخصيات الشعراء إلى القراء . وكان هذا التعريف يتسم بخفة الروح مع احتوائه على الكثير من الدعابات والطرائف . ومما ذكر فى هذه النبذة عن أندريتش أنه شخص عجيب من سكان مدينة سرايفو ، لم يرث عن الأتراك العثمانيين طباعهم ، بياضه رقيق ونفسه تتنسم بعبير قاتم مؤلم وكأنها أشبه بتلك الأزهار البيضاء التى تتلألأ فى حزن ، إنه أشبه بأمير بلا قصور ولا نبلاء ولا أميرات . وهو فى الشتاء يتنسم عبير المقاهى وفى الربيع يعالج نفسه من هوائها الفاسد بتنسم الهواء النقى فى الرياض الخضراء . وهو بائس مثل جميع الأدباء ، حساس وطموح ، باختصار لديه مستقبل .

وبعد الحرب العالمية الثانية أصبح أندريتش أديباً مستقلاً ، وقد قضى سنوات حرب التحرير فى بلغراد مبتعداً عن كل دعاية . وكانت كل مشاعره وحواسه وآرائه فى صف الشعب ونضاله الثورى التحررى ، وأصبح هذا هو موقفه الثابت . وبانتصار ثورة الشعب وجدت فيه الثورة خير نصير . ويمكن القول بأن الثورة الاشتراكية اليوغسلافية قد أجرت فيه ، كما حدث لغيره من الأدباء ، تحولاً واضحاً فى الآراء وفى نظراته للحياة وإلى العالم . ويتجلى تأثير الحرب على أندريتش فى قلقه النفسى وفى دقة مشاعره وأحاسيسه وصبره الفطرى ، ويظهر ذلك على أحسن صورة فى أعماله الشعرية كما بيّنا .

وفى قصته الأولى « طريق على جريزليند » (فى ١٩٢٠) تظهر ملامح وخصائص أندريتش فى كتابة القصة . ومن خلال بطل القصة ، هو شخصية إسلامية بطولية ، عرض لأروع شخصيات الشعر الملحمى الإسلامى للبوسنة . إنه بطل جسور يخشاه الجميع ولكنه يصبح مثيراً للضحك حينما يريد أن يغزو قلب امرأة . والسؤال الذى يطرحه البطل على نفسه : كيف لا يمكن أن يصل إلى ما يصل إليه كل وغد محتال ؟. وفى هذه القصة حدد أندريتش أسلوبه الأدبى الثرى ويتمثل فى استلهام الموضوعات والأفكار اللازمة لمؤلفاته من منطقة البوسنة وأهلها وتراثها ، ولكنه كان يبحث فيها عن العناصر البشرية . وعلى هذا فإن بطله البوسنوى يرمز إلى الإنسان العالمى فى مواجهته للمشكلة الأبدية وهى المرأة .

ولقد تعددت وتنوعت مؤلفات إيفو أندريتش بحيث غطت على مؤلفات باقى الأدباء . فقد كتب الرواية الطويلة مثل روايات : جسر على نهر درينا ، تاريخ مدينة ترافنيك ، الآنسة ، الفناء الملعون . وكتب القصة القصيرة والطويلة ومن أشهر مجموعاته القصصية : السنة القلقة ، العطش ، امرأة غير موجودة ، العلامات ، الأطفال ، طرق ووجوه ومناطق ، عمر باشا لاتاس ، بيت فى مكان منعزل وغيرها . وقرض الشعر وكتب الشعر المنثور كما فى كتابيه : إكس بونتو والقلق . هذا علاوة على كتابته لمجموعة كبيرة من المقالات والأبحاث فى مجال الأدب .

وكانت لمنطقة البوسنة التى نشأ وترعرع فيها مكانة خاصة فى مؤلفات أندريتش فقد استلهم منها مادة لمعظم رواياته وأقاصيصه ، واستوحى أفكاراً من ماضيها وتراثها الأدبى وأساطيرها القديمة . وذلك لأن منطقة البوسنة وقعت كثيراً تحت وطأة الغزاة الأجانب ويدين سكانها بالأديان الثلاثة ، وتتسم بالعديد من المتناقضات القومية والاقتصادية

والاجتماعية . ومن أجل كل هذا كانت منطقة البوسنة عبر القرون مركزاً للتناقضات والصراعات والحروب والاغتيالات والآلام وإراقة الدماء . وكان أندريتش فى أعماله الأدبية هو الكاتب الذى يتعمق فى أغوار الحياة فى البوسنة ويحيط بجميع أشكالها وألوانها . وكان أشبه بالعالم الباحث الذى يدرس ويبحث ويجمع ، بما لديه من نهم وشوق فظيع إلى الحقائق ، كل معلومة صادقة عن البوسنة وعن كل ما يرتبط بها . ومن هنا يتهيأ للبعض أن صورة البوسنة فى أعماله صورة قاتمة محزنة وأنه يتعمد وضع أبطاله فى مواقف مأساوية صعبة لا لشئ إلا لكى يتألموا وكى يسخر القدر منهم على الدوام . ومع ذلك فأندريتش لا ييأس من الحياة بل الحياة فى رأيه تتجدد دوماً وتتولد من جديد قوية صلبة .

ولا شك أن أندريتش أول أديب من منطقة البوسنة يعامل معاملة متكافئة أتباع الأديان الثلاثة بكل عطف وإنسانية وفهم وحب لكل ما هو إنسانى ، فقد ألقى الأضواء بأعماله الأدبية على المسلمين والصرب (وكانت أغلبيتهم حينذاك من الأرثوذكس) والكروات (وغالبيتهم آنذاك من الكاثوليك) واليهود وعلى أتباع الملل الأخرى والطبقات الاجتماعية وعلى أهل بلده وكذلك الأجانب . وصور فى أقاصيصه ورواياته الرهبان الكاثوليك وأفراد العصابات والبكوات الأتراك ومعلمى الدين المسلمين والضباط النمساويين والتجار والباشوات والفتيات المسيحيات . وكتب كذلك عن الأثرياء والفقراء بأهوائهم وآلامهم وعن آفاقهم الرحبة وعن عاداتهم وتقاليدهم وأحاديثهم وعن تحركاتهم وتصرفاتهم . وبذلك كانت دائرة الشخصيات ، الأساسية أو الثانوية ، التى يعالجها أندريتش فى أعماله الأدبية دائرة واسعة يحيط بها ، فى بعض الأحيان ، الغموض بسبب الطباع السائدة بين أفرادها وبسبب ميولهم التشاؤمية . وكانت شخصياته فى أحيان أخرى عظيمة بسبب إنسانيتها ومتوحدة فى بؤسها وفقرها . وأندريتش فى معالجته لهذه الدائرة الكبيرة من الشخصيات

يزيدها طرافة وجاذبية ويقرب بينها وبين القارئ بمهارة وبراعة بالغتين .

ويمكننا القول بأن أندريتش بأسلوبه المتجدد الموجز وبكلماته الفلسفية العميقة يمثل مرحلة جديدة رفيعة فى تطور الفن الروائى ، وعلى الأخص المكتوب باللغة . ذلك لأن أندريتش يختار بدقة كل كلمة وكل عبارة وكأنه ينحت فى الصخر نحتاً يترك أعمق الأثر فى نفس القارئ . ويزن كل جملة ويحذف ما يشوهها ولا يلزمها ولذا فإن معظم أعماله الأدبية ذاخرة بمحتوياتها ومضامينها ؛ وهى كلها مكتوبة بلغة الشعب الفنية الرائعة ويعتبر كل واحد منها عملاً خالداً لا مثيل له . ومؤلفاته ، من ناحية أخرى ، تصل إلى أغوار الفلسفة ، ففيها يعالج الأمور المستترة والكامنة فى أعماق النفس البشرية ويحللها تحليلاً نفسياً ويرسم الجوانب المظلمة من حياة البشر واللحظات الحرجة التى يتعرضون لها ، وبذلك يسلب لب القارئ ويشد أنفاسه ويجذب عقله إلى كتاباته بالقليل الموجز من الكلمات التى أحسن انتقاؤها . هذا بالإضافة إلى أن أندريتش يتمتع بموهبة خارقة على الملاحظة ويعتنى أيما عناية برسم شخصيات رواياته وقصصه بأسلوب يبرز تملكه من اللغة وسيطرته عليها وعلى تعبيراتها .

وقد تحدثنا من قبل عن روايته المشهورة « جسر على نهر درينا » الصادرة فى عام ١٩٤٥ والتى يعدها النقاد من الروايات العظيمة .

أما رواية « تاريخ مدينة ترافنيك » (فى عام ١٩٤٥) فهى تقتصر على فترة زمنية صغيرة . ويصور أندريتش مدينة ترافنيك الصغيرة على أنها ملتقى لكبرى العواصف الحربية فى أوروبا . ومنذ خريف عام ١٨٠٦ وخلال فترة الغزو النابليونى وحتى ربيع عام ١٨١٤ والقوى الكبرى – فرنسا والنمسا وتركيا – تقوم بتنفيذ سياساتها فى هذه المدينة الصغيرة .

وهنا فى هذه المدينة الصغيرة تنعكس ، كما تنعكس فى أية مرآة مشوهة ، جميع الهزات السياسية الدولية وتصل أصداؤها إلى المدينة البوسنية الغارقة فى صراع معقد حول السلطة الحقيقية أو المتصورة . أنه صراع بين الشرق والغرب ، صراع بين عالمين تتباين ثقافتهما وتتعارض مداركهما . وفى الوقت نفسه وقعت الثورة الصربية الأولى وكان صوت هذه الثورة يثير قلق الشرق والغرب معاً . ونرى بجلاء فى هذه الرواية ما يمكن تسميته بالإيقاع الداخلى للأحداث وينعكس هذا الإيقاع على العواصف وعلى فترات الهدوء الاجتماعية المتتالية فى تتابع شرعى للفوضى وللنظام فتتنوع بذلك مصائر البشر .

وقد أوضحنا أن مدينة ترافنيك كانت هى مركز السيادة والسلطان خلال فترة حكم الأتراك العثمانيين لهذه المناطق . ثم افتتحت أول قنصلية فرنسية وتلتها أول قنصلية نمساوية . ولذا فإنه يطلق على هذه الحقبة فترة « القنصليات » . وقبل وصول هذين القنصلين كانت المدينة تعيش عيشة شرقية محافظة هادئة ، وكانت مهملة وبعيدة عن تأثير الحضارة الأوروبية ولا تقع إلا تحت التأثيرات الشرقية . ولذا فقد كانت هذه المدينة مكاناً برياً غريباً موحشاً بالنسبة لهذين القنصلين الأجنبيين .

وفى هذه المدينة وجد أندريتش مادة خصبة لقلمه فأخذ يشرح الأوضاع السائدة بالمدينة آنذاك ويصف بكل دقة وواقعية شخصية الوزراء العثمانيين وموظفيهم . وخصص أندريتش جزءاً من اهتمامه لتصوير شخصية كل من القنصلين الفرنسى والنمساوى . وكان القنصل الفرنسى دافيل نموذجاً عادياً للمثقف الفرنسى الذى جاء إلى إقليم شرقى مظلم فتتصارع فى نفسه روح الشرق والغرب . أما القنصل النمساوى فهو مخلص تمام الإخلاص لدولته ويتميز بالنشاط وحسن التصرف وإن كان من الناحية الثقافية لايرتقى إلى مستوى القنصل الفرنسى .

ويتصاعد الصراع بين هذين القنصلين فى هذه المدينة الوادعة ويتخذ

أشكالاً طريفة ، ويتطرق أندريتش بالوصف إلى تدابير القنصلين وإلى الجو الثقيل المرعب الذى اضطر كلاهما إلى العيش فيه ، إنه جو تسوده العزلة والجهل والقسوة المتناهية ، الأمر الذى كان فى بعض الأحيان يقرب من القنصلين بالرغم مما يكنه كل منهما تجاه الآخر من مشاعر الريبة والحذر .

وقصة الآنسة (فى عام ١٩٤٥) تعالج عدة موضوعات فى آن واحد ، فهى تعالج موضوع الفراغ والوحدة فى حياة الإنسان وتعالج رذيلة البخل المعروفة معالجة جديدة أضفى عليها الكثير من العناصر والأبعاد الجديدة والصور الحديثة . ويقوم أندريتش فى هذه القصة بتحليل نفسى لشخصية كلاسيكية وهى شخصية الفتاة « رايكا » البخيلة التى فقدت اسمها الحقيقى وأصبح أفراد المجتمع يسمونها « الآنسة » نظراً لانعزالها عنهم بعد أن أصبحت أسيرة لرذيلتها ولشهوتها فى تكديس الأموال .

وألقى أندريتش الضوء على دوافع هذه العزلة القاسية التى لجأت إليها هذه الفتاة والأسباب التى أدت بها إلى ذلك . فوراء هذه العزلة مأساة عائلية محزنة . لقد رأت فى طفولتها والدها الذى كان يغمرها بحبه وحنانه يقع ضحية للاحتيال والخداع وينهزم فى صراعه المرير مع الحياة شر هزيمة . وشاهدت بعينيها العاصفة التى أودت بلا رحمة ولا هوادة بسمعة والدها التاجر وبكل ممتلكاته وجعلته يشهر إفلاسه . وطلب منها والدها ، وهو يلفظ أنفاسه على فراش الموت ، أن تكون قاسية تجاه نفسها وتجاه الآخرين وأن تقتل فى نفسها كل الاعتبارات الإنسانية حينما يكون الأمر متعلقاً بالمال . وكانت تفوح من كلمات والدها رائحة الهزيمة والفشل وفقدان الثقة بالبشر أجمعين ، وسرعان ما أصبحت هذه الكلمات هى القائد والموجه للفتاة الصغيرة فى حياتها التى ستمضي تبعاً لتعليمات والدها وإرشاداته وكأنها الوصفة الطبية لعلاج أمراض الحياة . وتعيش

الابنة حياتها وقد تسلطت عليها فكرة الأخذ بثأر والدها وسار في أغوار نفسها الحقد والبغض ، وأخذت تقسو على نفسها وعلى الآخرين وتقتلع من قلبها كل ذرة للإحساس بالرحمة والشفقة وتغطى باللون الأسود كل مسرات الحياة ومباهجها وتكرس جل حياتها لجمع المال واكتنازه .

وشوه البخل وجه هذه الفتاة وجعلها أسيرة له ولمطالبه فهى تنطوى على نفسها تماماً وتغلق قلبها وتعيش فى وحدة أشبه بوحدة القبور وتنعزل عن الناس وتبتعد عن كل أطايب الحياة ولذائذها وتتملكها الأنانية وتحقد على كل إنسان . وحتى أمها لم تسلم من قسوتها وسوء معاملتها . ولم يكن هناك إلا شخص واحد يبهجها ويدخل السرور على قلبها ألا وهو خالها الماجن المستهتر الذى لا يشعر بالمسئولية نحو أى شيء ولا يحمل فى قلبه هماً ولا غماً . إنه الخال فلادو الذى استطاع بطبيعته الساحرة وتصرفاته الطائشة المستهترة أن يلين قلبها المتجمد المتحجر ، فلم تعد تعارضه بل أخذت تجاريه فى طيشه وهى تشعر بسعادة بالغة . وبسبب شدة حبها لهذا الخال ستنهار تماماً وتنهار كل مبادئها بخصوص التوفير والتقتير وذلك لأنها تعرفت على شاب طائش قريب الشبه للغاية من الخال فلادو . واستطاع هذا الشاب أن يصل إلى مفاتيح قلبها وأصبحت ضعيفة أمامه وأمام مطالبه المتزايدة .

وتقل الأحداث فى هذه القصة التى تعد تحليلاً تاريخياً نفسياً لامرأة بخيلة ، وذلك لأن حياة « الآنسة » تمضى بمنأى عن الأحداث الخارجية ولذا فقد انصب اهتمام اندريتش على التحليل النفسى . ولم يتعمق اندريتش فى وصف الشخصيات الأخرى التى تحيط بحياتها سواء فى محيط العائلة أو فى محيط العمل وذلك لأن هذه الشخصيات كالسحاب سرعان ما تنقشع عن حياة الآنسة ، كذلك يقل الحوار فى هذه القصة نظراً لانطواء الآنسة على نفسها ولندرة اتصالها بالعالم الخارجى ولإغلاقها قلبها .

وقصته الرابعة « الفناء الملعون » صغيرة فى حجمها عظيمة فى مضمونها ، فهى تمثل موجزاً للخطوط الحتمية التى تمضى إليها مصائر البشر ، وتمثل صورة لمكان يتجمع فيه المحبوسون والمساجين عن حق أو عن غير حق . ويستغل أندريتش هذا الموقف لكى يصور مقدار عظمة الناس وبؤسهم فى آن واحد . وهذا السجن الموجود فى القسطنطينية هو صورة مصغرة لجهنم ، وصورة للعداء الكبير بين البشر ولصداماتهم الأبدية وَلخلافاتهم حول السلطة .

وهناك فى الفن الروائى لأندريتش لمسة حزن تبرز حتى حينما يريد أن يشجع ويحفز الهمم . وتجد فى مؤلفاته انطباعاً بعبث الجهود البشرية أمام الموت والعدم والتغير الأبدى بالإضافة إلى اللامبالاه العامة للطبيعة وللأمور . ويشبهون فنه بفن الأديب نيجوش ، فهو شعبى وبداخله شيء صلب يكاد لا يتحطم مثلما كان ماضى البوسنة عند أندريتش . وتتضح فى هذا الفن استنتاجات عن الزوال والشقاء ولكنه مخضب بالإحساس الصلب بالإنسانية وبالإيمان بضرورة النضال من أجل الإنسان وبالرحمة تجاه آلامه ومعاناته .

وقد حاولت من خلال تصريحات إيفو أندريتش ولقاءاته الصحفية ومن خلال ما كتبه عن النقاد والباحثين أن أتوصل إلى الأمور والشخصيات التى أثرت تأثيراً حاسماً على تكوينه الأدبى ، فوجدت أن أندريتش لا يعتقد على الإطلاق فيما يسمى بالتأثيرات الحاسمة ، فالإنسان – فى رأيه – ينمو ويتطور ويقرأ ويصور ويكتب ويؤلف . وهناك أشياء تشده أكثر من غيرها وهناك أشياء يكرس الإنسان نفسه لها وأشياء يقاومها بوعى أو بلا وعى ، ويدلل أندريتش على فكرته هذه بأنه فى بعض الأحيان يسستفيد من إحدى الحفلات الموسيقية أكثر من استفادته من التقائه بأديب يحبه ويعجب به . وفى بعض الأحيان يحدث العكس ، فقد يحدث له أن يذهب إلى إحدى الحفلات الموسيقية وهو فى منتهى السعادة لأنه

سيسمع للمرة الثانية تلك المقطوعة الموسيقية التى يحبها ويهواها والتى كانت فى وقت من الأوقات تعنى الكثير بالنسبة له ، ثم يعود من الحفلة الموسيقية وبداخله فراغ لينهش أحشاءه وقفر يخيم على نفسه . ومن المنطقى أن المقطوعة الموسيقية لم تختلف ولكن حالته النفسية هى التى اختلفت عن سابقتها . ففى المرة الأولى كان منفتحاً وعلى استعداد لقبول وتقبل تأثير من التأثيرات ، وفى المرة الثانية كان متعلقاً بالكتاب المطوى . وربما بالنسبة لتلك الأمور التى أعمل فيها فكره يومها وبالنسبة لما جادت به قريحته فى حينها كانت الحفلة الموسيقية الثانية ، أى تلك التى خيبت ظنه ، هى أهم بكثير من تلك الحفلة الأولى التى ظلت عالقة فى نفسه كالذكرى الطيبة .

ومن خلال كل ما قرأته عن أندريتش يمكننى بالكاد أن أستخلص أن من تلك الأمور الحاسمة التى أثرت على تكوينه الأدبى واتجاهه إلى الكتابة هى تلك الواجهة التى تحدثنا عنها فى البداية بكتبها الكثيرة وبعناوينها الغامضة ، ثم ذلك الكتاب الفلسفى الوحيد الذى انفرد به فى السجن لمدة عام كامل . كما أن أندريتش كان يحب فى شبابه أشعار الشاعر الإيطالى ليوباردى ويفتتن بها ، ولا شك أنه تأثر بها وظهر ذلك فى بعض كتاباته . وتأثر أيضاً بالأدباء والشعراء البولنديين وكذلك الاسكندنافيين أمثال سترندبرج وهامسون وإبسن . وكان حدثاً كبيراً تعرفه على الأدباء الفرنسيين والروس والألمان والانجليز والآسبان . وقرأ عن طريق الترجمات الفرنسية والألمانية شعر قدماء الصينيين وأثار لديه الكثير من الانفعالات بسبب دفئه وأفكاره الجيدة لدرجة أنه تولدت لديه رغبة فى رؤية الصين وتحققت له هذه الرغبة فيما بعد .

بهذه الخطوط الرئيسية برز هذا الأديب الذى يعد من مشاهير أدباء البوسنة والهرسك ، وبها سجل مرحلة جديدة متميزة فى تطور الأدب وخلق نظرة واقعية حديثة رفع بها هذا الأدب على طريق تطوره ، وكفاه

فخراً أنه حمل إليه جائزة نوبل للأدب فى عام ١٩٦١ . وكان حصوله على الجائزة نقطة تحول حاسمة على طريق جذب انتباه وأنظار الدوائر الثقافية فى العالم أجمع إلى هذا الأدب النامى المتطور الذى أخذت بشائر نهضته تتضح حتى استوى أدباً يلفت الأنظار ويزخر بمجموعة طيبة متنوعة من الأعمال الأدبية الجيدة التى تتمتع بقدر كبير من الأصالة الأدبية والمقومات الفنية . وكل هذه الخطوط حدت أمهات الصحف العالمية إلى تقريظ أدبه ولقبوه بتولستوى تشبيهاً له بهذا الأديب الروسى .

ولا يتم مطلب الحديث عن أندريتش وأعماله الأدبية دون الإشارة إلى أن مؤلفاته كانت تلقى العديد من الانتقادات إلا أنه كان يتم التعتيم عليها وعدم إبرازها لأسباب سياسية وأدبية وعلى الأخص بعد حصوله على جائزة نوبل للأدب . أما الآن وقد تغيرت الظروف وتفكك الاتحاد اليوغسلافى إلى جمهوريات مستقلة يسودها مناخ سياسى مختلف عن سابقه وبعد أن أخذت الديمقراطية طريقها إلى الانتشار فلم تعد هناك محظورات – على الأقل بالنسبة لأندريتش .

فالناقد ستويان يانكوفيتش يعيب على أندريتش عدم معالجته للموضوعات الحديثة ، وأنه اتجه إلى الماضى من أجل أن يخلد تنصيب أحد المتمردين الصرب على الخازوق لكى يثير الخوف والرعب من العثمانيين – فهل كانت هناك ضرورة لذلك ؟ وهل هذا مفيد لنا نحن الصرب ؟ وهل رواية أندريتش ستخدم مستقبلنا ؟ أما الأديب جورج يوفانوفيتش فيتهم أندريتش بتحريف وتشويه التاريخ والتلفيق والمبالغة غير اللازمة فالبوسنة التى وصفها أندريتش فى أعماله كانت غير طبيعية وحافلة بالأمراض والبؤس .

وتمت الإشارة فى بعض الانتقادات الأخرى إلى أن أندريتش استغل تفاصيل تنصيب المناضل السورى من أجل الحرية سليمان الحلبى على

الخازوق فى عام ١٩١٥ بمعرفة المستعمر الفرنسى كنموذج يحتذى به . ووصف الحادث بكل تفاصيله المثيرة للفزع والقشعريرة ونسبه إلى العثمانيين .

ويرى الباحث نيهاد كرشيفلياكوفيتش أنه لا يمكن وصف الروايتين « جسر على نهر درينا » و « تاريخ مدينة ترافنيك » بأنهما تاريخيتان لأنهما لايعكسان ولو من قريب الصورة الواقعية للأحداث المذكورة بالروايتين ، والأكثر من ذلك أن أندريتش فى هذين المؤلفين شوه الأمور المعروفة وكيفها لأهدافه . ويدحض نيهاد ما كتبه أندريتش بأنه تم تشييد الجسر بالسخرة وذلك لأنه عند إقامة أوقاف خيرية يتحتم دفع الأجر للعمال الذين قاموا بالعمل . ويشهد على ذلك العديد من المراجع والقصائد الشعبية التى خلدت هذا الجسر .

وتذكر صحيفة « آراء بوسنية » أن روايتى « جسر على نهر درينا » و « تاريخ مدينة ترافنيك » مكتوبتان لأسباب سياسية تعصبية بهدف نسب القتل الجماعي وقسوة السكان المسلمين إلى عهد الأتراك العثمانيين ، وبذلك يتم فى الوقت نفسه بطريق غير مباشر تبرير جرائم التشتنيك التى جرى ارتكابها خلال الحرب ضد السكان المسلمين فى البوسنة .

وهناك فى روايات أندريتش بعض الأمور التى لم يوافق عليها شعب المسلمين فى البوسنة والهرسك ، وعلى الأخص المثقفون منه . وفى هذا المضمار يتم ذكر أن رسالة الدكتوراه الخاصة بأندريتش لم يتم نشرها إلا بعد وفاته . وفى هذه الرسالة حاول أندريتش أن يبرهن على التخلف الأدبى والثقافى للبوسنيين واعتبر ذلك اكتشافاً علمياً وبهذه الروح وبهذا المضمون كتب رسالته التى حصل بها على درجة الدكتوراه من جامعة جراتس . وفيما بعد عالج نفس الفكرة فى عدد كبير من قصصه ورواياته التاريخية عن البوسنة وأهلها .

مراجع مختـارة

١ – مجموعة من المؤلفين ، الإسلام والمسلمون فى البوسنة والهرسك ، سرايفو ١٩٧٧ .

٢ – للمؤلف ، العرب والكلمات العربية فى النثر باللغة الصربوكرواتية ، رسالة دكتوراه غير منشورة .

٣ – ميلينكو فيليبوفيتش ، العناصر الشرقية فى الحضارة الشعبية للسلاف الجنوبيين ، مجلة الفيلولوجيا الشرقية ، سرايفو ١٩٧٠ .

٤ – توفيق موفتيتش ، عن الكلمات العربية فى اللغة الصربوكرواتية ، مجلة الفيلولوجيا الشرقية ، سرايفو ١٩٦١ .

٥ – عبد الله شكاليتش ، الألفاظ التركية فى اللغة الصربوكرواتية ، سرايفو ١٩٦٥ .

٦ – فهيم سباهو ، أرشيف معهد الاستشراق فى سرايفو ، مجلة الفيلولوجيا الشرقية ، سرايفو ١٩٧٥ .

٧ – د. أحمد سمايلوفيتش ، فلسفة الاستشراق وأثرها فى الأدب العربى المعاصر ، القاهرة ١٩٨٠ .

٨ – محمد بن محمد الخانجى البوسنى ، الجواهر الأسنى فى تراجم علماء وشعراء بوسنة ، القاهرة ١٣٤٩ هجرية .

٩ – إسماعيل باليتش ، ثقافة البشانقة الإسلامية ، وين ١٩٧٣ .

١٠ – على إسحاقوفيتش ، الجواهر – مختارات من أدب المسلمين ، زغرب ١٩٧٢ .

١١ – للمؤلف ، الأدب اليوغسلافى المعاصر ، الكويت ١٩٨٤ .

١٢ - رادوفان بوبوفيتش ، أقوال عن أندريتش ، بلغراد ١٩٧٦ .
١٣ - د. صافت بك باش آجيتش ، البشانقة والهرسكيون فى الأدب الإسلامى ، سرايفو ١٩٨٦ .
١٤ - محسن رذفيتش ، الإطارات الظاهرية والمميزات الداخلية للأدب الأعجمى ، سرايفو ١٩٧٢ .
١٥ - محسن رذفيتش ، الأعمال المختار لأدهم مولى عبديتش ، سرايفو ١٩٧٤ .
١٦ - سرجان يانكوفيتش ، النطق العربى ، سرايفو ١٩٨٧ .
١٧ - محسن رذفيتش ، الإبداع الأدبى للكتاب المسلمين فى البوسنة والهرسك خلال الحكم النمساوى المجرى ، سرايفو ١٩٧٣ .
١٨ - النقاد عن ميشا سليموفيتش ، سرايفو ١٩٧٣ .
١٩ - رادوفان فوتشكوفيتش ، مشاكل وأدباء ومؤلفات ، سرايفو ١٩٨١ .

الفهرس

المؤلف فى سطور

- **دكتور جمال الدين سيد محمد**
- من مواليد القاهرة فى عام ١٩٤٢ .
- تخرج فى كلية الألسن بجامعة عين شمس عام ١٩٦٣ (قسم اللغة الصربوكرواتية) .
- حصل على درجة الماجستير (عام ١٩٧٦) والدكتوراه (عام ١٩٧٩) من كلية اللغات بجامعة بلغراد .
- له ترجمات من آداب شعوب الجمهوريات اليوغسلافية السابقة إلى اللغة العربية .
- له ترجمات من الأدب العربى إلى لغات شعوب يوغسلافيا سابقاً .
- من أشهر مؤلفاته : الأدب اليوغسلافى المعاصر ، ومقدونية بين الماضى والحاضر ، ومصر عدم الانحياز .
- نشر عديداً من الأبحاث فى مجال آداب شعوب الجمهوريات اليوغسلافية السابقة والدراسات المقارنة بالعديد من المجلات فى العالم العربى .
- عضو اتحاد كتاب جمهورية مصر العربية .
- يعمل حالياً رئيساً لتحرير « جريدة الجرائد العالمية » بالهيئة العامة للاستعلامات .

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهي نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الإبداع المختلفة .


مطابع
ت : ٩٣٢٧٠٦

• الكتاب الذى يشرف بأن يكون بين أيديكم يضم دراسات وأبحاث تستهدف ببساطة شديدة التعريف بجمهورية البوسنة والهرسك الوليدة عن طريق عرض غاية فى الايجاز لبعض الجوانب التاريخية والحضارية والدينية واللغوية والثقافية والأدبية .

• وليس المقصود من هذا الكتاب هو الدفاع عن قضية شعب البوسنة والهرسك وحقه فى الحياة الحرة الكريمة كأى شعب آخر على وجه هذه البسيطة ، بغض النظر عن جنسيته أو قوميته أو ديانته .

• وإنما غاية ما يهدف إليه مؤلف هذا الكتاب هو إنقاذ ملف مسلمى البوسنة والهرسك من الضياع فى خضم الأحداث السياسية ، وتسجيل بعض ملامح تلك السمات الإسلامية التى أراد البعض عن عمد محوها . كما يود المؤلف أن يسجل لقطات سريعة لبعض المدن التى جرت تسويتها بالأرض فى هذه البقعة من العالم ، وأن يصور مشاهد لبعض الآثار الإسلامية الثرية .

• وأراد المؤلف أيضاً أن يبرز النسائم الإسلامية التى تتضوع من أعمال أدباء هذه الجمهورية وأن يدعم الهوية الإسلامية للأغلبية من شعب البوسنة والهرسك .

